خيري الذهبي



التحولات (١)

حسيبة

رواية

حسيبة

خيري الذهبي

حسيبة

رواية

(1)

هاهي جادة التعديل

همس صياح، ونظرت حسيبة إلى القوس الحجري الأسود، ومدخل الحارة نصف المعتم، وهي تجرُّ خطواتها من ورائه، ثم مشت تتبعه.

نظرت إليه يتقدمها قليلاً، فرأت حذاءيه الأحمرين اللذين لم يعودا أحمرين منذ حملاه من القطيفة، فقد حملا في رحلتهما الطويلة تلك أطناناً من التراب والغبار، رمقَتْ شرواله الرصاصي ومعطفه الواسع والصُّرَّة المعلقة إلى عصاه، رمقت كل شيء فيه متفحصة بسرعة، ثم تبعته مستسلمةً، كانا قد غادرا لتوِّهما القنوات، فتمنَّت لو يحدثها عن هؤلاء الدكنجية الذين كانوا يراقبونها بعيون متأملة وقحة، تمنت لو يحدثها عن هذا الخرير الجميل في نهر القنوات الذي افتقدته خلال السنوات الماضية، فقد كان حلم النهار وأرق الليل سماعَ خرير ماءٍ مهما ضَؤلَ، وظلالَ شجرة مهما اصفرَّت يحتمون بها من لفح الشمس، ويشربون منها حتى يرتووا كالجِمَال لأيام، نظرت في البدء إلى الدكاكين فألهبها منظر السكاكر بألوانها الحمر والخضر والصفر والزرق المُكَوَّمة في القطرميزات، وقفزت إلى ذاكرتها حسيبة الطفلة تمضي إلى الدكان بجرأة، فتُلقي إليه بمتليك أو متليكين، وتملأ جيوبها سكاكر تتسلَّى بامتصاصها ثم قضمها قبل أن تصل إلى البيت عائدة.

للحظة تمنَّت أن تقف مع أبيها أمام واحدة من هذه الدكاكين فتملأ جيوبها وجيوبه من هذه السكاكر المُشتَّهاة، نظرت إليه بجانب عينها وكادت تقترح، وحين رأت أكوام علب الحلاوة الطحينية تحرك جوع الأمس واليوم، وهي تظن أنها ضغطت على ذراعه تستوقفه ليشتري واحدةً من علب الحلاوة التي تذوب تحت الأسنان، وتنزُّ بالزيت العطر والفستق الذي يقفز إلى الأسنان فجأة هدية خضراء

عطرة مشتهاة، ولكن حين لم يحسَّ بضغطتها، أو ربما أحسَّ وتجاهل، بل ربما لم تضغط هي أصلاً، تقدمت وراءه تختفي بعيونها عن أولئك الدكنجية يلاحقونهما بنظراتهم الوقحة المتسائلة أبداً.

- هذه حارة التعديل.

قال وهو ينحرف بها من شارع القنوات، ودهمها الخوف وهي تنحدر تحت الأقواس الرطبة العتمة قليلاً، ولكن أرض الجادة المرصوفة بالحجارة حَمَتْها من الانزلاق في انحدارها حتى التعديل.

توقف أمام المسجد. ماذا؟ هل سنصلي هنا؟ ولكنه علَّق العصا بين كوى نافذة الجامع الحديدية في مهارة تاركاً صُرَّتَه تتدلَّى من ذراعها وشمَّر: تعالي. اقتربت. دعينا نغسل عن أنفسنا وساخة السفر.

غطس ذراعيه في البحرة الصغيرة خارج الجامع، صفق وجهه بالماء البارد، سمعت وجهه يتلَّوى تحت وقع الماء البارد. ترك الماء ينزلق عن وجهه قليلاً، ثم ملأ كفيه، وصفق وجهه ثانية بالماء، كانت تحسُّ باستمتاعه وهو يتلوَّى تحت متعة الماء البارد النظيف، غطس ذراعيه حتى الكوعين ثانية، غسلهما جيداً، أزال عنهما أكواماً من غبار وطين القلمون، مسح شعره، فعاد كفاه أغبرين موحلين: لابد من حمَّام، همس: فيما بعد.

قالت: لا بأس، هزَّ رأسه، ثم أكمل الوضوء المضاعف، مسح على ثيابه، نَظَّف حذاءيه، فعاد إليهما بعض الحمرة، وأخيراً ابتعد تاركاً لها المكان لتنظَّف نفسها، فكَّ كوفيَّته وأخذ يتنشَّف بها، وأحسَّ بانتعاش وراحة قديمين يتسللان إليه، فها هو يعود إلى الشام، وهاهو يتنظَّفُ بمائها، وهاهو قد شرب وارتوى ثانية من ذلك الماء الرائق البارد والذي حلم طويلاً بتذوقه.

راقبها وقد شمَّرت عن ذراعيها، وهي تصفق وجهها، وهي تفرك ذراعيها، وهي تنظف فمها، تغسل رجليها، ثم وهي تبتعد عن البحرة لتجلس على مصطبةٍ مرتفعة قليلاً تتنشَّفُ، وفجأة دهمه الخوف: كيف سيستقبلهما؟.

ألن يخاف من مغبَّة استقبال متمردين مثلهما؟ ألن (يحسبها) ليكتشف مقدار المغامرة في استقبال مثل هذين المتمرِّدين ومقدار الأذى الذي يمكن أن يسببه له هذا الاستقبال من الفرنسيين ثم... إذا افترضنا أن هذا كله لن يهمه، فلماذا أصلاً يكلِّف نفسه عناء استقبال هذين القريبين البعيدين، ينفق عليهما، ويستضيفهما إلى أن يعثرا على عمل وبيت؟ أف! همس لنفسه وقد أنهت تنشيف نفسها ونفض ثيابها من الغبار والرمل والقلمون والمنفى، وقفت أمامه وأحسَّ أنها تقول: حسن، فماذا ننتظر؟

وفهم أن التلكؤ لن يفيد، وعليه الآن أن يتقدم، فليس أمامه من خيار آخر، قال وقد انتصب: هيا.

ورنَّتْ (هيا) في سمعها مخالفة لمعناها الصوتي، فقد فهمت منها بسرعة كل (الهيَّات) القديمة التي اضطرا إليها، كل الهيَّات التي، ما كان يتمنى قولها ولكنه أُجبِرَ على قولها، أجبره الزمان والأحزان وتخلي الخُلاَّن.

قال: هيا. فمشت وراءه كما مشت حين، قبل خمس سنوات، قالها فتركت القطيفة، وتركت الخال، وقبر الأم، وسنوات من اليتم والجوع، وانتظار ذلك الأب الذي أخبروها أنه مضى إلى السفر برلك، وأنه...ربما يعود.

حين قال: هيا، فمشت وراءه لم تعرف أنها ستبدأ ثلاث سنوات من الجبال والصخور والنوم في شقوق الأرض، وسماع بنات آوى تعوي من حولهم تَشتَّم رائحة المريض والجريح فتفقدها الرائحة خوفها، فتتقدم، ولا يردها إلا صرخة الحارس، أو حصبه لها بالحجارة، لم تكن تعرف أنها ستبدأ خمس سنوات من بقجة معلقَّة إلى الظهر وشروال وميتان وعقال يلفُّ الرأس فلا يميزها من أبيها ولا يميز رفاق دربها منها.

حين قال: هيا، فمشت وراءه لم تكن تعرف أنها ستبدأ رحلة طويلة تسمع فيها بأسماء لم يكن يخطر في بالها الطفل أنها ستسمعها أبداً، فقد كان عليها أن تصغي إلى سهرات تمدح فيها أسماء وتذمُّ أسماء، ثم ما تلبث أن تسمع في سهرات تالية مديح الثانية وذمُّ الأولى، وكان على ميشيل لطف الله وعادل أرسلان، ونبيه العظمة،

وخير الدين الزركلي، وسعيد العاص أن تلصق بالذاكرة، ثم تغيب في السنوات القادمة، أو تطفو ثانية حَسَبَ تموُّجات الذاكرة، ولكن اسماً وحيداً منها حُكِمَ عليه أن يظل عالقاً بذاكرتها إلى الأبد وبخاصة بعد أن تؤوي بعد بضع سنوات لاجئاً إلى بيتها ستكتشف أنه متَّهم بقتل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الرجل الذي احترمته أكثر من كل من حملتهم ذاكرتها الطفولية.

حين قال لها: هيا، فمشت من ورائه تحت أقواس جادة التعديل لم تكن مرَّتها الأولى ولا الثانية فلقد سمعتها منذ أيام فقط. سمعتها، وحاولت تجاهلها لعله ينساها، ولكن مرأى الكُوفيَّات البيض تتسرَّب وتختفي واحدة إثر الأخرى حتى إذا ما غابت في ثنايا الوادي، أو بين خضرة السنديان المصفر، ثم انقضت أيام ولم تَعُدْ ثانية ليفهما عاجزين أنَّ واحداً آخر قد مضى متسللاً إلى عمَّان، أو بغداد، أو الحجاز.

حين قال لها: هيا فمشت من ورائه مستسلمةً كادت تبكي، فهذه الهيَّا التي قالها وهو يجمع أشياءه المسكينة في بُقْجَةٍ تشدُّها إلى ظهرها، فلم يعد يعمر الجبل إلا صيَّاحُ وحسيبة وخمسة من البسطاء المساكين الذين لم يملكوا التسلل، أو لم يسألوه، فعرفت، ولو بعد معرفة صياح بذلك، أن البقاء لم يعد يساوي مخاطره، وأن عليهما أن يبحثا عن طريق للخلاص، للكمون والانتظار كما أفهمها ذلك الجميع في انتظار **الخطوة القادمة**. ولما كانوا لا يستطيعون الوقوف وحيدين بعد أن تخلَّى من استطاع التخلي مغادراً إلى عمان والحجاز وبغداد، ومضى القادرون إلى القاهرة ليبدأوا ثورة الصحف والمجلات والمهاترات والفضائح، تلك التي ستزكُمُ أنفَ صيَّاح وحسيبة فيما بعد حتى لتقسم على أبيها ألاَّ يُدْخِلَ صحيفةً إلى بيتها من بعد، ويبرَّ بالقسم حتى يحطم قدسيته فياض فيما بعد حين جاء وجاءت معه الصحف كلها مرة واحدة.

حين قال لها: هيا، فمشت من ورائه مودَّعة الجبل والشيح والسنديان وشقوق الأرض وعواء بنات آوى قالت له:

- ولكن إلى أين، نحن وحيدان، يا صياح المسدي؟

ـ لا أعرف، ولكن يجب أن نبحث عن طريقة نبتعد فيها عن الجبل لأنهم... وعرفت أنه يعني الفرنسيين... ما إن يعرفوا بأن الجميع قد مضوا، ولم يبق إلا... نحن، وأشار إلى تلك الحفنة من البسطاء، فسيأتون، ولن نستطيع الوقوف أمامهم، وسينتقمون منَّا لكل الضربات التي كالها لهم جماعتنا.

نفض غباراً متخيلاً عن ثوبه، وهو يقوم، قال: هيا، ومشى فمشت معه. لم تكن أشياؤهما كثيرة، ولم تكن أحمالهما ثقيلة. كانت صُرَّة علَّقها صياح إلى بندقيته المحمولة على كتفيه كالعصا، وبقجة ربطتها حسيبة إلى ظهرها ونزلا من الجبل، كوفيتان بيضاوان تلوحان بين شجيرات السنديان والإجاص البري والزعرور والشيح حتى تبتلعهما الخضرة فيختفيان.

كانت أقواس التعديل واطئةً حتى لتخاف على رأس أبيها الاصطدام بواحد منها، ولكن رأسه المُدرَّب على تحاشي العوائق لم يصطدم بواحد من هذه الأقواس.

عبرا حارات نصفَ معتمة، اجتازا أكوام زبالة توزعت فيها قشور الباذنجان وبقايا البندورة، وعظاماً ممصوصة جيداً.

كانت تمشي من خلفه تراقب الأبواب الخشبية المحفورة، المنقوشة المُزَيَّنة، ومطارق النحاس الأَسَديَّة الشكل والنسائية الملمس، وتتمنى لو تمسك واحدة منها، فتطرق على باب ما، ثم تهرب كما اعتادت أن تفعل قبل سنوات وسنوات، أتراه عمرٌ طويلٌ ما انقضى بين حسيبة الطفلة وحسيبة العائدة لا تعرف أين تقودها خطوات صياح المسدي؟!

حين وقفت حسيبة مستسلمة لوقفته أمام الباب الخشبي لبيت حمدان أضناها الرعب البادي على وجه صياح، فأقسمت في أعماقها أن تلك الهزيمة لن تكون معركتها الأخيرة، بل لابد لها من أن تنتصر ثانية نصراً لم تكن تعرف كيف سيتجلى، ولكنها كانت مصممة عليه.

للحظةٍ أو لحظتين فكرت في أن تجذب ذراع أبيها وتصرخ: صياح المسدي لسنا في حاجة إليهم دعنا نَعُدْ إلى الجبل: هناك

سنعيش حربنا الخاصة، ليس من أحد يموت من الجوع، نستطيع أن نعود إلى كهفنا وهناك لن نَعْدِمَ رغيفاً أو أرنباً نأكله.

ولكنها رأت الخوف والخجل والأمل تختلط في وجه أبيها، فصمتت قليلاً، وحين أعاد صياح الطرق على الباب التفتت إليه وتحدٍّ عنيف يهيجها، ووصلت الكلمات إلى حلقها، تلك الكلمات التي أنمتها سنوات الجبل والنوم تحت السماء ومصافحة الموت ببندقية عتيقة ورصاصات لا تخاف أن تنتهي، ولا تعرف متى تنتهي؟

ولكن وقع خطوات غامضاً أخذ يقترب، فأصمتها، وبعث الاضطراب إلى قلبها، وفجأة لم تعد مستندة إلى أبيها تحمل وزر الخوف والخجل والأمل، فقد هاجمتها الذكريات السريعة ثانية، فذكرت ليالي الانتظار والرعب والرصاص، ونواح بنات آوى، وروائح الضباع، وعواء الذئاب ولون السنغال اللامع من بعيد فاستسلمت تنتظر.

(2)

حسيبة

حين طرق صياح المسدي الباب الخشبي الكبير لبيت حمدان الجوقدار كان يتمنى ألاّ يفعلها ويطرق الباب، كان يتمنى لو أن الأحلام التي انتزعتهم من هدوء المدينة إلى الجبل ليبدأوا رحلة طرد الفرنسيين، هذه الأحلام التي لو أثمرت وحقَّقتْ شكلاً من أشكال الوطن الذي شبعوا حديثاً عنه لما كان مضطراً إلى طرق باب حمدان الجوقدار ابن الخال البعيد والذي لم يبق له في الشام سواه يطرق بابه ويسأله المأوى لعدة أيام، له ولحسيبة حتى يجد بيتاً وعملاً. كان يعرف أن هذا الطرق على باب حمدان إذلال لا يستحقه، ولكن ماذا يعمل وهو الذي تلَّفت من حوله ليكتشف مختنقاً بالخيبة والمرارة واللاجدوى بعد عدة محاولات مخفقة للمِّ شمل من تبقَّى من الثوار أن ذلك كان شبه مستحيل، فصياح المسدي وكثيرون من أمثاله كان يمكن لهم أن يحملوا السلاح ويُجرحون، ويُؤسرون، ويُشوهون وهم على إيمانهم بأنهم يخدمون القضية التي من أجلها تركوا البيوت المريحة، وسرير الزوجة الدافئ، هؤلاء الناس المرشَّحُون دائماً ليكونوا وقود الثورات والحروب والخسائر الدائمة التي تسجل بعد نهاية الحرب ضمن الأرقام الصمَّاء بعد أن يُذكر القادة والزعماء والعظماء والخطباء إن سقطوا في الحرب، ثم يضاف إليهم وقد قتل في تلك المعركة مئتان وستة وثلاثون شهيداً رحمهم الله، كان صياح المسدي واحداً من هؤلاء المرشحين دائماً ليُكتب عنهم مئتان وستة وثلاثون شهيداً رحمهم الله، ولكن حتى هذه الشهادة لم يحصل عليها صياح المسدي رغم مشاركته في حروب الترعة وغزة والجوف ودخوله دمشق مع اللنبي وفيصل، وخروجه مع يوسف العظمة إلى ميسلون، ومع حسن الخراط إلى الغوطة، ومع سعيد العاص إلى جبل الدروز وإقليم البلان وضياعه معه في جبال القلمون، ثم تلفُّته من حوله مندهشاً: يا إلهي! أين أولئك الذين قضيت معهم كل هذه السنوات الأخيرة حتى اعتقدت أن مهنة الإنسان الوحيدة هي الحرب؟!

تلفَّتَ حوله مندهشاً حين وجد نفسه وحيداً مع حسيبة في الجبل، فخاف الوحدة وأخذ يتنقل بين قارة، وأكروم، وتل كلخ، وحماة، والقطيفة، والضمير، يحاول لمَّ شمل أولئك الذين أيقنوا أن كل شيء قد ضاع، فأخذوا يتسربون مع الليل، ويختفون مع العتمة الأولى، ثم

يجابهونه حين يسألهم العودة إن لم يكن بالتهرب، فبالحزن والخيبة، وأنَّ الوقت لم يعد مناسباً.

في تلك الأيام قال صياح المسدي لحسيبة كلمته المشهورة: الثورة انتهت، والسامرُ انفضَّ يا حسيبة، وحين استوضحته مُلحَّة قال: العالم كله قد صار ضدي يا حسيبة. الإنكليز في العراق والأردن لا يريدون لنا الاستقلال، وفي فلسطين طبخة وسخة يستطيع المزكوم أن يَشُمَّ ريحها من أميالٍ، وهاهنا، الأمير ميشيل لطف الله ضد الأمير عادل أرسلان، والأمير أرسلان ضد الشهبندر والشهبندر ضد الاستقلاليين، والاستقلاليون ضد الشعبيين، يا إلهي! ما أكثر ما ضيعت من عمري!

بعد سنوات وحين كانت حسيبة تحدِّث فياض الشيزري عن صياح المسدي كانت تقول: كان عليَّ أن أنتظر سنوات، وأن ألوك حديثه إليَّ مرات حتى أفهم بعضاً مما كان يقوله شارد الذهن، وأسمعه شاردة الذهن. أنا لا أفهم ما يقول تماماً، وهو لا يهتم بأن أفهمه تماماً، كان يريد أن يحدَّث فقط، عن إحساسه بضياع كل هذه السنوات من عمره دون أن يصنع شيئاً.

كان صياح المسدي قبل أن يحمله العثمانيون إلى حرب لم يطلبها، ويحارب في جبهات لم يخترها واحداً من أولئك الصانعين الطيبين الذين ربتَّهُمْ دمشق قروناً ينسجون الصايات والألاجا والديما والبروكار، يسدون بالقطن ويلحمون بالحرير، يسدون بالحرير، ويلحمون بخيوط الذهب والقصب، لم تكن مطالبه كبيرة، ولم يكن يحلم بأن يصبح ثرياً أو صاحب أملاك، وهو الذي يعرف المثل الدمشقي: **شغل الإيد ما يفيد**، هذا المثل الذي أنمته قرون من التجارة تعرف أن التجارة هي المهنة الأجدى، ولكن ليس الجميع مؤهلين، لسوء الحظ لدخول باب هذه الجنة، وكان صياح المسدي من هؤلاء غير المؤهلين.

كانت حياته تدور حول خيوط الحرير ودُسْتِ الخشب وفرش النحاس والطيار القصب، حياة بسيطة بريئة ساذجة، تشبع الطعام، وتكسو الزوجة ثوباً كل عيد، كان واحداً من أولئك الذين بنوا سمعة دمشق النسيجية عبر القرون الطويلة، واحداً من سلسلة طويلة من

الصانعين تبدأ بالكبَّابين يحلون شرانق الحرير، وتمرُّ بالفتَّالين يفتلونه خيوطاً إلى أن تصل إلى صياح المسدي، ولا تنتهي إلا بالدَّقاق يدقُّ أثواب الألاجا، فيغسله من النشاء بعد نسجه، ثم يجففه ويدقه ليظهر لمعانه وتموجه قطعة فنية لا يعرف قيمتها إلا من أنهكه إخراجها إلى الوجود.

كان صياح المسدي واحداً من سلسلة طويلة جاءت السفر برلك، فانتزعتهم من عوالمهم الهادئة لتقذف بهم في معترك الحروب الكبرى غير عارفين بأنهم سيقررون مصير البشرية للعقود القادمة، ولكن صياح المسدي حين عاد اكتشف فقط أن عالمه القديم مضى، عالم المسدي الذي انهار آخذاً معه أمه العجوز وطارداً زوجته وطفلته إلى القطيفة.

وحين لحق بهما صياح المسدي يحاول ترميم عالمه القديم فوجئ بالزوجة وقد ماتت وبالطفلة تسوق قطيعاً بائساً من الماعز في حارات وحقول قرية حكمت عليها الطبيعة والحروب بجفاف السماء وجفاف الروح، فاستعاد ابنته ورجع إلى المدينة يبحث عن عمل، ولكن الأحداث تسارعت والحلم الفيصلي انهار، ويوسف العظمة استُشهد مع الألف والمئتين والثمانية والستين مجهولاً رحمهم الله.

لم يكن صياح المسدي معهم، وكان ذلك لسوء حظه لأنه حين عاد إلى المدينة فوجئ بفيصل يستعد للسفر متخلياً عن الحلم الكبير، وفوجئ ببقايا ميسلون يتخفَّون محاذرين انتقام القادم الجديد ولم يستطع العمل مسدياً، ففابريكات فرنسة وإنكلترة كانت قد استولت على العالم الذي سُحِبَ منه صياح المسدي إلى السفر برلك.

وحين انضم صياح المسدي إلى حارس حارات الشام حسن الخراط في هوجَتِه في الغوطة كان يظن أنه سيستعيد عالمه القديم الهادئ حيث يخلو إلى عُدَّته البسيطة، ويسدي الحرير في تلك الدورة النسيجية الطويلة في صناعة الصايات والألاجا والديما. وحين نظر من حوله يبحث عمن يؤوي حسيبة لم يجد أحداً، فالمدينة قد ضاقت والأهل قد أكلتهم الحُمَّى الصفراء، ولم يجد بُدّاً من اصطحابها، وحتى لا يحرجه ولا يحرجها الزمان لبست ثياب الصبيان، وكانت طفلة فلم يشك أحد بها، وبدأت تلك الرحلة التي استمرت سنوات ثلاثاً

قبل أن يرجع إلى دمشق خائباً حزيناً شاعراً أن عالمه القديم قد ضاع إلى الأبد.

حين عبر الحارة شبه العتمة معلِّقاً بقجة ملابسه وملابس حسيبة الصغيرة إلى عصاه المتكئة إلى كتفه كان خائفاً، وكانت حسيبة تدرك أنه خائف، فخافت، وقالت: ولكن لماذا!؟ ألا نستطيع أن نجد بيتاً خاصاً بنا!؟

- ربما استطعنا ذلك، ولكن ليس الآن.

- لماذا....؟

ونظر إليها في خجل وضعف، فكيف يشرح لهذه البُنَيَّة حكاية المال الذي لايملك منه شيئاً؟ كيف يشرح لها أن استئجار بيت وفرشه بأبسط الفرش يحتاج إلى شيء آخر غير البندقية، والكامة، والرغبة في طرد الفرنسيين من البلد لبناء البلد الجديد الذي حلم، وأحلمها به طويلاً؟

قال:

- إنه ابن خالتي.

- ولكنك خائف منه.

- إنه....غني.

- ونحن ماذا. أنحن فقراء؟

ولم يعرف كيف يفسر لها، فيحطم الصورة الكبيرة التي ربيت عليها في الجبل بين المغارة والبيوت المهدمة وصرخات الله أكبر، فصمت، وهمست:

- أليس لنا من يحبوننا أو نحبهم أكثر؟

وهزَّ كتفه في استسلام: لابد أن نذهب إلى أحدٍ ما. كان ذلك حين اكتشفا أن الجميع قد تفرقوا، بعضهم إلى عمان، وبعضهم إلى العراق والحجاز، والأثرياء منهم إلى مصر، وتركوه وحيداً، وحيداً في هذه الجبال مع ابنة صغيرة وحيدة تلبس ثياب الصبيان، وإن عرف الجميع متأخرين أنها ابنته الوحيدة، تفرقوا دون أن يستشيروه إن كان

يريد أن ينضمَّ إليهم في مهاجرهم، أم يبقى في البلد؟ تسربوا بهدوء، يبحثون عن مأمن لهم حتى **ـ الخطوة التالية ـ** ؟ كان مقاتلاً، ولم يكن رجل سياسة، فـأكل السياسيون البيضة والقشرة وتركوه، ومضوا يبحثون عن سلامة رقابهم، وحين أخفق في محاولة لإبقاء الشرارة مشتعلة عاد إلى القطيفة، فأخفى في بيت زوجته القديم كل ما يشير إلى السنوات الماضية من حياته، أخفى هناك البندقية، وجنادات الرصاص، والكامة، والشنتيان، وكل ما كان يدل على أنه كان في الجبل مع سعيد العاص، ولم يحتفظ من تلك السنوات إلا بالتجاعيد القاسية على وجهه، والنظرة المُرَّة في روحه.

أمسك بذراع حسيبة وقال: هيا بنا.

وتساءلت في براءة: أهذا ضروري؟ ألا نستطيع البقاء في القطيفة. إنَّ لي فيها أصدقاء وأقرباء.

فالتفت إليها في حِدَّةٍ وقال: أنا مسدي ياحسيبة ولست فلاحاً، فماذا نصنع في القطيفة؟.

وتركا القطيفة يَخِبَّان في تلك الطرقات الترابية، كهل وصبية، خيبة وأمل، حزن جريح وخوف من المستقبل المنتظر.

بعد سنوات، وحين كانت حسيبة تمرُّ في الحارة المعتمة نفسها، فترى الأقواس الحجرية والكوى في سقف الحارة تنفذ الشمس إلى الحارة شبه المعتمة والسيباطات المتعانقة المحمولة على العمد الخشبية كانت تتساءل: لمَ لَمْ أر كل هذا الجمال حين دخلت الحارة مع صياح المسدي أول مرة؟

ولكنها كانت تعرف أن الخوف من ابن الخال المجهول حمدان الجوقدار، ومن طريقة استقباله كان قد كبَّل عينيها وأعمى قلبها.

(3)

حين فتح حمدان الجوقدار الباب، ولم تكن له بذلك عادة، ولكن سعدية الخادم العجوز التي تدير بيته منذ قَبَرَ زوجته الخامسة، كانت معلقة على الصقالة تقطف طري ورق العنب لتحشوه، فوجد أن من غير المناسب أن يتركها تنزل من الصقالة، فالمشرقة، فالدرج فالباب لتفتح الباب، وقد كانت ستفعل ذلك لو لم يمنعها، ويقوم من جلسته المعتادة كل جمعة أمام البحرة يدخن نارجيلته قبل أن يأتي الأصدقاء ليبدأوا سيرانهم الأسبوعي.

حين فتح حمدان الجوقدار الباب كان يتوقع الطارق أبو منير، فهو يعرفه الأسرع والأكثر استعداداً لهذا السيران الأسبوعي، ولمَ لايكون كذلك ولا أولاد لديه، وكل ما عليه صنعه هو أن يرسل بأم منير إلى بيت أهلها، ثم يصطحب صينية اللحم المغطىَّ بالجانرك، وكيس الموالح وعلبة العطوس؟! ويأتي ليبدأ بالمزاح والحديث عن النساء، النساء المخصبات اللاتي لم يعد لهن وجود في هذه الأيام، فإن لم يكن أبو منير فسيكون أبو سعيد غريمه في السوق وصاحب دكان السمانة الثاني، ورجل المرح الظريف الذي يفرض نفسه على الجلسات ليصبح سيدها في دقائق، ولكن، أيمكن أن يكون القادم الشيخ يوسف متقعر اللغة، وتلميذ الشيخ عبد الكريم؟ هذا الذي ينهكهم في كل جلسة في الحديث عن خطأ هذه الكلمة وصواب تلك، وما كان بحاجة إلى هذا في محله لبيع البن، ولكنها العادة تحكم.

حين فتح حمدان الجوقدار الباب فوجئ بأن أحداً منهم لم يكن الطارق، حدَّد النظر يريد أن يتعرف إلى هذا الملتحي لحية خشنة لم تعرف المقص منذ شهور، و الملتف الرأس بالكوفية والعقال، وإلى جانبه متراجعاً قليلاً شاب أمرد في شروال وميتان وشماخ ملفوف تماماً على الرأس والرقبة، حاول أن يتعرف إلى واحد منهما، ولكنه لم يستطع، فتقدم الكبير منهما، وقال متأتئاً: مرحباً أبو عمر، ورد حمدان خائفاً، وندم أنه فتح الباب، فلو كانت سعدية لصرفتهما بقرش

أو رغيف دون أن يراهما، أما الآن فلن يستطيع اختصار الأمر بهذا، فقال متحفظاً.

ـ أهلين...

أنزل الكهل العصا المتكئة إلى كتفه منزلاً معها البقجة، وقال: ألم تعرفني؟ أنا صياح المسدي، ابن عمتك.

وأشرقت الصورة فجأة في ذهن حمدان فلقد عرفه، تذكره، وكيف لا يذكره والمدينة كلها تهمس بحديث واحد منذ سنوات عن بطل الغوطة والجبل صياح المسدي؟! ووجد الصور والأشواق والأحلام الموؤدة تكر في قلبه قبل أن يندفع لمعانقته:

ـ أهلين، أهلين ابن الخال، تفضل، تفضل يا أهلاً وسهلاً.

ارتاحت حسيبة قليلاً لهذا الدفء، يندفع في ترحيب حمدان بعد أن كاد قلبها يتوقف وهو ينظر إليهما متسائلاً، ولكنه حين انفصل عن معانقته وأشار لهما بالدخول: أهلين، أهلين، أهلين يامرحبا، ثم أشار إلى حسيبة يدعوها للدخول: تفضل يا أخ، تفضل، ارتاحت حسيبة قليلاً ولكن صياح ابتسم في حياء:

ـ هذه حسيبة ابنتي.

واتسعت عينا حمدان دهشة: حسيبة ابنتك؟

ـ نعم كانت معي في الجبل.

بعد سنوات وفي جلسة صفاء، وكانا جالسين في مقصف قصر شمعايا يلعبان الطاولة قال حمدان لحسيبة:

ـ كانت مفاجأة، مفاجأة صعبة على التصديق أن أراك مكشوفة الوجه إلى جانبه في الحارات.

والتفت إليها يؤنبها في مداعبة: ألم تكوني تخجلين من المشي حاسرة الوجه، تاركة كل هذا الحسن نهباً لتلك العيون النهمة الوقحة الجائعة؟

واضطرت حسيبة التي لم تكن خجلة قبل أن تعلمَّها خالدية خانم كيفية التصرف واللباس وإرضاء الزوج و....الخجل اضطرت إلى الاعتذار لترضيه.

ـ إيه ـ كنا فلاحين على قدَّ حالنا نعيش في الجبل، ونقاتل الفرنساوي، ولم نكن نفكر في أن الوجه عورة ـ وتنهدت قليلاً ـ إه الجهل عمى.

وفي مرة أخرى حدثها عن فرحه باستقباله صياح، فقال:

ـ كانت سيرة صياح قد عطرَّت البلد، ورفعت رأس العائلة جميعاً فكيف لا أفرح لرؤيته؟!

في ذلك الحين أخذت تتشكل ما عُرف فيما بعد بأسطورة أبو نوفل، تلك الأسطورة التي صنعها أولئك الأبو سعيد، والأبو منير، والشيخ يوسف، أولئك الذين نسيتهم الأحلام القديمة، أحلام الغزاة الكبار، والمغامرين الكبار، والعاشقين الكبار، والتاجرين الكبار، أولئك الذين قذفت بهم يوماً فيافي الصحراء العربية، وغابات أوربة الإغريقية، وصحارى آسيا التترية، أولئك الذين طالت بهم الرحلة، فارتاحوا قليلاً في تلك الواحات المنسية في صحارى الشرق الأوسط، أولئك الذين حلموا يوماً بامتلاك العالم، وتغيير رائحته وطعومه، ولكنهم كَسِلُوا على الطريق، فارتاحوا في واحات صغيرة محاطة بسوار أخضر ما يلبث أن يغطي على خضرته حمرة البوادي القاسية والصحارى والجفاف والنسيان والعطش الدائم الدائب الآبد، أحفاد أولئك الذين طردهم جفاف اليمن بعد إخفاق مغامراتهم الكبرى في التغلب على حموضة الصحراء المهاجمة، فتفرقوا أيدي سبأ، واجتازوا الصحارى تحملهم جمالهم التعبة، ونياقهم العطشى، وخيولهم الغرثى حتى لقوا واحة مسكينة يلفها سوار أخضر، فرأوا فيها الجنة المنتظرة، وقالوا: سنرتاح قليلاً حتى المحطة القادمة، تلك المحطة التي لن يصلوها فيما بعد أبداً، لأن الكسل والملل والانتظار ما لبث أن سكَّن دماءهم الفائرة وتعطشهم الآبد إلى المحطة القادمة، وحاصرتهم الصحراء، فانتعش فيهم الخوف القديم، خوف ضياع الواحة السبئية، وخافوا أن يضطروا إلى الرحلة ثانية بحثاً عن المحطة القادمة، فلا يجدونها وقالوا: نوفِّر قليلاً، نوفر في الفرح،

نوفِّر في الحزن، نوفِّر في التوق، نوفِّر في المغامرة، وننتظر، وانتظروا، منضميَّن إلى المغامرين القادمين من سفوح الأولمب، وضفاف إيجه، وتلال رودس الذين كانت الرحلة قد طالت بهم، والخيول قد أنهكت مؤخراتهم بعد تلك المغامرة الخيالية التي ما صدَّق أحد أنها ستتمُّ حاملة أولئك المُمزَّقين بين روعة الحلم وسيطرة القوة حتى جاءهم ذلك الأعور المقدوني، فتسلَّط عليهم، وقتل ديمقراطيتهم الوليدة، وتعبدهم أمام القوة، وخرج بهم من الحلم الأولمبي ليبدأ ابنه مغامرته الكبرى في توحيد الشرق والغرب، ويصل بنهاية مغامرته حتى حدود الصحارى الشرقية الكبرى ويصطدم بأقوام ضيِّقي الأعين صفر البشرات، وأقوام سمر طويلي الشعر يتغذون بالأحلام، ويؤمنون بأن روح الإنسان خالدة تتنقل من قميص إلى قميص، قد يزهو، وقد يتسخ حسب ما قام به لابسه أثناء تلك الفترة القصيرة من عيشه، ثم....انتهت المغامرة، وعاد المغامر، ولكن طريق العودة طويلة والصحارى شاقَّةٌ، واختراق الجبال مُمزِّقٌ للأعقاب والآباط وملهبٌ للعجان والأفخاذ، وتعب بعضهم، فارتاح. اختار واحدة من تلك الواحات، فقال: أرتاح قليلاً فيها حتى المحطة القادمة، ولكن هدوء الواحة ودِعَةَ خضرتها، وخرير الماء الصغير في سواقيها هَدَّأَ من سورتهم، وسَكَّنَ من جنونهم، وطامَنَ من مغامراتهم، ثم رفدت الصحراء العربية تلك الواحات بحالمين جدد يدفعهم حلم قديم لتوحيد العالم وتطهيره من شروره وآثامه، ولكن الفورة ما لبثت أن سكنت والسورةَ أن هدأت، وقال بعضهم: نرتاح قليلاً قبل أن نبدأ الخطوة القادمة، ولكنهم ما إن استسلموا إلى إغراء تلك الواحات حتى تآكلت أجنحتهم العملاقة التي قطعت بهم الصحارى العربية والأفريقية والآسيوية فانضموا إلى تلك السلالة المستسلمة إلى هدوء الواحات في انتظار الخطوة القادمة.

وتتالت الأيام تحمل سُلالات إثر سُلالات، من المغامرين، من العسكريين، من الحالمين بعدل أرضيٍّ، من المتطلعين إلى سلام سماوي، إلى يأجوج ومأجوج.. مرُّوا على تلك الواحات، فأكلوا الأخضر واليابس، ولو مرَّ غريب بتلك الواحات في تلك الأيام لاعتقد أنه لن تقوم لهذه الواحات قائمة من بعد، ولكن روح الأجداد المغامرة العظيمة والتي تقلَّصت حتى حدود الرغبة في البقاء حتى ـ **المحطة القادمة** ـ انتصرت على الفناء في كل مرة، وانتعشت الواحات ثانية،

وانتعش الحلم القديم، وتزاوج أبناء هؤلاء ببنات أولئك، وأحفاد هؤلاء بحفيدات أولئك، وظلَّ الحلم القديم يتوالد في قلوبهم، يذكيه مرور الطرقات التجارية الكبرى في هذه الواحات، فتعرفوا إلى أولئك التاجرين الكبار القادمين من سهوب سلافيا يحملون الفراء و العبيد، وصحارى العربية يحملون بُنَّ اليمن وقرود الحبشة، وغابات الهند يحملون الطيوب والبخور والأفاويه، وجبال الأولمب يحملون طيب الخمور وجميل الجرار وصراع الآلهة، فقدموا لهم الخانات والنزلات والضيافات وأخذوا بعضاً من حمولاتهم وسمعوا شيئاً من مغامراتهم، وفرحوا بهم، وتمنى بعضهم لو يلحق بهم، فلحقوا، وضاعوا في شعاب الأرض، وكسل البعض من أولئك المغامرين فارتاحوا قليلاً في تلك الواحات الصغيرة يريحون أبدانهم المتعبة في انتظار ـ **المحطة القادمة** ـ التي لن يصلوها أبداً، وتتالى الوافدون، وتتالى الغازون الراحلون، القافلون، التاجرون المبشرون، يمرون بهذه الواحات الشامية، فيستريحون قليلاً، فيكسل البعض ويرتاح البعض في انتظار المحطة القادمة، يتزاوجون، وينسلون، ويحمِّلون نسلهم أشواقهم القديمة، شبقهم القديم، وتوقهم القديم إلى الرحلات والمغامرات، والفتوحات، والانتصارات، والأرباح الكبرى، ولكن الخوف من تمزيق حجب الصحراء ومعاركتها والانتصار عليها يساومهم، فيرضون بالانتظار، وينتظرون مرور القوافل الكبرى بهم، وتمر حاملة الأفراح والغنى والدهشة، فتثري هذه الواحات مغنية أبناءها المنتظرين، ولكن صراعاً سياسياً، حرباً لا يد لهم فيها تأتي، فتمزق خيام الفرح وتهدم سرادقات الربح الكبير، وتغير طريق القوافل فيلحق البعض المغامر بها، وينتظر الباقون القافلة القادمة مع الربح والخير والمغامرة، وفي فترات الانتظار الطويلة هذه، فترات تغير طريق التجارة الكبرى مابين أوربة وفارس فالهند، والصين وسلافيا نمت واحات، وماتت واحات، فكنت تسمع حينا بماري، وإيبلا، وآخر بترقا ودمشق والبتراء، وآخر بتدمر وحلب، يمر المغامرون والقافلون، والتاجرون، فتصغر الواحة، وتفتقر، وتجوع، ولكن تصميماً قديماً يلح: لا داعي للتسرع، سترجع القافلة وطرق القوافل والأرباح والغنى قريباً، إنها في المرحلة القادمة، في المحطة القادمة وربما في خلال هذا الانتظار الطويل، اخترعوا فكرة المُخلِّص المنتظر ذلك الذي سيعود إلى الأرض ليعيد إليها العدالة ـ

عودة طريق القوافل والربح والمغامرة إلى هذه الواحات المنسية ـ ويعيد إليها الفرح والبهجة المَتُوق إليهما.

وطال الانتظار، ولكنهم ينتظرون،قد تَتِمُّ الحروب، وتنفجر الثورات، ولكن لمَ العجلة والموت قبل قدوم المُخلِّص المنتظر؟ فلننتظر قليلاً، فلربما أسعدنا الحظ فعشنا حتى نصافح عودة طريق القوافل والمغامرة إلينا .

هؤلاء الأحفاد الصغار لأولئك المغامرين، والمحاربين، والحالمين والتاجرين الكبار كانوا يفاجأون، يُدهشون، فلا يصدقون حين يسمعون أن واحداً من أبناء جلدتهم، من رفاقهم، من أولئك الذين ساكنوهم، وطاعموهم، ولاعبوهم، وسامعوهم أحلامهم، قد قرر كسر قيود الواحة والخروج إلى كبد المغامرة، حين يسمعون أنَّ أحد الأحفاد قد أصغى أخيراً إلى نداء الأجداد، فيفرحون ويسعدون، ويحملونه بهجات العمر وتوقاته، وتطلعاته، لذلك حين سمع الأبو منير، والأبو سعيد والشيخ يوسف نبأ عودة صياح المسدي إليهم حمّلوه كل شوقهم القديم وتوقهم القديم، وحنينهم القديم إلى تلك المغامرات، والرحلات والأحلام التي كانت خبز أجدادهم اليومي قبل أن يرتاحوا قليلاً في تلك الواحة، فرأوا فيه تحقيق الحلم وإنجاز التوق.

قال أبو منير لحمدان غير مصدق: صياح المسدي، ابن عمتك ضيف عندك؟ وقال حمدان في وقار:

ـ تعني أبو نوفل؟

ـ أبو نوفل، من؟

وقال أبو سعيد بسرعة: ابن خالة أبو عمر.

وبسرعة وبدون اتفاق منطوق تفاهموا جميعاً أن اسم صياح المسدي لم يعد ملائماً للثائر والرجل والمغامر فأسموه أبو نوفل.

ورغم أن أحداً لم يدعُ صياح المسدي بأبي نوفل قبل ذلك اليوم، ورغم أن زوجه نفسها كانت تناديه إما بصياح ، أو بابن عمي، ورغم أن رفاقه في الثورة في كل تنقلاتهم من حمورية وحتى القريَّا

بل وحتى أكروم وحماة لم يدعه واحد منهم إلا بصياح، ليس عن ازدراء أو نقص احترام، بل لاعتيادهم واعتياده هذا الأمر.

ولكنه ما إن نزل الشام، وطرق باب ابن خاله، وجاء يطلب ضيافته بضعة أيام إلى أن تنجلي الأمور حتى تغيَّر اسمه وصار أبو نوفل.

في تلك الأيام التي تلت قدوم صياح المسدي إلى بيت حمدان، في تلك الأيام التي ارتاحت فيها حسيبة إلى الفرنكة العلوية المعزولة عن البيت بمشرقتها الواسعة المسورَّة بالدرابزين الخشبي والمسقوفة السماء بصقالة مغطاَّة بالدالية الحلوانية، في تلك الأيام... انفصلت حسيبة عن صياح المسدي، فلم تعد تستطيع رؤيته إلا أواخر السهرة، فقد تحولت حياته إلى إجابة دائمة للدعوات والسهرات، فقد صار نجم القنوات، وباب سريجة، وباب الجابية، والدرويشية، وكان لا يستطيع رفض دعوة إلى عشاء أو مولد، أو حتى صلاة على النبي، فقد تغضب حارة الداعي ويصبح خصماً، وامتدت الدعوات حتى وصلت إلى حي قبر عاتكة والشويكة، وكان نجم الدعوات الدائم حمدان الجوقدار، فما إن يستتب بهم المجلس وتهدأ السلامات والتحيات، وتنتهي التعارفات، وينظر الجميع إلى صياح يتوقعون أن يحدثهم عن تلك الثورة، عن الهجمات، عن الكرَّات والفرَّات، عن ذبح الفرنسيين وشيِّ السنغال، عن، وعن، وعن....، ولكن شيئاً عجيباً أصاب صياح المسدي في تلك الأيام، كان ما أصابه ـ البُكْم ـ فبعد صياح المسدي الثرثار الذي أنهك الجميع بمواويله وعتاباه، وأنهك رفاقه بالحديث عن الترعة والصحراء والأمير فيصل، وتدمير قطار الحجاز، وعن دخول الشام، تلك الأحاديث التي حفظوها تفصيلة تفصيلة لكثرة ما رددها، صياح المسدي هذا حين أصبح أبو نوفل، وصار نجم الدعوات أُصيب بالبكم، فما يزيد جوابه عن: الحمد لله، و.... بيفرجها الله.. وتراجعت صحته، فهو لا يذوق الطعام، ولا يلتذُّ بالشراب، ولم يبق له من متع الدنيا كما يبدو إلا سيكارته يلُّفها، ويدخِّنُها، ثم يلفها ويدخنها حتى كأن المهمة الوحيدة المتبقية له في هذه الحياة هي أن يحرق شيئاً يتأكله هناك في عمق الصدر، ولكن حمدان لم يدع الأمور تنهار، فقد انتظر طويلاً هو، والأبو منير، والأبو سعيد، والشيخ يوسف. انتظروا حدثاً مُهمَّاً مثل قدوم صياح

المسدي إلى حارتهم، ولن يفقدوه بسهولة، وسرعان ما تنطَّح حمدان للأمر، فقد كان في تلك الأيام لكل حارة أبو نوفلها، وأبو صياحها، وأبو رياحها العائد من الثورة في انتظار الخطوة القادمة، كان لكل حارة حلمها القديم المتحقق في هذا العائد، يحدثها عن القيود التي حطمَّها،عن الأوهام التي تساقطت منذ غادر الواحة مستغنياً عن هدوء البال، وقرر السفر بنفسه إلى المحطة القادمة، ولكن حين بدا لحمدان أن أبو نوفلهم سيخذلهم بإصراره على الصمت تنَّطح بنفسه للأمر، وصار ما إن يستتب المجلس وتهدأ السلامات والتعريفات وشرب القهوة حتى يبدأ بالحديث عن ابن عمته ـ: بعد استئذانه طبعاً ـ أبو نوفل حين كان في الزور وكيف كمنوا للفرنسيين حتى أفنوهم، وكيف خرقوا حصار الفرنسيين في سقبا، وكيف اشتبكوا مع الفرنسيين في الشفونية، وكيف حاصروا السنغال في زريبة البقر في كفر بطنا، ثم أحرقوها عليهم، وكيف، وكيف، وكيف انسحبوا إلى البقاع، وعاقبوا المترددين في أكروم، وكيف وصلوا إلى حماة، ويأخذ في التفسير والتحليل، وصياح يلّف سيكارته ويدخنها وشيء مالا يعجب الموجودين فيه، شيء أخذ ينمو يوماً بعد يوم، فهذا الصمت لا بد أنه يخفي ذنباً، بل ذنباً كبيراً، بل ربما كذبة كبيرة، بل ربما فضيحة...وأخيراً قال أبو منير بعد تردد وتأتأة:

ـ أتعرف ياأبو عمر؟

ـ هه...

ـ لا أعتقده ثائراً أصلياً.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني، الثائر يفخر، يعرف، يحدث، يصف، ينقل الفرح، ولكن ابن عمتك أبو نوفل أخرس، أُف! لا يفتح فمه. اشتهيت أن أسمع منه غير الحمد لله ـ ويفرجها الله!

واضطر حمدان إلى الإغضاء عن تهجم أبو منير، ولكن أبا سعيد قالها فيما بعد، ثم تجرأ الشيخ يوسف فقال بلهجته المقعقعة:

ـ أقسم برب العباد، وفالق الصخر في الواد، إن هذا الرجل لم يعرف الثورة، و لم تعرفه. حسن أين بندقيته؟ ـ وأصر على قلقلة

القاف في بندقيته ـ أين رصاصه، أين خنجره؟ أين سيفه؟ أين رمحه؟ لا. لا. لا. على المرء أن يكون أكثر حرصاً قبل أن يمعن في تصديق كل من هبَّ ودب.

وأخذ حمدان يحسُّ بالخذلان، ولولا أنه رأى حسيبة في الليلة الثالثة لإقامتها في الفرنكة وهي تقطف العنب من الدالية الحلوانية، فلربما زحلق صياح، وتخلص منه، فهو ليس بحاجة إلى خُرس مثقلي الضمير، لا يعرفون كيف يبهجون مساهريهم، لكن حسن حظ صياح وحسيبة أن حمدان قد أصيب بالأرق في تلك الليلة، فخرج إلى باحة الديار ليرى حسيبة على الصقالة.

بعد سنوات وبعد إنجاب عمر وزينب وياسين، وكانوا في سيرانهم الأسبوعي إلى بستانهم في كفرسوسة، وكانت سعدية تُجهز المعاليق وكانت حسيبة تقشِّر الباذنجان إلى جانب الساقية، وكانت زينب تتسلق ظهر حمدان، فينحني قليلاً حتى يقلبها إلى الأمام، فتكركر ضاحكة، ثم تسارع إلى تسلق ظهره ثانية فيقلبها، فتكركر، وأخيراً سئمت اللعبة حين رأت الخروف الأبيض المعلوف قريباً فتركتهم ومضت تلعب معه. تنهد حمدان في ارتياح، وقال: هيه، صحيح الحياة حلوة، وقالت حسيبة في تلطف: حلوة بحضورك.

ـ لا أبداً. أتعرفين قبل أن أراك، كانت الحياة مملَّة.

وتذكرت حسيبة خالدية خانم وهي تحدثها عن زوجاته الخمس اللواتي مررن في فلك حياته، وانتهين شهباً تالفة، ولكنها تابعت في أدب حسب تعليمات خالدية خانم:

ـ هذا من لطفك.

ولم ينتبه إلى ما قالته، فاستند إلى جذع الجوزة الغليظ، وتابع بلهجة حالمة، وكانت تلك من المرات القليلة التي ذاب فيها شحم الحرص القديم عن قلبه،، فتألق للحظات: أتساءل أحياناً كيف يمكن للحياة أن تكون لو لم يكن فيها حكواتية يقصُون علينا قصص من سبقونا بآلامهم وأفراحهم وعشقهم، وأشعارهم؟!

وتوفزَّت حسيبة أمام لهجته التي لم تعهدها فيه من قبل، فالتفتت إليه، ولكنه لم يكن ينظر إليها، بل كان ينظر إلى ورق الجوز الداكن وإن لم يكن يره، قال:

ـ أحياناً يُخيَّل للواحد أنه أول من رأى امرأة، أول من عشق امرأة، وأول من فتنته لفتة جِيْدٍ، ولكنه حين يستعرض ما سمع، ويستذكر ما حدثوه عنه يعرف أن قلب الإنسان ما خلق إلا....

وضحك في خجل، وكأنما أحسَّ أنه تورَّط في القول أكثر مما يجب، ولكنه في مرة تالية، وبعد وفاة ابنه الرابع، وبعد بكاء طويل، وحزن مرير قال: الحزن جزء من الحياة جزء مرير في عمق القلب. ألم يقل سيدنا محمد حين مات ابنه إبراهيم ـ إنَّ العين لتدمع وإن القلب ليحزن وإنا لفراقك لمحزونون يا إبراهيم؟!

وفي مرة أخرى قال بعد أن فقد ابنه الخامس، فبكى قليلاً، ودمي قلبه كثيراً، فمضى إلى جامع السباهية، وسمع حديث الشيخ، فارتاح قليلاً، ثم أدمن راحة المسجد، فعاد إليها بعد أن انقطع عنها منذ أن تزوج حسيبة ثم صارت جزءاً من حياته: حين يَزنُ الإنسان الحزن والفرح الذي ينتابه لا يستطيع إلا أن يقول: هذه هي الحياة كثير من دقيق، وقليل من خميرة تصنع الخبز!

ولكنه قبل أن يموت بيومين، وكانا يجلسان في باحة الدار، هناك إلى جانب البحرة يشربان القهوة، استند بكرسيه إلى الوراء قليلاً، فرأى الصقالة تحمل العناقيد الحمر الموشَّاة بالأخضر، توقف الفنجان أمام شفته قليلاً وكأن فكرة قاسية صدمته، فوضع الفنجان ثانية على الصينية الموضوعة على جدار البحرة، وقال:

ـ أتساءل أحياناً ماالقدر؟ أهو مجموعة من صدف تنتظم حياة الإنسان، أم أنه قدر مرتب ليبدو مصادفات؟ فسألته، وقد راعها وضعه الفنجان على جانب البحرة: ماذا تعني.؟

فقال: لو لم يأت صياح المسدي في ذلك اليوم، ولو لم تكوني في صحبته، ولو لم أبتهج لمعرفة أنه ابن عمتي الذي جاب الجبال وشق البساتين والحقول في رحلته الطويلة تلك ليطرد الفرنساوي من بلدنا، ولو لم أشعر بأن حياتي كلها ستصبح بلا معنى إذا لم أستضفه وأضعه على رأسي، فهل كنت سأراك في تلك الليلة على الصقالة؟!

ورغم أنه حدثها عن قصة الصقالة ورؤيته لها تقطف العنب عن الدالية مرات كثيرة، فإنها سألته: أية ليلة، وأية صقالة؟!

فقال، وكأنه لايذكر أنه قصَّها عليها مرات كثيرة: ليلة الصقالة، ليلة سرقة العنب!

وتجاهلت ثانية فسألته تحرضه على الكلام، وقد أدركت منذ أمد أن لكل منا في حياته حكاية يعتبرها محور حياته، فهو يحب دائماً أن يجترها ويستحلب لذيذ طعمها: أية سرقة عنب؟!

فقال دون أن يهتم بالتوضيح وكأنه كان يعرف أنها تعرف مايعني، فهو لا يحتاج إلى توضيح. قال بلهجته الحالمة: تلك الليلة التي سمعتُ فيها خشخشة أوراق العنب، فرفعت رأسي أتوقع القطة أو السنجاب، وربما حية، ولكني رأيتك. كنت أنتِ المتسللة بشلحتك البيضاء القصيرة وشعرك الوحف الأسود المتدلي من ورائك، موزعة بين نور القمر من خلفك ، وأوراق العنب من أمامك بذراعيك العاريتين الطويلتين تقتنصين حبات العنب.

ويصمت قليلاً كمن أرهقه الكلام، ولكن الذكرى تضغظ فيكمل:

ـ أحسست لحظتئذ، أن العالم قد توقف، توقف تماماً وإلى الأبد، وأن السعادة الهناءة، والجنة التي وعد بها المتقون واقفة هناك على الكرسي الخيزران تتطاول بذراعيها العاريتين البيضاوين تقتنصان العنب الحلواني....

ويصمت قليلاً، فتقول: أكمل شرب قهوتك.

فيرشف رشفة، ولكن الأخيلة التي هيجتها ذكرى اللحظة ما تلبث أن تضغط عليه، فيقول:

أتساءل أحياناً: لو لم يأت صياح، ولو لم يُجَنَّ الأصحاب به، فقد رفع رأس حارة القنوات عالياً، ولو لم أكن متهيج العاطفة بعد حرمان سنتين منذ وفاة نفيسة خانم، ولو لم تخرجي في تلك الليلة لاقتطاف تلك العنبات، ولو لم أتزوجك، أفكنت سأرزق بعمر وياسين وأحمد ومحمد علي، ثم لا يقيمون لدي إلا شهراً أو بعض شهر، ثم يمضون تاركيني للوحدة والحزن وفقد الأشياء طعمها؟!

وقبل أن يموت بيوم واحد قال: أتساءل أحياناً إن كنت لا تعرفين فعلاً حين مضى صياح المسدي وتركنا، ترك الدكان، وتركك، وترك راحة البيت ليمضي إلى فلسطين، أتساءل: ألم تكوني تعرفين فعلاً أنه سيفعلها؟!

وأغضت حسيبة في حزن، حزن مرير، فمُضي صياح المسدي وتركه لها كان الهزيمة الأولى، كان خيانة الذكر الأولى لها حين أصرَّ على اتخاذ قراره الخاص بإكمال رحلته الخاصة دون نظر إلى ما ترى وما تريد وما تعد، وما تبني للمستقبل.

(4)

حين يئس حمدان الجوقدار وأبو سعيد وأبو منير والشيخ يوسف من تعاون صياح المسدي معهم في صنع أسطورة أبو نوفلهم أخذوا يسأمون ذلك الأخرس الكئيب المدخن لا يريد من الحياة إلا أن يشعل سيكارة قبل أن تنطفئ الأولى ولا يعرف جواباً لأسئلتهم إلا ـ الحمد لله ـ و ـ يفرجها الله ـ فأخذت الدعوات تتباعد، وأخذ الملل يتسرَّب إلى صياح في معقله في الفرنكة مع حسيبة. هي تحاول مساعدة سعدية في أعمال البيت، فهي تريد أن تصنع شيئاً وسعدية ترفض، فهذا البيت مملكتها التي عاشت فيه بشروطها الخاصة منذ عشرين سنة، ومنذ جاءت بها شكرية خانم الزوجة الأولى، ثم عادت إلى أهلها وحيدة ليحتفظ بها حمدان تعاون في إدارة شؤون البيت حين يكون هناك زوجة، وتنفرد بالتصرف فيه حين يخلو، فكيف تسمح لهذه الوافدة البرية الطفلة بالتدخل في أموره؟!

أما صياح فقد استلقى في معقله في الفرنكة يراقب جذوع الحور الخام في السقف يدخن ويدخن محاولاً استجماع شتات نفسه لبدء الخطوة القادمة، ولو لم يأرقْ حمدان في تلك الليلة، ولو لم يرها فيما أصبح بعد رؤياه التي صارت مصَّاصة الحياة الوحيدة في حياته لكان تصرف كما يمكن له ولأبو سعيد ولأبو منير والشيخ يوسف أن يتصرَّف في أي ظرف مشابه، ولكنه وبعد أن لاكَ الأمر طويلاً لم يجد من المناسب زحلقته فهو في هذه الحالة سيخسر حسيبة التي جسدت له كل مالم يستطع صياح أن يجسده حديثاً ورواية، أليست هي حسيبة شريكة صياح في مغامراته في كسر طوق الخوف من الخروج من الواحة الهادئة إلى قسوة البراري، وتحوَّلت حسيبة في ليالي الأرق شيئاً فشيئاً إلى كل تلك الأحلام والمُنَى والشهوات السرَّيَّة المكبوتة في قلب الدكنجي المحبوس ضمن ثلاثة جدران، حلمهم صفقة رابحة، وسعادته ثلاثة زبائن مجتمعين، تلك الأحلام التي أنماها الشيخ عبد الكريم في حديثه عن أبطال المسلمين وفتوحهم العظيمة، وأذكاها أبو مسلم الحكواتي في قهوة باب الجابية حين كان يقصُّ عليهم سيرة عنترة والملك سيف، فيتخيل نفسه أحد أولئك الأبطال الذين غيَّروا مسيرة الزمن بسيوفهم وإرادتهم، ولكن الليل ينقضي، وعليه أن يعود منذ صباحه التالي إلى سجنه ذي الجدران

الثلاثة، وليستيقظ فيه الدكنجي ابن الواحة المُقَتِّر في كل شيء، في المال، والحياة، والفرح، والحزن منتظراً ذلك اليوم الذي تعود فيه الفرحة إلى الأسواق، والقوافل إلى الواحات فتخضرُّ الأعشاب، وتزهر الأغصان وتثمر الأشجار، وجاءت حسيبة، فاختلطت بأحلامه، اختلط الصِّبا بالحلم، والمرأة بالمغامرة، والشهوة بالمثال... أخيراً قرر أن يزاوج بين الاثنين، بين الصبا ـ المرأة ـ الشهوة، والحلم ـ المغامرة ـ المثال، فقرر الزواج منها، وحين قرَّر الزواج منها عرف أنه لن يتزوج منها فقط بل سيتزوج منها ومن صياح في آنٍ واحد.

وحين فكر طويلاً فيما سيصنع بصياح لم يجد له إلا أن يعاونه في الدكان يسبقه إليها، فيُعدُّها لاستقبال الزبائن، ويستقبل من يبكر منهم، ويحضر للدكان ما يحتاجه من مواد، وله الفرنكة يقيم فيها إلى أن تحين الخطوة... القادمة.

وحين فاتح حمدان صياح بخططه وجده يستقبلها ببساطة، وكأنه كان يفكر في الأمر نفسه، ولا ينتظر إلا من يدله على الطريق، ولم يتغير في البيت الكثير إلا أنَّ حسيبة نزلت من الفرنكة إلى المربع الكبير لتصبح سيدة البيت، وصار على صياح أن يغادر معقله صباحاً بعد أذان الفجر، وربما ما كان ينتظر للمُضيِّ إلا أن يسمعه، متجها إلى الدكان ليبدأ برنامجه اليومي الذي لم يكن يحتاج إلى مهارة كبيرة، وحتى جيران حمدان في السوق لم يجدوا الأمر غريباً، بل استقبلوه وكأنه الشيء الطبيعي الذي كانوا ينتظرون أن يتم، وعاد صياح المسدي، واختفى أبو نوفل في حديثهم عنه، ولكنهم كياسة، ما جرؤوا على مناداته إلا بأبو نوفل، وكان عليهم أن ينتظروا سنوات ثلاث يراقبونه فيها في رواحه وغُدُوه اليومي بين الدكان وبستان حمدان في كفرسوسة يأتي بالحليب والجبن مما يجمعه أبو محيي الدين المرابع في المزرعة ومن جيرانه، وبين الدكان والبذورية، يوصي على ما يحتاج إليه الدكان من سُكَّر ورزٍّ وسمن وزيت وبهارات وسكاكر ليوقنوا بصدق حدسهم عن أصالته الثورية.

ويوماً إثر يوم أخذ صياح يختفي من حياة حسيبة، فلا تراه إلا بعد صلاة الجمعة حين يتغدُّون جميعاً في البيت، أو في بستان كفرسوسة إن كان الطقس مناسباً، أما ماعدا ذلك اليوم، فهو يفطر ويتعشى في

الدكان، ويُحْمَل إليه غداؤه من البيت في سفرطاس، يأكله على طاولة الميزان حين تخلو الدكان من الزبائن.

يوماً إثر يوم أخذ صياح يتسرب من حياة حسيبة، فلا تعرف بوجوده إلا من نحنحته الخشنة وهو ينزل الدرج مع أذان الفجر، ثم وهو يغلق الباب الكبير من خلفه، فإذا ماأنصتت قليلاً سمعت صوته الخشن وهو يصرخ مادّاً صوته يُنَبِّه النائمين: أفلح من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، لا إله إلا الله، ثم ينتظر قليلاً قبل أن يكمل: الصلاة خير من النوم، الصلاة خير من النوم، وتتابع حسيبة ابتعاد صوته حتى إذا ما كرر ـ أفلح من قال لا إله إلا الله ـ عرفت أنه وصل نهاية إلى الحارة وهاهو قد صار في التعديل في طريقه إلى جامع التعديل حيث سيتوضأ ويصلي الفجر مع الإمام، ثم سيمشي بضع الخطوات القادمة ليفتح الدكان، تلك الدكان التي ستكون محور حياة حسيبة للأعوام التالية كلها.

كان يمكن للحياة أن تستمر على هذه الوتيرة إلى الأبد فالكلُّ يبدو أنه يأخذ حصته من صحن السعادة البارد لو لم تُمَزِّق حُجُبُ السكون البليدة حول صيَّاح في ذلك الصباح الخريفي.

كان قد أنهى دورة طاحونته اليومية، فجاء بالحليب واللبن والجبن من كفرسوسة، ورشَّ الماء بعد أن كَنَّسَ الساحة أمام الدكان، وراقب نصف شارد وهو يكنس أمام الدكان الدكاكين الأخرى تفتح وردَّ بـ: يسعد صباحك، على أبو سعيد، والله يجعل صباحك خير وبركة، على أبو منير، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته على الشيخ يوسف، وعدداً من صباح الخيرات والليرات، وصباح النور على الدكنجية المستعجلين لفتح دكاكينهم، والعمال المسرعين إلى مشاغلهم، والمصلين العائدين من جامع السباهية بعد سماعهم درس الشيخ عبد الكريم الصباحي ـ رشَّ قليلاً من الماء على الجام الرئيسي للدكان قبل أن يمسحه، كَنَّسَ أمام الدكان، وباع ثلاثة أنصاف الوقية من الجبن، وتسع بيضات وأوقيتي سكر، وبنصفي فرنك شاي، وراقب الزحام الخفيف أمام عبد الله الفوَّال، والأولاد يهرولون عائدين إلى البيوت يحملون صحون الفول والحمص والمسبحة والتسقية، كان يشعر بغيرة خفيفة من عبد الله الفوَّال، فهو محظوظ يعمل من ساعتين إلى ثلاث ساعات صباحاً ثم يرتاح بقية النهار

يدخن النارجيلة ويراقب المارَّة منتظراً الزبائن المتأخرين ليبيعهم ما تبقى لديه من حُمُّصٍ وفول قبل أن يغلق الدكان ويتفرَّغ لمتعه الخاصة.

جاء بصفيحة الكاز القديمة، والتي فتح فيها بضع ثغرات للتهوية، فكوَّم فيها بعض الحطب، وانتظر اشتعاله، ثم تحوَّله إلى جمر، ليُعلّق عليها إبريق الشاي الكبير المسوَّد من الهباب، ثم سحب الكرسي القشي الصغير، فجلس عليه جلسة أقرب إلى القرفصاء، فالكرسي أوطأ من ساقيه الطويلتين، واستند إلى جدار الدكان ينتظر.

من بعيد راقب أبو ياسين اللحام وقد فتح الدكان، وأخذ يُنَّظف دفَّ الفرم الكبير، يَكْشطُ ما عليه من بقايا اللحم المتداخل بالخشب، ثم يغسله بالماء والصابون بينما كان صانعه توفيق يقوم بشَحْذِ السكاكين وتجهيزها للعمل، وتمتم لنفسه: دقائق ويصل أبو عبده الطنبرجي يحمل له الخروف الذي اشتراه صباحاً في المسلخ ويبدأ نهاره الطويل، النهار الذي يوزعه بين البيع والتثاؤب والمزاح مع الجيران في انتظار الزبون التالي.

سمع الماء يغلي في الإبريق، فأضاف إليه السُّكَّر والشاي، وتركه يفور قليلاً قبل أن يرفعه بالملقط الطويل، ويضعه على الدَّف الخشبي، ثم يطمره بالبشكير القديم ليختمر.. حين رآه لم يُميِّزه في البدء، فقد كان منشغلاً بالإبريق، وإن لاحظه من بعيد يسأل الشيخ يوسف شيئاً فيشير إليه، ولم يهتم للأمر، فما هو إلا زبون غريب يبحث عن سمَّان الحارة ليشتري شيئاً ما، فأكمل لفَّ إبريق الشاي جيداً حين رآه أمامه، رفع رأسه حين سمعه يقول: السلام عليكم.

ورد بآلية: وعليكم السلام.

نظر إليه. في الوجه شيء غريب، في العينين ذكرى تريد أن تستيقظ، قال: أما عرفتني يا صياح؟.

صياح، صياح، إنه يدعوه باسمه دون (عم)، ودون أبو نوفل. ترى من يكون؟ وبهدوء كرفيف دخان بعيد يتسرب من تخمر كوم من التبن، كرائحة ضعيفة لامرأة مرَّتْ يوماً من حارة، فكشفت وجهها، وتركت عطرها، كدفء نجم بعيد يقع على جسد مقرور، أخذت الذكرى تقترب.

نظر إليه ثانية، أحدَّ النظر: أما عرفتني صياح؟ أما عرفتني صياح؟! وتسلل إلى أذنيه عواء بنت آوى بعيد، فحيحُ ريح مرتاحة في قمة جبل، روائح أعواد الشيح تشتعل على مقربة، يا محمد!!... أما عرفتني صياح؟!! وفجأة انكسر جليد العزلة، تحطم حاجز النسيان، وذاب شحم الدكنجي.

ـ مصطفى، مصطفى العربيني.

وارتمى مصطفى في أحضان صياح.

ـ هيه، لم تَشِخْ بعد يا صياح، لم تشخ بعد، مازالت فيك بقية للذكرى.

ـ مصطفى أين كنت، أين اختفيت كل هذه الأيام؟.

ـ بل أنت أين اختفيت؟ قلبتُ القلمون بحثاً عنك، القطيفة، الرحيبة، الضمير، يا رجل أين اختفيت، قالوا: أخذ حسيبة ومضى إلى الشام، و الشام كما تعرف كبيرة، سألت عنك الأصدقاء، المعارف، الزملاء ولكنهم لم يروك أبداً في الشام، ألم تلتق بهم؟.

ـ تعال الآن، تعال ـ يا محمد ـ وكانت هذه صرخة الدهشة لديه دائماً ـ مازلت ذلك الذي كلماته أسرع من المتراليوز، تعال.

وساقه إلى عمق الدكان حيث كانت هناك دّكّة عالية مفروشة بطُرّاحة فوقها بساط حلبي.

ـ اجلس اجلس، أرحْ بدنك.

ـ أريد أن أسمع عنك أولاً.

ـ ستسمع، ستسمع الكثير، اجلس.

وجلس، بينما جَرَّ صياح الكرسي القشي الكبير ذا الذراعين، المبُطَّن بطُرَّاحة كرسي حمدان، فجلس عليه.

ـ أتشرب الشاي؟

ـ أشربْ، ولمَ لا؟! الصباح باكر والشاي لذيذ، وأنت كريم ونحن المستحقون.

ـ طيب يا سيدي.

جاء بالإبريق، بالكؤوس النظيفة، قرَّب صفيحة كاز نظيفة فارغة، وضع الكؤوس عليها، وأخذ يراقب بانتباه الشاي ينزل من زنبوعة الإبريق والزبد الأصفر الكهرماني يتشكَّل على سطح الشاي. رفع الإبريق قليلاً تاركاً القطرات الأخيرة تملأ الكأس، كان يصبُّ الشاي باحتراف مستمتع: تفضل. تفضل يا مئة مرحبا، زمان زمان يا مصطفى، ما أخباركم؟ ما أخبار سعيد بك؟

ـ طيب طيب كنت تعايرني منذ قليل بمترليوز الكلام، وها أنت تسبقني!

ـ يعلم الله أني مشتاقٌ إليكم.

ـ ونحن مشتاقون أكثر ـ ورشف رشفة طويلة ـ ولكن....

ـ ماذا؟ سأل صياح بقلق خفيف.

لا أعرف يا صياح، ولكن ما نوع هذا الاشتياق؟ أراك مرتاحاً هنا والحمد لله، دكان وتجارة وهدوء بال، ما أخبار حسيبة؟

ـ حسيبة هه تزوجت.

ـ الحمد لله. اطمأننت عليها الآن.

رشف صياح من كأسه يحاول فهم سرَّ هذه الأسئلة، سرَّ هذه الزيارة، وراقب مصطفى وهو يجول بعينيه في الدكان.

ـ دكان جيد، دبرت أمورك جيداً يا صياح.

ولاحظ صياح لمسة من لوم، فقال ببرود:

ـ الدكان ليس لي.

ـ كيف. ليس لك؟ أتعني أنك صانع هنا؟

وضع صياح الكأس من يده، فقد رشف آخر ما فيها.

ـ نعم.

ـ ولماذا؟ ما الذي يجعل صياح المسدي يقبل بهذا؟

ونظر إليه طويلاً، أنت تقول هذا؟ أنت؟ أنت الذي اختفى أول الليل ومضى في انتظار... الخطوة القادمة.

وكرّر مصطفى: ماالذي يجبرك؟

ولم يشأ صياح الدخول معه في جدال استغنى عنه منذ زمن طويل، منذ اتخذ الفرنكة بيتاً و... أفلح من قال لا إله إلا الله...شعاراً.

ـ هه. إنها الحياة.

ـ ولكنهم في حاجة إليك، سعيد بك يسأل عنك ، سعيد بك كلما دق الكوز بالجرة قال: لو كان معنا صياح المسدي، آه، لو كان معنا صياح المسدي!

ـ سعيد العاص يقول هذا؟

وللحظة أراد أن يفتح قلبه، أراد أن يبكي، أراد أن يصف ليالي الأرق يحدِّقُ في عمد الحور غير المدهون يسائل نفسه: ماذا صنع؟ ولماذا، وأية مكافأة جنى؟ و...و

ـ ...نعم، سعيد بك قال: الحرب طويلة بيننا وبين الإفرنج، يغلبوننا هنا، فنضربهم من هناك؛ يحاصروننا من هنا، فنختفي لنطعنهم من هناك، هل نسيت؟

ـ لا... أعرف أنه قالها ـ ولم يّعُدْ يحتمل كَظْمَ ما في قلبه ـ ولكنه تركني ومضى، كلكم تركتموني ومضيتم تبحثون عن ملاجئ ومخابئ ومُستقرّات، لماذا تفتح هذه الجراح الآن.؟

وتردد مصطفى قليلاً أمام ثورة صياح، ثم وضع كأسه على الصفيحة وحَدَّقَ فيه مباشرة: صياح، نحن لم نتركك، أنت لم تفهم الأمر جيداً، كان ذلك انسحاباً تكــ.تكتي تكتيكياً.

كان يلاقي صعوبة في نطقها، وسارع صياح إلى السخرية:

ـ تك ماذا. من أين تعلمت هذه الكلمة؟

ـ هذا ما يحدثني عنه الأصدقاء هناك، اسمع صياح، أنت تعرف أنا لا أحسن الكلام الكثير، ولكن سعيد بك قال لي: نحن في حاجة إلى صياح المسدي. اذهب وابحث عنه، أحضره بأية طريقة.

ـ ولكن لماذا؟ ألديكم نقص في الرجال؟

ـ لا. ليس النقص في الرجال، ولكنه يقول: إن لك طريقة في الهجوم على العدو تجعل الجبان يتشجَّع.

أحسَّ صياح غبطة صغيرة، فهاهم مايزالون يذكرونه، وهاهم يحسُّون بالحاجة إليه.

ـ اسمع، صياح. سعيد بك يقول: الحرب بيننا وبينهم لن تنتهي وعلينا أن نضربهم في أية نقطة ضعف تبدو لنا منهم.

ـ ولكن لم لا نضربهم هنا في الشام، في القلمون في الساحل؟

ـ هو يقول: إن الأوضاع غير مهيأة الآن في سورية، أما هناك في فلسطين فكما تعرف.

رفع الإبريق يَصُبُّ كأسين جديدين ويفكر، اندلق الشاي الكهرماني من الزنبوعة وهو يفكر، رشف الرشفة الأولى وهو يفكر، ولكنه حين كان يفكر كانت عواءات بنات آوى تهاجمه، وصرير جنادب الحقل وعزيف الرياح السكَّرى في الجبال، ما كان يحسُّ تماماً بأسيجة الجبن والسمن واللبن والزيتون وهي تذوب عن قلبه شيئاً فشيئاً، ما كان يحس بربطات الواحة الهادئة الشادَّة إلى الاستسلام والانتظار وهي تتآكل، ولكنها كانت... وكان يفكر.

ـ دعني أفكر.

ـ سأسافر بعد أربعة أيام... الجمعة صباحاً. سأتحرك إلى شرقي الأردن، ثم إلى فلسطين، سعيد بك والجماعة كلهم يُعدُّون لعمل كبير في فلسطين. هه. صياح، خبرِّني ماذا قررت؟

ولسبب ما أحسَّ أنه يجب أن لا يبدو متعجلاً، للوم عميق في القلب أحسَّ أنه يجب أن يبدو متردداً رغم أنه منذ أن أنهى شرب كأس الشاي الثاني كان قد أذاب أسيجة السمن والجبن والزيتون، ومنذ أن وضع الكأس الفارغ على الصفيحة كان قد قطع آخر حبال الواحة المستسلمة ـ قال: دعني أفكر.

ـ متى يجب أن أمرَّ لأسمع منك؟

ـ قبل أن تسافر.

ـ الجمعة؟

ـ الجمعة!

ومضى، مضى مصطفى العربيني تاركاً الزوبعة تـأخذ مجراها الخاص في حياة صياح المسدي، تلك الزوبعة التي لن تتوقف حتى إصابته بتلك الرصاصة وهو يتسلل إلى كيبوتز عين هاشوفيت الذي كان اليهود يستخدمونه مركزاً للتدريب والإغارة على القرى العربية ليضع فيه القنبلة التي ستبدأ اشتباكات طويلة بين العرب واليهود تؤدي إلى الثورة الكبرى عام 1936.

حين جاء حمدان إلى الدكان بعد صلاة الضحى وجده وقد لبس فوق قمبازه معطفه المحكمجي العتيق.

ـ خيراً. أتريد الذهاب إلى مكان ما؟

ـ نعم سأغيب اليوم.

وغمغم شيئاً فهم منه حمدان أنه لا يحبُّ الخوض في هذا الأمر، وكان بُكْمُ صياح قد وضع حاجزاً بينه وبين حمدان وبين الجيران، حاجزاً يجتازه هو حين يشاء، ولا يسمح لهم باجتيازه إلا حين يشاء، ويبدو أن صياح قد قرر ألا يخرق جدار البكم اليوم، فلقد أضاع من عمره ثلاث سنوات، ثلاث سنوات طويلة لم يسمع فيها غناء الريح، ولم ترتجف خصيتاه في انتظار الرصاصة القادمة. ثلاث سنوات من اللاجدوى، ومن بفرنكين حلاوة وثلاث بيضات نقَّهِمْ كباراً.

قال: سأغيب اليوم.

كانت لهجته باترة جعلت حمدان يشعر بأن صياح قد دخل واحدة من تلك الحالات التي خبرها والتي لا يجدي فيها النقاش لم يكن صياح يكبر حمدان بأكثر من سنتين ولكنهما لم تكونا سنتين عاديتين، لم تكونا سنتين من اثني عشر شهراً، وكذا يوماً، وكذا ساعة، بل كانتا سنتين كثيفتين امتلأتا تجارب ومرارة وتحديات ومصافحة للموت وخيبات وانتصارات كانت تجعل حمدان حين يراه وقد لبس ثوب البكم يفهم أن عالمه القديم المجروح قد استيقظ، هذا الاستيقاظ الذي كان حمدان فقط من يحسُّه وكان يرهبه، فيتركه حتى تنجلي الحالة.

ـ أستودع حسيبة؟

وعندئذ ضحك صياح متخلياً عن ثوب البكم:

ـ أودعها؟ لماذا؟ لن أغيب. سأكون هنا الليلة، أو صباح الغد.

ومضى، راقبه حمدان بقامته الطويلة وعمامته الأغبانية، ومعطفه المحكمجي العتيق، راقبه يبتعد حتى مال إلى الشابكلية حيث اختفى.

وحين لم يعد إلى البيت عند الغداء جاءته سعدية تحمل السفرطاس:

ـ ستي تسأل لم تأخرت عن الغداء؟

ـ لا أستطيع ترك الدكان، أخبريها أني سأتغدى هنا.

وقلقت حسيبة، فهذا اضطراب جديد في حياتها، أتراها أغضبته بأمر ما؟ أتراه حزيناً لأمر ما؟ ولم تستطع الاحتمال، فلبست ملاءتها تحجبت تماماً ومضت إليه، إلى الدكان تصالحه، ولكنها وجدته وقد أكل غداء صياح.

ـ تغديت؟

فقال بحزن: نعم.

ـ وأبي؟

ـ مضى.

ولم تحملها ساقاها، فجلست: مضى؟

كان عالمها قد انتظم في حياة هانئة، البيت المريح، والأب المسالم، والزوج المحب، ولا يُنَغِّصُ هذا العالم إلا موت عمر، ولكنها ستعوضه، هي تعرف أنها ستعوضه، فالعمر في أوله، ومن أنجب الأول قادر أن ينجب غيره.

نظرت إلى حمدان في ألمٍ (مضى) يقولها بهدوء، وكأنه لايعرف أن هذا العالم الذي اطمأنت إليه لن تستطيع أبداً تركه يتحطم، مضى؟ ولم يودعها، أو يسألها صحبته؟ أتراها ستصحبه لو سأل؟ مضى؟

وقال حمدان يكسر جدار الصمت: قال إنه سيعود الليلة أو غداً.

وتنفست الصُّعداء، تنفسَّت الفرج، فصرخت في عنف لامت نفسها عليه فيما بعد، فلم يكن ذلك حسن أدب مع الزوج.

ـ ولمَ لمْ تقل ذلك منذ البدء؟

ـ لأني عرفت أنه سيمضي ـ وصمت قليلاً ـ دون أن يقول، دون أن يفسر. عرفت أن شيئاً فيه تغيَّر. النظرة. النظرة. شيء فيها قال إنه سيمضي.

وتمالكت نفسها، فقامت: لا لن يمضي. دعه لي، ولكن، ثم قالت في حزن: أرجو أن يعود حتى أستطيع إقناعه.

حين اقتحمت الحارة متجهة إلى البيت رأت الحارة بعيون جديدة للمرة الأولى، فتلكأت، نظرت إلى الأرض المبلطة بالحجارة البازلتية السود، وأحست بالحزن، التفتت إلى اليمين تراقب باب بيت الأزمرلي الخشبي، المربعات، والمثمنات، والمثلثات، والمعينات المتداخلة، تتأملها وكأنها تراها للمرة الأولى، وأحسَّت بالحزن. نظرت إلى القوس الحجري الذي يحمل باب الحارة والذي لم يُغْلق منذ سنوات وأحسَّت بالحزن، راقبت أغصان الليمونة الحلوة تشرئبُّ إلى الحارة عبر جدار بيت خالدية خانم وكأنها قد ضاقت ببيت الوحدة والسكون فطمحت إلى شيء من التسلية تريد مراقبة المارة كما تفعل خالدية من وراء خُصها الخشبي حين تضيق بالوحدة والتطريز، فتتسلى بمراقبة الأولاد يحملون سطولهم حتى الفيجة العمومية ليملأوها، تتسلى بمراقبة أجراء اللحام والسمان والخضري يحملون طلبات اليوم إلى البيوت، وربما نادتهم لتسألهم أسئلة لا معنى لها إلا أنها تريد أن تتسلى، هيه، مسكينة، الوحدة صعبة يا خالدية خانم.

مضت إلى الأمام، وتحاشت الحفرة، تلك الحفرة التي كشفوا منها على المجاري، ثم لم يردموها من بعد، سدَّت أنفها قليلاً وهي تجتاز صفائح الزبالة الموضوعة أمام الباب.. ولكنه سيمضي. صحيح سيمضي، حين قال حمدان: إنه سيمضي فهو يعرف ذلك، فحسُّه الذي تحسده عليه، والذي أنماه مراقبة الناس الطويلة من وراء جام الدكان حسٌّ صادق على الأغلب ـ سيمضي . كانت تعرف ذلك،

اكتشفت الآن فقط أنها كانت تعرف ذلك في جزء سري من قلبها كانت تدرك أن إقامته معهم مؤقتة، وأن ذلك لن يدوم إلى الأبد.

سيمضي؟ لا. لن تدعه يمضي.

فتحت الباب، الدهليز الرطب المعتم، خرير البحرة البعيد، صوت المقشة الكبيرة يكنس الدار، إنها سعدية تعد الديار للغداء إلى جانب البحرة تظن حمدان قد عاد معها.

النور المهاجم. نور الباحة المناقض لعتمة الدهليز، اتجهت إلى الإيوان ولم تلق التحية، ولم تستجب لدهشة النظرة في عيني سعدية.

اتكأت على الديوان، وكانت لا تزال في ملاءتها السوداء السابغة، وفكرت: سيمضي، لمَ فوجئت؟ كنت تعرفين أن قدومكما إلى المدينة أصلاً مؤقت، لم يكن إلا انتظاراً للـ..خطوة القادمة،... القادمة هه! يبدو أنها قد قدمت أخيراً، أشتهي أن أعرف من أوصلها إليه؟. ولكن ما الفائدة؟ إنه وعد قديم يا حسيبة، وعد من الصعب الفكاك منه. الآن وقد تزوجت وأطفلت، وارتبطت إلى بيت يستطيع تركك فيه مرتاحاً، ستكون حقول المغامرة أمامه مفتوحة ولن يخاف رصاصة لن تقتله فحسب، بل وستُيَتِّمُ فتاة في الصحراء أو في الجبل حيث لا قريب و لا نسيب، صحيح أن الثوار بمجموعهم زكرتية وشهامتهم معروفة ولكن... من يدري! على أية حال هاهو عبئك ينزل عن كتفه، وسيمضي... فما الذي يربطه إليكم؟! هذه الغرفة الصومعة، أم هذا العمل المجزي؟ صحيح. لابد أنه يعاني الوحدة. الوحدة. وتسللت أغصان الليمون الحلوة المتطاولة إلى الحارة بأذرعها تحاول الهرب من الوحدة، هم....م، لابد أنها الوحدة إذن!.

كيف لم تفكر في هذا من قبل؟ كانت مشغولة بالتعرف إلى هذا العالم المقدمة عليه، كانت مشغولة باكتشاف أسراره وخفاياه، مسموحاته ومحظوراته، فانشغلت حتى نسيت ذلك الصومعي الذي لم يعد يذكرها به إلا نداؤه الفَجريِّ: أفلح من قال لا إله إلا الله. وهاهو يدخل عالم الذاكرة بعنف، هاهو يرفس بقدمه باب الصمت والعادية ليقول: ماأزال حياً قادراً على قلب طاولة هدوئكم في كلِّ آن.

الملاءة، صحيح أليس من الأفضل خلعها؟ اتجهت إلى المربع الكبير لتخلعها حين لمحت المرآة المعلقة إلى جدار الدهليز، هذه

المرآة التي أوصت عليها خصيصاً، ترى فيها نفسها قبل أن تفتح الباب ولا يفتح الباب لحمدان سواها، تستقبله بالأهلا وسهلا، وقبلة اليد، ويستقبلها بالاحتضان الشارد، فلا يجوز المبالغة في هذه المظاهر أمام عيون سعدية.

نظرت إلى وجهها في المرآة، هذا الجبين العالي قليلاً، هاتان العينان البنيتان الكبيرتان اللتان ألحت خالدية خانم عليها كثيراً لتنتف حاجباهما، تنتفهما تماماً، فمع مثل هذين الحاجبين لا يمكن التعامل: انظري كم هما عريضان وأسودان**!** إنهما حاجبا رجل،ضيقِّي عينيك قليلاً يامو. صرت تخوِّفين، يجب نتفهما، صدقيني، وسأعلمك كيف ترسمين حاجبين أجمل بكثير، ولكن حسيبة كانت ترفض دائماً: جئت إلى الحياة هكذا، وسأبقى هكذا ـ ثم تضيف في دلال ـ وعلى أية حال فهو مغرم بي كما أنا. فلمَ التعب؟.

وتبرم خالدية وجهها، ولاتكرر ماقالته مرة ثم أسفت عليه: إنه معجب بصباك ونضارتك. ولكن انتظري قليلاً**!!** لأن حسيبة أجابتها: حين أفقدهما الله أعلم أين سيكون؟ وتنهدت حسيبة تبتعد عن المرآة إلى المربع الكبير: حسيبة لو لم تتزوجي وتنجبي وترتبطي بهذا البيت، وجاءك النداء، بأن قافلة المغامرة قد تحركت، أفما كنت تمضين؟.

وأحسَّتْ شيئاً صغيراً، حنيناً خفياً، هناك في عمق القلب يقول: ربما فعلتها، حسن فكيف تمنعينه إذن؟. أمنعه؟ ولكني متزوجة. صحيح. أما هو فوحيد، وما أسميه عملاً يسميه بلادة.... الوحدة؟ هذا ما يضايقه، صحيح. كيف لم أفكر في هذا من قبل؟**!**

فكَّتْ رباط المنديل عن رأسها، ولكن... خالدية، خالدية. إنها الحل.

وحيد، ووحيدة فلم لا ننهي وحدتهما، ولكن هل ستقبل؟ لست أدري، ولمَ لاتقبل؟ خالدية خانم القديمة مضت منذ زمن طويل، خالدية خانم اليوم كهلة لاتجد من يقول لها صباح الخير، وسيكون صباح مكافأة طيبة لكهولتها.

ربطت المنديل ثانية، وخرجت من المربع متجهة إلى الدهليز لتلاحظ دهشة سعدية: إلى أين؟ نظرت إليها مواجهة: مالكِ أنت

ولهذا؟ كانت معركة سيادة البيت قد حُسمت منذ زمن طويل، ولم يعد النقاش حول هذا مفيداً، فغمغمت:

ـ زيارة قصيرة.

(5)

فوجئت خالدية خانم تماماً، فوجئت أولاً بالزيارة، وماعتادتها، بل كانت دائماً هي من يقوم بالزيارة، فوجئت بلفِّ حسيبة طويلاً في الحديث عن أمور كثيرة حول صياح وسمعته وصيته، وشهامته ووحدته، وكانت خالدية تؤِّمن على ما تقول حسيبة دون أن تدرك ما ترمي الأخيرة إليه حتى دهمتها بالسؤال المفاجئ: هل تتزوجينه؟

ـ أنا؟.

ـ نعم أنت!

ـ ولكن... يا حسيبة أنا امرأة سئمت الزواج، جرَّبتُ حُلوه وحامضه،مُرُّهُ ومَزُّهُ، ولم يبق لدي منه إلا المرارة.

ـ فاختميها بحلاوة عتيقة؟

وتساءلت خالدية تردد وكأنما لنفسها غير مصدقة: صياح المسدي؟

وفكرت: بعد شكري بك وحسني بك، وعبده، عبده الذي امتص كل شهوة لديها للرجال، تتزوج من صياح؟.

ـ هو وحيد، وأنتِ .. لا تؤاخذيني وحيدة، طلباتكما قليلة، ورغباتكما محدودة، ونحن في خدمتكما دوماً، ستقدمين لي خدمة وسأكون ممتنة لك.

أجالت السؤال قليلاً في ذهنها. الوحدة صعبة، وصياح الرمح لابد أن فيه بعض حيوية. فهذه القامة، وهذا الصوت الذي يوقظها كل صبح، وهذه الخطوات القوية، لابد أن فيه بعض حيوية، وبدلاً من

الجلوس وراء الخُصِّ، وانتظار من لا يأتي ستعرف أن لها أحداً تنتظره.

ـ ستوافقين، هه؟

وتمتمت وكأنها خجلة: أترين ذلك مناسباً لنا؟.

ـ كل سنٍ مناسب للزواج.

ـ ألن يسخر منا الجيران؟.

ـ لماذا؟ ستتزوجان على سنة الله ورسوله!

ومضت حسيبة عائدة إلى بيتها،مضت عارفة أن الخطوة القادمة هي الأصعب، خطوة إقناع صياح، خطوة جعله يرمي حبل المغامرة ويقيم، خطوة جعله ينسى البراري، ويربط نفسه إلى امرأة، خطوة جعله يتوقف عن الأنين كلما سمع أن عصابة من خمسة رجال قد قتلت سنغالياً أو جندياً سباهياً، واختفت في الجبل، ولكنها واثقة من نفسها انتظرت. قالت: سيأتي في المساء، وسيكون النقاش طويلاً.

ولكن المساء جاء، والعشاء رفع، وحمدان مضى إلى جامع السباهية وعاد، وصياح لم يعد، وطال أرق الليل، وخرجت إلى الديار، فغسلت وجهها في البحرة، تأملت النجوم قليلاً، رَنَتْ إلى الفرنكة المظلمة طويلاً، ثم سمعت صوت حمدان يناديها، فعادت! قال: سيأتي، وعد أنه سيرجع. نامي الآن.

ـ واثق أنت أنه قال سيرجع.

ـ طبعاً.

ـ ولكنه تأخر!

ـ ربما لم يستطع القدوم في الليل، فأجَّلها حتى الغد.

وجاء الصبح، عرفت ذلك من الأذان هذه المرة، وليس من نحنحة صياح وهو ينزل الدرج، سمعت ـ الصلاة خير من النوم من المؤذن هذه المرة، وليس من صياح وهو ينعطف خارجاً من الحارة حتى التعديل مبتعداً حتى يصل جامع التعديل ليبدأ نهاره.

سمعتها وغُصَّتْ، فهاهي الإشارة الأولى لخروجه من حياتها، ولكن. لا لن تسمح له.حسيبة الجبلية لن تتنازل بسهولة، ستُعِدُ له من المغريات، من الروابط مايجعله يفكر عشرين مرة قبل أن يمضي. كانت تلك تجربتها الأولى مع هؤلاء الذكور المشاكسين المعاندين لا يعرفون مصلحتهم، ولا يُقَدَّرون متى يجب اتخاذ الخطوة التي تخرج بهم من عالم التفاهة والحلم إلى عالم واقعي ملموس، عالم يمكن إمساكه باليد، وشمُّه بالأنف، وذوقه باللسان.

ما إن انتهى الأذان حتى انزلقت من سريرها لتبدأ نهارها كما علَّمتها خالدية خانم، أسرعت إلى المطبخ لتجد الماعون النحاسي الكبير فوق الوجاق، جسَّت الماء هه، لابأس، دافئ، ملأت الإبريق النحاسي الكبير، ثم عادت إلى غرفة النوم، وهمست:

ـ أبو عمر.

ـ يا الله. ياالله.

في غبشة الصبح رأته ينتصب، ينزل من السرير في سرواله الأبيض الطويل، وقميصه ذي الأكمام:

ـ تفضَّلْ. الماء ساخن.

ـ صحوت مبكرة. الله يعطيك العافية.

مضى إلى الحمام، فتوضأت في انتظاره، ثم ملأت الإبريق ثانية. صَبَّت له الماء. توضأ. أخذ البشكير عن كتفها، نشفَّ وضوءه ثم عاد إلى المربع الكبير، أقام الصلاة بصوت خافت، بينما لبست غطاءها الأبيض والسابغ، وخراطتها الطويلة مغطية قدميها، وصلت الصبح وراءه.

كانت سعدية قد أعدت الشاي، وما كانت حسيبة تنتظر إلا أن يخلوا بنفسيهما عند الفطور، فهذا هو الوقت الوحيد الذي يمكنها فيه الحديث، فزينب نائمة وسعدية منشغلة بشؤون البيت، وهو غير مستعجل للمضي إلى الدكان، قالت وكان ينتظر أن تتحدث عن صياح:

ـ يجب أن لا نسمح له بالمُضي.

ـ صياح أبوك وأنت تعرفينه، لا أحد قادر على منعه.

ـ صياح يحسُّ بالوحدة وعدم الجدوى.

ـ المعنى؟.

ـ نربطه فلا نسمح له بالسفر!.

ـ كيف؟

وشرحت له الأمر، وكان حمدان قد أقرَّ لها منذ زمن طويل بصواب الرأي، فكان يستمع لنصائحها دون أن يأبه لفارق السنِّ الذي اختزلته بسرعة، وصار يستمع إلى مشورتها دون أن يكترث لأنوثتها.

وشرحت له خطتها: الزواج من خالدية، وفكر قليلاً... إنها فرصة طيبة يطمئن فيها على خالدية، ويضمن بقاء صياح الذي صار عنصراً أساسياً في حياته، فمع صياح فقط صار يستطيع أن يسترخي في البيت قليلاً، ومع صياح فقط صار يستطيع أن يكمل درس الفقه والسيرة عند الشيخ عبد الكريم، ومع صياح فقط لم يعد يقلق على المستقبل. قالت:

ـ وهناك أمر أخر!.

ـ هه.

وشرحت له إحساس صياح باللاجدوى، وبالصَّغار. فرجل مثله ليس من السهل عليه القبول بأن ينتهي أجير سمَّان: لابد أن تصنع له شيئاً يجعل يحسُّ بمزيد من الاحترام لنفسه: كيف؟

وألقت قنبلتها: تجعله شريكاً لك في المحل.

واستيقظ الدكنجي الحذر، استيقظ حرص السنين التاريخي، استيقظ رنين الفرنك على الفرنك تجمع ليرة، ولم يستطع أن يبتلعها ولكنها كانت أذكى من أن تهزم أمام عائق كهذا، قالت: صياح عجوز وليس له في الدنيا سوانا، ولو كانت أموال الدنيا كلها لديه، فإلى من ستؤول؟ أليس لي ولأولادي، الأمر شكلي، شكلي فقط، صدِّقني لقمته معروفة، ولباسه معروف وحياته مع خالدية خانم لن تزيد في مصروفهما شيئاً.

قال: دعيني أفكر.

ـ لا، لا وقت للتفكير سيأتي بين ساعة وأخرى، وربما لن تجد الوقت لإقناعه، يجب أن نكون متفقين على كل شيء.

شرب كأس شايه الرابع، اتكأ قليلاً.. حَسَبَها، ليس في الأمر خسارة أبداً، خالدية خانم مسؤوليته الدائمة وهو ينفق عليها منذ أن باعت آخر حصة ميراث لها، ولولا أنه أسكنها هذا البيت الصغير بعد أن أخلاه من مستأجريه، لتشرَّدت في الشوارع، ثم.. لِمَ التهرب؟ هي أخته... صحيح أنها أخته من أبيه.. ولكنها أخته وصياح يعمل لديه، ويجب ألا يمضي، وأما الخوف من الوراثة، فلا مجال، خالدية خانم جربت نفسها مع رجال ثلاثة ولم تنجب، أفستنجب وهي الكهلة زوجة الكهل؟

نظر إلى الباحة، غَطَّت الشمس رأس شجرة المسك، وعليه أن يقوم، فليس من يفتح الدكان سواه اليوم.

ـ ماذا قلت؟

ـ لا بأس. لا بأس يا حسيبة اصنعي ما شئت.

ـ يعني موافق؟

ـ موافق.

ومضى والتهبت حسيبة نشاطاً، فسارعت تساعد سعدية في شطف الديار، في تنظيف البحرة، في مسح النوافذ في سقاية الزريعة، كانت تريد شغل نفسها حتى يجيء صياح، صياح الذي لم يعد أباً، صياح الذي كان شريكاً وتحدياً وخوفاً.

وجاء صياح، عرفت ذلك من طرقاته المميزة، وسارعت تفتح الباب:

ـ يا أهلين

هتفت، فرد: مرحبا حسوب.

دخل يحمل خُرجاً على كتفه، دخل ملتفاً بعباءة لم تعرفها عليه، دخلت وراءه وهالة من حوله تصمتها. دخل إلى المربع الكبير

وسعدية تخزرهما محاولة فهم ما يجري، ولكنه أغلق الباب بسرعة:
ـ أين كنت؟

ورد بفرح سريع: في القطيفة.

وغاص القلب، فقد فهمت بسرعة كل شيء، نظرت إلى الخرج، ففهمت، ونظرت إلى العباءة ففهمت، ونظرت إلى نظراته. ففهمت: لن تفعلها.

ـ لا خيار.

وبإصرار كررت: لن تفعلها.

ـ من يمنعني؟

ـ أنا!

ـ أنت ـ قال هازئاً ثم تابع: اسمعي، لاوقت لدي للنقاش الآن، أخاف أن أكون متبوعاً، أخفي هذه الأشياء الآن، وسأعود إلى الدكان.

أخرج البندقية القديمة، الكامة، الخنجر، الطبنجة، جنادات الرصاص:

ـ لا تجعلي سعدية تراها.

ـ ولكن لم تخرجها من الخرج؟.

ـ سأعود بالخرج إلى الدكان لأجعل من يتبعني ـ إن تبعني ـ يظنَّ أني مازلت أحمل ما جئت به.

ـ هم....م، لا بأس.

وخرجت إلى الديار، فنادت سعدية، وطلبت منها أن تأتيهم برطل فحم، فسنشوي كبة اليوم، وتلكأت سعدية ولكنها لم تسمح لها بالتلكؤ، فمضت.

ـ حسن سأخفيها. ولكن لي حديث معك.

ـ فيما بعد، فيما بعد سأمضي الآن.

لم يترك لها فرصة للحديث، كان شباب جديد قد حلَّ فيه، كان صياح المسدي قد استعاد صياح المسدي منذ أن حمل بندقيته، تلك التي أخفاها في القطيفة قبل أن ينزل إلى المدينة، كان قد استعاد تلك القوة التي تجعلها تستمع إليه دون نقاش، جمع الخرج كما كان، وضعه على كتفه، لفَّ العباءة من حوله وخرج.

نظرت إلى البارودة، إلى الكامة، جنادات الرصاص، وخافت، تعرفها، تعرف إغراءها، وتعرف لذة التعامل معها، ولكن، هل تتركه يمضي، إن لديها خططها التي يجب أن تحفظه إلى جوارها.

سمعت صوت باب ينغلق بعنف، وأدركت أن سعدية ستعود ولا يجب أن ترى هذه الأسلحة، أسرعت إلى السقيفة، أبعدت الحطب، الحطب الكثير، أبعدته تماماً، صفَّت البارودة، الكامة، الخنجر، الطبنجة والجنادات، وأعادت الحطب كما كان، نظرت إلى السقيفة مطمئنة ونزلت.

نظفت نفسها لدى البحرة، وانتظرت، فقد كانت تعرف منذ أن أخفت الأسلحة أن معركة قادمة، معركة لن تكون سهلة، فهي معركة ترويض صياح المسدي.

(6)

ـ ماذا؟

صرخ في دهشة يتأملها ولا يصدق، ثم بعد تردد قليل أكمل:

ـ أتزوج من خالدية خانم!!

ـ نعم، وتصبح شريكاً لأبو عمر في الدكان!.

ـ ولكن من أخبركم أني أريد دكاناً، من قال إني أريد زواجاً؟

وكاد يفلت من حمدان السؤال، فيسأل، فماذا تريد إذن؟ ولكنه كبح نفسه في اللحظة الأخيرة فقد كان يعرف ماذا يريد فعلاً. كان يدرك دون أن يستطيع التعبير عن فكرته بالكلام، كان يعرف أن صياح قد كسر القيد، وهرب من قفص الواحة، ذاق لذة الطيران في الأجواء، والعدو في البراري. كان يعرف أنه استطاع أن ينجو من سجن الدكنجي وحسابات الفرنك فوق الفرنك تصنع ليرة، كان يعرف ذلك في جزء من روحه متمن، كان يعرف ذلك في عمق مكبوت في قلبه منذ أمد طويل، منذ رُبِطَّ إلى الدكان وعُلِّم أصول الانتظار، كان يعرف أن صياح رفض الانتظار وقرر المُضيَّ بنفسه إلى القافلة، كان يعرف أن صياح رفض انتظار المهدي، فقرر المضي إليه بنفسه يصنعه، ويصافحه، ويبينه، كان يعرف أن الثورة ليست الهدف الحقيقي لصياح بل الخروج من الواحة هو الهدف، كان يعرف أن صياح قد ذاق لذة الصنع، فلم يعد يحتمل انتظار المهدي الجاهز، كان يحسُّ ذلك، ولايستطيع قوله، لذلك حين صرخ صياح مدهوشاً ساخراً لم يستطع الجواب، بل قبع يراقب المبارزة بين متمردي الأمس.

قالت: أبي، أبي. يجب أن تنظر لنفسك، أنت لم تعد ذلك الشاب الذي مضى إلى السفربرلك، أنت الآن رجل...رجل.

ـ هه. قوليها عجوز.

وتراجعت: لا ليس عجوزاً تماماً، ولكنك صرت في السن التي تحتاج فيها إلى الراحة، إلى الأولاد والأحفاد من حولك تداعبهم، تستند إليهم يُسَلّون شيخوختك.

ـ هه ـ وأنَّ في ألم ـ أنت تقولين ذلك؟ أنسيت؟.

ـ لم أنس شيئاً، ولكنك أديت ماعليك وزيادة. دعِ الآخرين يقومون بحصتهم.

ـ وحصتي أن أقبع في الدكان أبيع نصف وقية جبن، ووقية حلاوة، وبفرنك شاي؟

وتنحنح حمدان فقد كانت الغمزة مباشرة، فالتفت إليه صياح:

ـ لا. أرجوك ألا تنزعج يا أبو عمر لست معنياً في هذا، لست معنياً أبداً، عالمك بنيته، فارتحت إليه أما عالمي أنا....

وصرخت حسيبة:

ـ أين عالمك هه. هل ولدت وفي يدك بارودة؟

ـ لا. لم أولد وفي يدي بارودة، ولكني، ولكني...

وضاقت الكلمات عن الفكرة... فاغتنمت الفرصة لتجهز عليه:

ـ أنا أعرف أنك محرج، محرج من كونك صانعاً عند أبو عمر، ولكنه يقدمها إليك بفرح، تعال وشاركنا، حَسّنْ حياتك كالآخرين.

ـ والفرنسيون ببرنيطاتهم يتبخترون، والتحريَّة بأنوفهم الطويلة يدسُّونها في عُبِّك وجيبك، ولو استطاعوا لدسوها في... وخجل من قول ما أراد، ولكنهما فهما، فضحك حمدان، وأطلق استغفارة وهو يداعب سبحته.

ـ وخالدية خانم: لقد وعدتها.

ـ فتزوجيها أنت! منذ متى وأنت تعدين عني؟

ـ أبي. أبي. خائفة عليك.

ـ لا تخافي.

ـ بل أخاف! لم تعد صحتك تحتمل، أأنت قَدُّ الجبل والكهوف الآن؟.

ـ قدَّها وزيادة!

ـ أأنت قدُّ الرياح وليالي البرد والرصاص الغادر؟.

ـ لماذا تريدين أن تكهليني قبل الأوان ، أنت تعرفين أني قدها وزيادة، ثم لم لا تختصرين هذا النقاش فتريحينني، وتريحي نفسك؟! أنا ماضٍ إلى فلسطين، ماضٍ. تصبحون على خير.

وقام ليتجه إلى فرنكته، ولكنها صاحت:

ـ لن تمضي.

فالتفت إليها: ماذا تقولين؟

ـ أقول: لن تمضي!

والتفت إليها حمدان يحذرها ألا تتمادى، ولكنها كانت قد تمادت وانتهى الأمر.

ـ أنت تقولينها؟

ـ نعم وسأمنعك.

نظر إليها، إلى حمدان، كان يتمنى لو يستطيع ضربها كما كان يفعل قبل سنوات، ولكنها الآن امرأة، وزوجة رجل آخر، وهمس حمدان:

ـ حسيبة يكفي.

ـ لا. لا يكفي.

وخنقها بكاء لا تعرف من أين قدم.

ـ لا. لا أستطيع تخيله وحيداً في الجبل، يُجرح فلا يجد من يضمد جرحه، يبرد فلا يجد من يغلي له كأس الشاي، تفرغ بارودته فلا يجد من يحشوها له.

حاصره بكاؤها، فسكت هنيهة يراقبها، حسيبة هذه التي كبرت في ثلاث سنوات عشرين سنة، حسيبة هذه التي كانت تتسرب منه قطعة فقطعة إلى مملكة خالدية خانم، يراقب انتماءها الجديد صامتاً ولا يتكلم، حسيبة هذه التي اعتاد أن يتعامل معها امرأة قوية صارمة روَّضت البيت، فحكمته، تبكي... اعتصره حنانها، وكاد أن يعود ليحاول إقناعها من جديد وينشّف دموعها، يلِّمس على شعرها الأسود الذي طالما آنس وحدته الجبلية، ولكن شيئاً، عاطفة، دافعاً، رغبة، خيطاً سرياً شدَّه، لا. لاينبغي أن تضعف يا صياح، فاستدار إلى باب المربع ثانية: تصبحون على خير.

مشى خطواته الخمس في الديار قبل أن يصل إلى الدرج حين صرخت وكأنها الجريحة تنزف آخر قطراتها: أبي.

ولكنه صعد الدرجات متثاقلاً تسمع خطواته على الدرجات الخشبية وكأنها طبول الفراق، نظر حمدان إلى حسيبة في رقَّة: ألم أقل لك؟.

ـ ماذا؟

ـ ألم أقل لك إنه لن يرضخ.

ـ ومن قال إنه لن يرضخ!

ـ ألم تريه وكيف انصرف؟.

ـ هه. أنت لا تعرف شيئاً، أبي في يدي، ولن يستطيع السفر.

نظر حمدان إليها مدهوشاً، ولم يفهم، ولكنها كانت تفهم، وكانت تقدر أنها ماتزال تمسك بالورقة الرابحة.

لم تترك حسيبة للغضب أن يفرش مملكته، فما إن سمعت نحنحة الصباح وصياح ينزل من فرنكته ليبدأ دورة طاحونته اليومية حتى انسلَّت من فراشها لتستقبله في الباحة: صباح الخير.

ـ حسوب، صباح النور. ماالذي أيقظك مبكرة؟

ـ خفت أن تمضي غاضباً مني.

اقتربت منه لتقبل يده، لكنه شدَّها بقوة إلى أعلى:

ـ حسوب، ما علَّمْتُك تقبيل اليد. فلا تفعليها.

ـ أريدك أن ترضى عليَّ.

ـ أنا راض عنك دائماً.

ـ فقَّبلني إذن.

وشدَّها إلى صدره طويلاً حتى شمَّ رائحة الجبل القديمة فيها وشمَّت رائحة عرق القلمون من صدره.

ـ حسوب، حسوب.

وغُصَ بدمعة ماكان يعتقد أنَّ في روحه مكاناً لها.

ـ أبي. أنت تعرف أني ما أفعل ذلك إلا لحبي لك.

ـ أعرف، وهذا ما يضنيني، لأني أظن أن السنوات التي قضيناها معاً قد عرَّفتك إلي بأعمق من أن تعرضي علي مثل هذه العروض.

ـ حسن كما تريد. إن أردت السفر. فسافر، ولكني سأظل مفرغة القلب، سأعيش ناقصة، مجوَّفة. أنتظر خبراً الله وحده يعلم متى يصلني.

ـ سأعود. صدقيني، سأعود، ولكني حين أعود لن يكون هناك فرنسي ببرنيطة في بلدنا.

انسحب من عناقها، أغلق الباب من خلفه، استندت إلى جدار الدهليز العتم، وانتظرت سماع أفلح من قال لا إله إلا الله، وسمعتها، سمعتها حتى الصلاة خير من النوم، وانعطافة الحارة حتى التعديل، فالابتعاد، الابتعاد، الابتعاد.

ظنَّ صياح وحمدان أنها استسلمت، فأخذا ينظمان أمورهما على أن المضي مسألة زمن لحمدان، ويومان لصياح الذي كان يعرف موعد قدوم مصطفى العربيني، كان يدرك توترهما، وما كان يستطيع الإفضاء بكامل السر، فيعلمان بالموعد، ولربما أفسداه، فلقد

رأى من حسيبة ما جعله يخاف في جزء منه اندفاعاتها حين تصمم على تنفيذ ما ترغب في تنفيذه.

وجاء الخميس وانتظر صياح حتى رأى حمدان يمرُّ به في طريقه إلى الجامع، وكان ليل الخريف البارد قد بدأ يتسلل إلى الدكان، فقال حمدان متلطفاً:

ـ لو أغلقت الدكان، ومضيت إلى البيت وارتحت.

ـ وأنت؟.

ـ لن أطيل، سأعود حالما ينتهي الدرس الأسبوعي.

ـ لا بأس.

راقبه يبتعد، راقبه يختفي في العتمة، يجتاز دكان الشيخ يوسف وأبو عبدو، وأبو ياسين في طريقة إلى جامع السباهية، أعاد أكياس الرز وصفائح الزيت إلى الدكان، أطفأ المصباح الكازي. جمع البابين الخشبيين، شدَّ عليهما بالخشبة المستعرضة، أقفل القفل، نظر إلى الدكان بحنان، مسح على الباب الذي فتحه وأغلقه عشرات المرات في هذه السنوات الثلاث... ومضى.

حين رأت حسيبة صياح عرفت أن اللحظة الحاسمة قد حانت، فحاولت تأجيلها، حاولت الهرب من المربع الكبير لتجهيز العشاء، ولكنه رفض، صُنع إبريق شاي، ولكنه أخبرها أنه شرب شاياً لتوه، فهمت ألا مهرب، وأن لحظة الصدام قد حلت، فجلست على الديوان المواجه، ولكنه قال:

ـ بل تعالي لتجلسي إلى جواري.

وعرفت أنه الوداع، فقالت، سأظل هنا، المواجهة أمتع للقلب.

فقال في أسف خفيف: كما تشائين!

تلكَّأ قليلاً يحاول الدخول إلى الموضوع، ثم اندفع مرة واحدة.

ـ حسيبة. غداً.

وتجاهلت: غداً الجمعة ـ ثم أمعنت في التجاهل ـ سنمضي إلى بستان كفرسوسة، وسنشوي لحماً، وسنصنع فتوشاً و...

ـ حسيبة ستمضون إلى كفرسوسة وحيدين

ـ لماذا. أستكون مشغولاً. لا. لا. يوم الجمعة عطلتنا، ولن نسمح فيه بشغل يحرمنا.

وقاطعها: حسيبة غداً سأكون في طريقي إلى فلسطين.

خرست. لقد قالها أخيراً، وأحست بالألم السِّرِّيِّ يتسرب في عروقها، ورغم معرفتها الأكيدة بسبب قدومه المبكر، ورغم وثوقها بأن أوان الاصطدام قد آن، فقد حاولت الصمود فهزَّت كتفيها في لامبالاة مصطنعة.

ـ حسناً. سافرْ.

ـ أريد السلاح.

فقالت في برود: أيُّ سلاح؟

وتَهيَّجَ لقولها أيُّ سلاح؟ فصرخ: السلاح الذي أودعته عندك منذ يومين!

ـ لا سلاح عندي!

ـ ماذا تقولين؟

ـ فقالت في برود كامل: لا سلاح عندي!

ـ المعنى؟

ـ المعنى ما قلت!

ـ هل جننتِ؟

ـ ربما!

صمت يحاول فهم ماتقول، وفهم بسرعة ما تصنع، لقد حجزت السلاح لمنعه من السفر، إذن فهذه خطتها السرية، هذا هو سبب تبدلها الذي فاجأه، وما كان يظن أنها ستبدل موقفها بهذه السرعة، وحاول أن يكون مقنعاً:

ـ حسيبة. أنت تعرفين أني سأمضي، يعني سأمضي.

ـ حسن. فامضِ.

ـ وكيف يمضي الثائر إلى الجبل دون سلاح؟

ـ هذه مشكلتك؟

وأخذ الغضب يتهيج فيه، هل تريدين إذلالي!؟

ـ بل أريدك إلى جواري.

وانفلت الغضب: ناطور دكان، أجير سمان، أهذا ما تريدينه؟

ـ بل شريكاً لحمدان، وزوجاً لخالدية.

ـ هذه خططك، نَفِّذيها كما تريدين، نفذيها مع حمدان، مع سعدية، مع خالدية، مع مريم، مع من تعايشينهم، ولكن ليس مع صياح، ليس مع صياح المسدي.

ـ بل مع أبي الذي أريده إلى جواري.

نظر إليها طويلاً، فصدمه وجهها القاسي، ذلك الجبين القطيفاني العريض، الحاجبان الأسودان الذكريان، العينان البُنيتان القويتان، عليكِ اللعنة، ماكان يجب أن تخلقي امرأة، نظر إليها، نظر إليها، فجابهته العينان القويتان لاتترددان، وأدرك أن النقاش معها لا يفيد، تَنَفَّسَ بعمق كما اعتاد قبل دخول المعركة، تَنَفَّس بعمق حتى هدأ القلب الخافق، ثم قام. قلب الديوان، لم يجد شيئاً، فتح اليوك، نثر الفرشات واحدة واحدة ولم يجد شيئاً، فتح الخرستان، الكتبية، ولكن اللعنة، لا وجود للسلاح.

اتجه إليها، فأحست بخوف صغير، أتراه سيضربها؟ ولكنه نترها بعنف عن الديوان، ثم قلبه. نكش مافي داخله. لا شيء، خرج إلى الديار، إلى المطبخ، نبش ما فيه، يا إلهي! أين اختفت البارودة، الكامة والجنادات؟ ذهب إلى بيت المؤونة، فتح أكياس الرز، البرغل، نبش بين أكياس البصل و البطاطا، أزاح ظروف السمن وصفائح الزيت، كان الغضب يزداد غلياناً مع كل إحباطة وكانت تتسمع إليه من مجلسها في هدوء، كانت تعرف أنه سينفجر حين لن يجد شيئاً، كانت تعرف أن غضبه سيندلع، وأن عليها أن تصمد، اتجه إلى غرفة الضيوف، قلب الكنبات أزاح الستائر، رفع السجادة، ولكن لا شيء،

عاد إلى المربع الكبير يَجُرُّ قدميه متعباً، ثم إلى مجلسه السابق على الديوان، فلقد رتبت الغرفة في غيابه، وتركت الفرشات مكوَّمة جانباً.

- وبعدين؟

- لا بعد، ولا قبل. لا سلاح لك عندي.

وتنفس ثانية بعمق: حسن يا حسيبة حسن، سأمضي بلا سلاح.

وضحكت في سرها. تهديد فارغ، فالثائر لا يستطيع المضي إليهم دون سلاح. سيكون سخريتهم.

- سأمضي أعزل، سأشحد بندقيتي، سأتسوَّل رصاصاتي، سأبكي من أجل خنجر، أيرضيك هذا، أيرضيك هذا يا حسيبة...... الدكنجية؟

- يرضيني ألا تمضي.

حدق في تلك العينين البنيتين المُظللتين، بالغرابين الأسودين. أي تصميم وأية قوة لدى هذه المرأة؟! لو كانت رجلاً لأشعلت معها عشرين ثورة، وقضيت العمر في الجبل آه... ولكنها امرأة، وامرأة صارت دكنجية. قام:

- حسن يا حسيبة، حسن أيتها البنت التي وهبتها العمر، ووهبتها الجبل، فتحولت إلى دكنجية، لابأس. سأمضي وستبكين، سأمضي وستعضيَّن أصابعك، سأمضي، وستأرقين الليالي، سأمضي، سأمضي، ولكنك لن تستطيعي أن تقولي إن إنساناً استطاع أن يمنع صياح المسدي من الانضمام إلى رفاقه حين آن الأوان.

صمتت تتفرَّج، ولا تصدق ما يقول، إنْ هي إلا بضع تهديدات ولن يجيء الصبح حتى تسمع نحنحته يهبط الدرج، ثم نداءه الفجري: أفلح من قال لا إله إلا الله، فتعرف أنه بدأ دورته اليومية، فتنصت قليلاً حتى يصل في مسيرته إلى نهاية الحارة ليبدأ انعطافته إلى جادة التعديل حيث يبدأ الأفلح ثانية، ويخفت الصوت، يخفت، يخفت إلى أن يتوقف عند جامع التعديل، ولكن غداً الجمعة، ولن تتركه يفتح الدكان ليقضي نهاره بعيداً عنها وعن حمدان وزينب، بل ستجعل

حمدان يسعى لاستعادته ليفطر معها، وستدعو خالدية لتفطر معهم، ولتجعلهما يريان بعضهما بنيَّة جديدة، ومن يدري...

وإذا مامضوا جميعاً إلى بستان كفرسوسة وتغدوا معاً، ورأي تفتيلتها في البستان، ورأت همَّته في شيِّ اللحم، فلعل الله يهدئ باله.

ولكنها حين استيقظت على أذان المؤذن أحست ارتعاشة خفيفة، أهو النوم ما سرقها؟ أم أنه لم يستيقظ ليوقظها كعادته بندائه الفجري، انسلَّت من فراشها، صعدت الدرج، فتحت الفرنكة، ولكن صياح كان قد مضى، ارتخت ركبتاها، فجلست إلى جانب السرير مهزومة فلقد عرفت أنه أخيراً... فعلها، ومضى إلى فلسطين...أعزل. وعندئذ أدرك الأبو منير، والأبو سعيد، والشيخ يوسف أن صياح كان ثائراً أصلياً، وأن صمته لم يكن لذنب كبير، بل لجرح عميق في القلب...كبير.

(7)

حين علمت خالدية برحيل صياح أُصيبت بالحُمَّى، فلقد اعتقدت أنه ما هرب إلا منها، فعاودتها الأحلام الحزينة، وإحباطات العمر، وتسللت الذكريات تهاجم قاسية، ذكريات ضيَّعت العمر وضيعها، ولعنت حسيبة التي أيقظت الحلم، وهيجَّت الحنين، حسيبة التي دمرت عُشَّ هدوء العنكبوت الذي بنَتْه من حولها، بنته من أصائص زريعة لا عدَّ لها، أصائص انتشرت صفوفاً صفتَّها حول البحرة أولاً، ثم ضاق بها محيط البحرة، فجعلتها صفَّاً ثانياً، ثم تركت ممراً بينها، وصفت صفاً ثالثاً، فرابعاً، وهكذا تحولت الباحة إلى ممرات تستطيع بصعوبة المرور بينها، وحين امتلأت الباحة، وضاق المكان بالهرجاية البنفسجية وضعتها على الدرجة الأولى، ثم لم تلبث أن تلتها بأصيص الدادا البيروتية على الدرجة الثانية، فأصيص الشاشان الأصفر، وهكذا أخذت الأصص تتوالد، وتنتقل بحريتها الخاصة عبر الدرج، فالسطح لتبدأ هناك انتشارها الصَّفّيّ، صفاً فصفاً، ولكن دون بحرة تشكل المركز، وامتلأت المشرقة، فالممر الصغير المؤدي إلى الفرنكة الصغيرة، ولو كانت أكثر صِباً ورشاقة وأخف وزناً ـ وكم تمنت ذلك ـ لانتقلت بأصائصها إلى سطح الفرنكة، ولكن كان في نقلها إلى سطح الفرنكة مخاطرة تخاف منها السقوط، فالكسر، وكان

هذا أشد ما تخافه، فلقد شهدت تحطم حوض أمها، ومكوثها قعيدة سنوات لا تفعل إلا أن تُطَرِّز، وتطرز، وتطرز.

وكانت حسيبة قد قالت لها حين نشرت طقم السرير المطرز بالحرير الأزرق تتفرج عليه وقد أهدته لها خالدية، ذلك الطقم الذي سبحت فيه بطات وحمائم ونهر ساذج، ذلك الطقم الذي انتشرت فيه زهور هي أشبه بالزهور تماوجت بين الوردة وزهر الخبازى والزنبق، زهور طُرِّزَت كلها بالحرير الأزرق اللامع الآسر للقلب، قالت حسيبة:

ـ أعرفهم يطرزون بحرة في منتصف الستارة ينتشر من حولها بعض الزهور، أعرفهم يطرزون حمامتين على غطاء الوسادة ولكنك حولت الطقم كله إلى تطريز، كيف فعلت ذلك؟

ـ فعلت ذلك؟ قالت خالدية وهي تتنهد قبل أن تضع الفنجان من يدها في الصحن الموضوع على جانب البحرة الباكي أبداً.

ـ فعلت ذلك؟ بل قولي من علمني ذلك؟

ـ علمك ذلك؟ من؟

ـ آه يا حسيبة أتعرفين ما الملل؟ أتعرفين ما معنى أن تقيمي في بيت واحد، وحيدة مع امرأة مقعدة تدورين في البيت مثل الخنفس في الطاس تدورين وتدورين، تكنسين ورق الشجر اليابس من الباحة، تشطفين الديار، تغسلين البحرة، تكشطين عنها الأشن الأخضر، تشطفين المطبخ، تنظفين كل زاوية فيه وكل ركن، تطاردين النمال والخنافس والعناكب وبزاق الليل، ثم وحين تعتقدين أن التعب قد هدك، فما تكادين تجلسين على كرسيك حتى تسمعي قهقهة رجل خشنة من البيت المجاور، ثم صهصلة امرأة رخصة متهدله تنساب من ديارهم حتى المشرقة متسلقة الطبلة، ثم هابطة إليك حاملة أشواقهم وأفراحهم، فيتوتر الجسد ويهيج، فتتلفتين من حولك تبحثين عن شيء تصنعينه ولكن البيت صغير والبحرة نظيفة، والباحة لامعة والنملية مملوءة طعاماً، فماذا تصنعين؟ تجترين ذكرياتك، أحلام الصبا، ولا تستطيعين نقاشها مع أحد، فالكل ضدك، فأنت من خرب بيتك بيدك.

ـ خربت بيتك بيدك، كيف؟

ـ أف! تلك قصة طويلة.

ـ لا أريد التطفل ولكن إن أحببت أن تتكلمي فسأسمع.

كانت تلك طريقة حسيبة في استدراج الآخرين إلى الحديث. هي ليست مهتمة ولكنها ستؤدي خدمة الإصغاء إلى المأزوم ليفضفض، ونظرت خالدية إليها طويلاً ثم قالت: وكأنك لا تعرفين!

ـ أعرف ماذا؟

ـ قصة طلاقي من شكري بك

ـ لا. لا أعرف.

ـ كان زواجاً يجب أن ينتهي بالطلاق، فلم يبدأ بالفرح ككل الأعراس بل حاول الجميع جعله زواجاً عادياً، أرمل ومطلقة، فلم المبالغة في الفرح؟ ولكني كنت امرأة في الثامنة عشرة، وكنت أستحق فرحاً كبيراً كما أعتقد، ولكن أحداً لم يهتم باعتقادي.

وأشرقت شمس الأحزان في سماء خالدية وهي تتذكر شكري بك، تحاول استحضاره، فلا تذكر منه إلا شاربان أعقفان احمرا بفعل الحناء والعطوس، تحاول تذكره، فلا تذكر منه إلا ضربة حذائه القاسي وهو يجوس في البيت بعد رجوعه من جولات الجباية، فقد كان يعمل تحصلداراً، تحاول تذكره، فلا تذكر منه إلا العينين الزرقاوين المخرشتين القاسيتين تتفحصان كل شيء في شك، شك فيها، في البيت، في سرقة شيء من ممتلكاته، وكل شيء من ممتلكاته هي وصفائح السمن والجبن، وجزّات الصوف. تحاول تذكره، فلا تذكر منه إلا عبوسه خارجاً وعبوسه داخلاً، يعمل محصل ضرائب وعداد غنم ويظن نفسه السلطان أو أن السلطان ابنه.

ـ وحين مر عامان ولم أنجب أقام الدنيا وأقعدها، فهو لم يتزوج إلا للإنجاب وأنا؟ ألا قيمة لي ـ اتشح صوتها فجأة بالمرارة ـ وكنت جميلة يا حسيبة لا تنظري إلي الآن، كان يجب أن تريني في صباي في تلك الأيام.

ـ له. له. له. ياخالدية خانم، مازلت جميلة، صدقيني، أعجب للرجال العمي، وكيف لم يروك.

ـ بل على العكس، رأوني ورفضوني يا حسيبة.

ـ رفضوك؟ تنقلع عيونهم ما أغباهم، من هذا الحمار الذي يرفض حسناً، لباقة، ذوقاً، وإدارة بيت مثلك؟

ـ أيه. حسني بيك.

ـ ومن حسني بيك؟

ـ زوجي الأول. تصوري عروس سنة، عروس في السادسة عشرة ويتزوج علي؟

وأنَّت حسيبة: الملعون!

ـ تصوري، وقالوا ماذا؟ ماالخطأ في ذلك؟ هذا حقه الشرعي، وحين رفضت وأصررت، إما أنا أو الجديدة اختار الجديدة، و....رجعت إلى أمي.

ـ يا مسكينة، في السادسة عشرة.

ـ تصوري. مطلقة في السادسة عشرة، ولا أب، فالأب متوفى والأم.. هه عجوز أبلت الرجال، وأبلوها ولم ترزق منهم بغيري، ومع ذلك فلم يكن لها من هم إلا تصريفي.

ـ كانت تريد لك الراحة ولا شك.

ـ ربما، ولكن... لو رأيت غضبها، لو رأيت ثورة حمدان، لو رأيت نقمة الجميع. امرأة تطلب الطلاق، امرأة ترضى بالخراب لنفسها. امرأة تختار أن تكون المضغة والسمعة السيئة، وصرخت فيهم غضباً، حزناً، جرحاً ولكن ماذا عنه هو؟ لمَ لمْ يسأله واحد منكم: كيف جاز له وهو الأربعيني أن يتزوج على زوجته ذات الستة عشر عاماً؟ لمَ لمْ يعاتبه أحد؟ فقال الجميع: هذا حقه. وماذا عن حقي أنا؟ حقك أن تحاولي إصلاح ذات البين!

ـ هل حاولوا إرجاعك إليه؟

ـ حاولوا، ضغطوا، ألحوا، أغروا، ولكن قوة عجيبة تشبثت بي، إما أنا وإما هي، أنا لا أقبل زوجاً على ضرة.

ـ وبقيت في البيت وحيدة.

ـ بقيت مع أمي التي علمتني التطريز.

ـ التطريز؟

ـ نعم فقد حولت حياتها منذ ترملها عن أبي إلى انتظار، لا تفكر في شيء، لاتشغل نفسها بشيء لا تناقش ولا تعارض، ولا تشاكل، بل تنتظر فقط.

ـ ماذا تنتظر؟

ـ الطلعة!

ـ ما معنى هذا؟

وضحكت خالدية في سخر خفيف: كانت تقول دائماً: لاخيار للإنسان في الدخول إلى الدنيا، فقد يدخلها محترماً، وقد يدخلها شرشوحاً، ولكن عليه أن يبذل كل جهده حتى يطلع منها محترماً، يخرج خروجاً يذكره الناس جميعاً ولوقت طويل، ومن أجل هذا الطلوع المحترم كانت تحضر أثواب الحرير، أنواع الطيوب، صرر الحنوط، وكانت تحتفظ في كمر على بطنها دائماً بخمسين ليرة ذهبية لا تسمح بإنقاصها ولو جعنا. كانت تقول: هذه النقود للفقراء والمشايخ، ونفقة الطلوع، لا أريد لأحد أن ينفق على طلوعي، ولا أريد لأحد أن يشعر بالشفقة على خروجي المشرشح من الدنيا، وحتى لا تخرج مشرشحة من الدنيا فقد أخذت تطرز الأكفان، تطرزها بكل الرسوم التي أحبتها في حياتها، تطرزها بكل الأزهار التي عرفتها ولم تعرفها، بكل الطيور التي رأتها ولم ترها، بالحدائق التي تمنت العيش فيها، بالبساتين التي تنزهت فيها، بالأنهار التي اشتهت السباحة فيها، ولم يسمح لها، بالأشجار المحملة بالثمار تتدلى فوقها، بالمشمش والتفاح، والكمثرى والشمام رغم أن الشمام لا ينبت على الشجر ولكنها كانت تحبه، فطرزته على الأشجار، وتكومت الأكفان، هل تصدقين لو أخبرتك أن الأكفان التي طرزتها لموتها وصلت إلى ثلاث مئة ذراع.

ـ لماذا؟

ـ تصوري ثلاث مئة ذراع من التفتة والبازان والموسلين المطرز... والحنوط، تصوري خمسة أرطال من العنبر، وخمسة أرطال من الكافور ومن الحناء، ومن أزرار الورد، من الآس المطحون، قطرميزات وقطرميزات، وقطرميزات، أتصدقين، كادت غرفتها أن تتحول إلى دكان عطار.

ـ المسكينة، أكانت تخاف الموت إلى هذه الدرجة؟

ـ لا. لا. لاأعتقدها كانت تخافه تماماً، بل لا أعرف إن كانت تخافه أو تحبه، ولكن من يرى هذا التطريز وهذه الأكوام من الأكفان كان له أن يعتقد أنها تعد نفسها للعرس، لا للموت.

وتبسمت حسيبة في مرارة، فقد كان المشهد كما تخيلته طريفاً، وصمتت قليلاً ترشف رشفات صغيرة جداً من فنجانها لا تريد إنهاءها قبل أن تنهي خالدية فنجانها، بينما انشغلت خالدية في لف سيكارتها الثالثة منذ أول الجلسة، وتخيلت حسيبة خالدية تطوف في المنزل هائجة تبحث عما يلهيها عن وحدتها فلا تجد، ولم تكن قد اعتادت تربية نباتات الزينة، فتعلمت ولاشك لعبة الصبر في ذلك التطريز الذي لا ينتهي.

وقالت خالدية: وبدأت الشجارات.

ـ وحمدان؟

ـ تدخل حمدان مرات كثيرة، كان ينصحني بالعودة إلى زوجي فما زال يريدني ولكنني كلما تخيلت عودتي إلى البيت مهزومة وقد احتلت الجديدة الصدارة فيه أكاد أنشق غيظاً، فأرفض، وألوب في البيت ألوب وألوب، صبية في السادسة عشرة لم تعرف الزواج إلا لسنتين، ثم يحكم الزمان بالطلاق فالعزلة، فحصار الجيران، كل الجيران، النساء يخفن على أزواجهن من المطلقة الجريئة فيبتعدن عن معاشرتها، والصبايا البريئات لا يجب إفسادهن بمعاشرة مطلقة عرفت الكثير عن الحياة والعجائز مشغولات عني بتطريزهن وقططهن وأصص زريعتهن، وبدروس الحاجة سعاد.

ـ الحاجة سعاد.؟

ـ هاه. هذه توفيت قبل أن تتزوجي من حمدان. كان لها بيت كبير يجتمع فيه النسوان من كل الحارات، من القنوات وحتى الشويكة تدرسهن الفقه وتقص عليهن السيرة النبوية، وأحياناً كن يقرأن البردة معاً.

ـ أين؟

ـ هناك ــ وتملص الكلام مروراً منها ــ في حي قبر عاتكة.

وأحست حسيبة لكلمة قبر عاتكة مرارة ما، ولكنها كبتت فضولها على عادتها.

ـ وأنت ألم تذهبي إلى الحاجة سعاد.

ـ أنا؟ ماذا أصنع عند الحاجة سعاد؟ كان العمر مايزال أمامي كله، العمر المليء حياة ورقصاً وغناء... ورجالاً، آه يا حسيبة! الرجال، الرجال الله لا يخلي بيتاً منهم، الله يلعنهم حلوين مرين،رائحة عرقهم المسكرة، ويدهم الباطشة، أنانيتهم القاسية، ومداعباتهم المذيبة. إه. الله يخلي لك حمدان ولا يحرمك منه.

ـ الله يحفظك.

ـ بيت دون رجل موحش، موحش يا حسيبة.

وأحست حسيبة أن الألم سيبكيها، فرأت أن تحول الموضوع إلى مزاح.

ـ هيه خالدية خانم ستكرهينني بالرجال، كلمة أخرى، وأغلق على نفسي وأمنع حمدان من الدخول إلي.

ـ لا. أنت محظوظة بحمدان، محظوظة أنك تزوجته وقد استوى، نضج، صحيح أنه تزوج خمساً قبلك، ولكنهن لم ينجبن، وهذا من حسن حظك.

ـ من حسن حظي أن أتزوجه بعد خمس نساء.

ـ نعم خمس نساء يبرين أكبر رجل، يزلن شره، يضعفن نفسه، يطامنَّ من تبجحه، هو الآن ينظر إلى نفسه، رجل في الخامسة

والخمسين وأنت في العشرين، وقاطعتها حسيبة ضاحكة: تسعة عشر.

ـ يا ستي، اختلفنا يعني؟

وأصرت حسيبة مازحة: لا، ولكن الحق حق!

ـ طيب ياستي تسعة عشر، ينظر إلى نفسه ويقول: ماذا بقي من العمر يا حمدان؟ ارح نفسك الآن واهتم بزوجتك وبنتك.

وغصت حسيبة قليلاً عند سماعها كلمة بنتك، ولكن ما العمل؟ هذا حظها أن يموت عمر وتبقى زينب هه، هو أعطى، وهو أخذ.

وتابعت خالدية: أما أنا، فلم يرزقني الله بمثل حمدان، بل حسني بك، وشكري بك التحصلدار.

ـ ولكن... حسني بك طلقته لأنه تزوج عليك... و... شكري بك؟

ـ شكري بك. هه ـ وأضافت ماطة الكلمات في سخرية ـ شكري بك التحصلدار، شكري بك أبو الفرس الحمرا، شكري بك أبو الشوارب، إيه. ماذا أحكي وأحكي!

ـ قولي.

ـ كان يريد الأولاد.

ـ ولم تنجبي؟

ـ حتى الآن لا أعرف يا حسيبة، أكان العيب مني أو منه؟ ولكن ـ وتنهدت في ألم مستسلمة ـ يبدو أن العيب مني، ثلاثة رجال لم أحظ منهم بولد واحد يسعد كبري.

واربدَّ وجهها في حزن، فأطفأت سيكارتها في صحن السيكارة، فانثنى العقب طرياً تحت ضغطتها، بلَّت كفها من البحرة، ونقطت فوقها ما أطفأها.

ـ آه، أوجعت رأسك بثرثرتي. سأمضي الآن.

ـ ابقي على الغداء.

حسيبة

ـ لا يا حبيبتي، أنت تتغدين مع حمدان، ولست في حاجة إلى عذول!

كان حظ خالدية من الرجال قاسياً، اجتمعت فيه كل قسوات أولئك الرجال الذين حرموا من المغامرات الكبرى، فتحولت إرادتهم للنضال ، إرث أجدادهم المغامرين، والفاتحين، والتاجرين، إلى قسوة مع النساء، فاختفت كل تلك الفروسية التي عرفوا بها في علاقاتهم مع النساء، واختفت كل تلك القصص عن الحب الكبير، فالحب الكبير يحتاج إلى مغامرين كبار، أما هؤلاء الذين ألفوا الواحة والتقتير والانتظار، وحرموا المغامرة، فما كانوا يستطيعون ذلك الحب الكبير، فاختفى لتحل محله القسوة، القسوة فقط، القسوة التي ينتقم بها الرجل المحبط من المخلوق الوحيد الأضعف منه في العالم: المرأة، فحولوها إلى شيء، إلى متعة يتمتعون بها نضرة، ثم ما أسرع ما يرمونها عند أول خصام! وكان الدين والعرف والقانون معهم، وما أكثر أولئك النسوة المطلقات، والأرامل المهجورات المحرومات من الرجل، الباذلات العرق، والدموع، والحياة، والمشائخ، والمندل، والسحر من أجل هدف واحد: الاحتفاظ بالرجل، هذا السراب المتقلب، السراب الهارب، السراب لا يمسك بالأصابع، وكانت الحروب الكثيرة، الحروب التي يشنها السلطان لتثبيت ملك، أو استرجاع ولاية، أو لهزيمة الإفرنج، هذه الحروب تأكل الرجال دائماً، فإذا لم تأكلهم، فالأوبئة والطواعين، والمجاعات كانت كفيلة بأكلهم، فامتلأت المدن ــ الواحات بالنساء، النساء في الملاءات السود غرباناً متحركة في الشوارع والحارات أشباحاً ضائعة محرومة مكبوتة ممنوعة من الرجل، فامتلأت أغانيهن، ومنادبهن، وأحاديثهن بالبكاء، على الرجل، الرجل المتسرب، الرجل الضائع، الرجل المفقود، كانت علاقاتهم بالرجال خليطاً من حلم وحزن، من أمل وجرح. يضربهن الرجل، فلا يتألمن، فهذا حقه! يهينهن، فلا يجرحن فهذا خير من فقده، يطلقهن، فيسعين لاسترجاعه، بالأطفال الباكين يسعين، بالانتظار يسعين، بالسحر والمشائخ يسعين، وحين تحاول الواحدة منهن مرة استرجاع قدرها، تحاول القبض عليه بأصابعها تفاجأ بالمجتمع كله يقف ضدها، عيب. على المرأة أن تنتظر، لا أن تلاحق. على المرأة أن تستقبل، لا أن تطارد، وكان هذا نصيب خالدية حين حاولت، وكان هذا ماحذرت خالدية منه حسيبة

باكية بعد سنوات، حين ظنت حسيبة عندما جاء فياض الشيزري إليها لاجئاً أنها وجدت الرجل الذي انتظرته العمر بعد وفاة حمدان، فاستحضرتها أمامها من قبرها الزهري، وشكت إليها حبها لفياض. قالت: آه ياحسيبة! آه الحب، الحب كلبين علقانين ببعض، بيركضوا في الحارات، علقانين ما بيخلصهم إلا ضرب العصي وسطل المي، مساكين. بس بعد ما بيخلصوهم من بعض بيعرفوا قديش كانوا حمير، وقديش الحب بيشرشح وبيضيع القيمة!

وحين ألحت حسيبة قالت: إياك يا حسيبة إياك. أنت الآن امرأة محترمة والكل يقسم باسمك، فلا تضيعي وراء الأوهام. حب الرجال الصغار مهين مذل، محطم، صدقيني.

ولم تسألها حسيبة أن تفسر كلامها، فقد كانت تعرفه، سمعته منها وسمعته من مريم، وسمعت شذرات منه من حمدان.

كان ذلك منذ سنوات، وكانت خالدية في أوج أنوثتها، امرأة في الثلاثينات مطلقة، محرومة، مطاردة، محبوسة في البيت، وحيدة مع عجوز تنتظر الموت، وتطرز له أكفانها، فتعلمت خالدية التطريز منها وأخذت تطرز، ولا تعرف ما تطرز، ولكن أملاً صغيراً في عمق القلب كان يهمس لها أنَّ العريس قادم، وأنَّ عليها أن تطرز له ما يحب، فأخذت تطرز الستائر، وأكياس الوسائد والشراشف، بل أخذت تطرز حتى ثياب الأطفال.

كانت تحمل قطع المنضة، والتفتة، وتمضي إلى حمام القيشاني تختار الرسامين وتقترح عليهم ما تريدهم أن يرسموا، وتطورت طلباتها فلم تعد ترضى بالرسوم العادية، لم تعد ترضى بالأزهار والحمائم، والأسماك. تطورت طلباتها حتى أخذت تحلم برسمة لم تطرزها امرأة من قبل.

كانت تطرز وترمي، تطرز ما يرسمون وتكره، فليس هذا ما تريد، وفكرت. ليال كثيرة قضتها وهي تفكر، أيام كثيرة قضت وهي تفكر، تطورت الرسمة في خيالها، بدأتها حديقة، حديقة فيها أزهار أجمل من أزهارهم المرسومة، وفيها حمائم أرشق من حمائمهم التي يرسمونها، ثم كبرت الحديقة في خيالها، كبرت ونمت، وتجسدت حتى حفظت كل تفصيلاتها، الأشجار، الأعشاب، البحرة المغطاة

بالدالية، الأسماك تلعب في البحرة، أصص الزريعة من حولها، طفلان يلعبان إلى جانب البحرة ثم تمضي في التخيل، فتختار للطفلين الملامح التي تحب، واحد أشقر بشعر أجعد وعينين كبيرتين وأنف صغير منمنم، وفم كخاتم سليمان وضحكة فاترة، حيية، تكاد تسمع منه كلمة (ماما) والآخر أسمر ذو شعر أسود سبط طويل وفم كبير ضاحك مقهقه دائماً، سمين في قمباز مقلم وشال صغير حول خصره.

تحمل خيالاتها، تَصُرُّ أحلامها، وتمضي إلى حمام القيشاني تسائل الرسامين أن يرسموا لها ما تريد، ولكنهم محدودون، صحيح أنهم رسامون، ولكنهم تعلموا رسمات معينة، محددة، لا هذه الرسوم الغريبة، فمن يرسم مثل هذه الحديقة على ستارة؟! ولكنها تصر، تحمل قماشها إلى الرسام الثاني، فالثالث، فالرابع، ولكنهم مشغولون، يعتذرون، يتهربون.

وأخيراً لقيته، لقيت أبو شفتور كما سمته بينها وبين نفسها. كان أقرب إلى الطفل منه إلى الرجل، في التاسعة عشرة، نحيل حتى لتظن أنه لم يأكل منذ شهر، واسع العينين حتى لتعتقد أن وجهه كله عيون، وكانت لحيته الزغبية قد بدأت تداعب خديه وهو حريص على استدعائها، ترك الشاربين الخفيفين ينموان على شفته العليا يريد ستر نتوئها، تلك الشفة التي ذكرتها حين رأتها بطفل يمد فمه للرضاع، ثم تجمدت هذه الشفة طالبة الرضاع، تجمدت على هذا الوضع، فما زاد الشاربان على أن أكدا على هذا الشفتور.

حدثته عن هذه الحديقة التي تريدها، فهز رأسه، عرفت أنه لن يستطيع رسمها، ولكنَّ عليها أن تحاول، وجاءت في اليوم التالي، جاءت مبكرة وقبل حضور المعلم، رأته يصعد الدرج إلى الطابق الثاني حيث الدكان، رأته يحمل سطلي ماء يتمايل تحت ثقليهما ويزرب الماء منهما، فيبتل الدرج، صعدت وراءه متأنية، رأته يمشي بالسطلين في الممر الطويل المسقوف، فيبتل البلاط من الماء الزارب، فمشت وراءه، انتظرت حتى وضع السطلين أمام الدكان وقبل أن يبدأ الرش كانت قد وصلت. قالت:

ـ هل رسمت الحديقة؟

ـ قال: حاولت.

في تلك اللحظة لم تكن تريد الحديقة تماماً، بل كانت تريد أن تراه.

قالت: أرني.

أخرج من تحت طاولة الرسم قطعة المنضة، فرشها، أراها خطوطه الأولى للبحرة، للصقالة، للسمكات.

قالت: والطفلان؟

قال: سأرسمهما، ولكن لا تتعجلي، دعيني أفكر.

وتكررت الزيارات، تكررت الملاحظات، وكبرت الرسمة، نمت، أخذت تمتلئ بالأزهار، بالأشجار، بالأسماك، وبأصص الورد، ولكن الولدان...

قال: لم أستطع رسمهما، أنت تعرفين رسم الإنسان حرام.

قالت: يجب أن ترسمهما.

وحاول، ولكنهما عصيا، امتنعا، كان يحاول فيتشكلان أشوهين كان يحاول فيتشكلان رجلين صغيرين، لا. ليس هذا ما تريد، كان يحاول. ... ولكن. قالت: أريد الطفلين، حاول.

وحاول، وأخذ أبو شفتور يمتزج مع الرسمة التي تريد، ويوماً إثر يوم، وتردداً إثر آخر أخذ أبو شفتور يحل محل الرسمة، صارت تتحجج بالرسمة وتريد رؤيته هو، صار حلم الليل، صار صديق النهار، تكنس ورق الشجر اليابس، فترى شفتوره الناتئ يطلب رضاعاً لم يشبعه، تشطف الديار فتراه ذلك النحيل لم يشبع طعاماً، تنظف البحرة فتراه ذلك الوجه كله عيون، تهيء الطعام فتراه ذلك النحيل يكاد ينقصف.

ولم تعد تحتمل، فقد أخذ يكبر، أخذ يتغير من رسام مأجور إلى صديق، ومن صديق إلى حبيب، حبيب تعانقه، تدلله، تضعه في حضنها، تداعب شفته الناتئة، تشبعه الحليب الذي لم يشبعه رضيعاً، وكانت تكتم مافي قلبها، فإلى من تبوح بحبها لأبو شفتور؟ لأمها؟ تلك التي توقفت منذ زمن طويل عن الدعاء لها بالزواج يسترها، فلقد رفست النعمة مرتين، إلى الصديقات؟ وما أقلهن للمطلقة! لحمدان

الذي لا تكاد تراه حتى يمد يده فتقبلها، ليبدأ بالنصائح، النصائح التي تحض النساء على القرار في بيوتهن. حصنهن الأبدي، حصن الشرف والعائلة والسمعة الطيبة؟ ويكاد يصرح لولا خجل قليل بأن خروجها إلى سوق الحميدية وحمام القيشاني قد زاد عن عما تفعله المرأة الصالحة، المرأة المحترمة، بنت العائلة.

لكنها يجب أن تفتح قلبها لأحد ما، يجب.... واستعرضتهن جميعاً ولكنهن لم يكن يصلحن لحمل سر كهذا، نفيسة خانم زوجة الشخشرلي، وأم محمود ضرغام، وأم نديم أفندي، آه ياربي كلهن زوجات وأمهات محترمات، مالهن وللحب والعشق والكلام الفارغ، وحب من؟ أبو شفتور... استعرضتهن جميعاً وأخذت تطردهن من ذاكرتها واحدة إثر الأخرى، تستعرضهن وتتنازل في شروط صداقتها وأخيراً تذكرتها، مريم، رفيقة الحارة، مريم التي حين كبرتا تغير بهما الزمان، فزوجة حسني بك أبو جبة لايمكن أن تصاحب مريم زوجة عبد الله الفوال، ولكنهما كانتا تلتقيان أحياناً، تلتقيان فتسلمان، وتقبلان، ولكن كل واحدة منهما تعرف مركزها الجديد وتحافظ عليه، وحتى حين أصبحت خالدية مطلقة إلا أنها ظلت خالدية خانم الجوقدار التي تعيش من إيراد بيتين ودكان وحصة في بستان كفرسوسة.

ذكرتها، ورأت أنها لا يمكن أن تفتح قلبها أمام واحدة أخرى، امرأة كمريم فقط يمكن أن تفتح قلبها أمامها، طرقت عليها الباب، وقالت:

- مريم. أريد أن أذهب إلى المدينة أترافقينني.

نظرت إليها مريم، ولم تصدق، خالدية خانم تأتي إليها لترجو مصاحبتها إلى المدينة!. نظرت إليها مريم، فرأت وجهها تحت البودرة والحمرة والكحلة مرهقاً، وكان يمكن لها أن تعرف بسهولة أنها لم تنم ليلتها السابقة، فقد كان في صوتها إرهاق يمكن أن يلمس باليد. دعتها إلى الدخول، ولكنها رفضت قالت:

- يجب أن أمضي إلى المدينة. تعالي معي من شان الله.

لم تصدق مريم أذنيها، خالدية خانم تتوسل إليها، خالدية خانم الجوقدار!خالدية خانم التي طلقت لعجرفتها رجلين ترجو صحبتها، وتقول من شان الله، عرضت عليها الدخول، فدخلت حتى الديار.

قالت: سأنتظرك هنا.

أرادت أن تقودها إلى غرفة الضيوف، ولكنها رفضت. قالت: مستعجلة.

ـ ولكن الوقت مبكر، والمدينة لم تفتح بعد.

ـ ما عليك. ستكون قد فتحت.

وحارت مريم كيف تتصرف، هي لا تستطيع المضي معها دون استئذان زوجها، ثم هناك وداد فأين تضعها؟ ولكن خالدية تهز قدمها في عصبية إلى جانب البحرة، لابد أن هناك ما يضنيها، قالت:

ـ طيب. سألبس.

غيرت ثوبها بسرعة، لفت الملاءة، شدت المنديل، حملت وداد واتجهت إلى الباب:

ـ إلى أين؟

ـ سأودعها عند أم نديم، ثم سأمر على عبد الله، يجب أن أستأذنه.

لم تطل الغياب، فقد أودعت وداد عند الجارة لتجدها في مكانها عند البحرة تهز قدمها في عصبية، خرجتا، كانت خالدية صامتة صمتاً جعل مريم تصمت، وهي التي لاتحتمل الصمت لدقيقتين. خرجتا من التعديل قالت:

ـ سأسبقك لأتحدث إليه.

ـ طيب سأنتظرك عند النهر.

ورأتها تشق طريقها عبر الزبائن، رأتها تتحدث إليه، رأت تعبير الدهشة على وجهه، رأته ينظر إليها بتلك العينين المكحولتين فأغضت، رأته يهز رأسه في عجلة، ثم يكمل دق الحمص بالمدقة، ورأت مريم تنسحب عائدة إليها:

ـ هيا بنا، قال: يجب أن لا نتأخر.

ـ لن نتأخر.

شقتا طريقهما عبر باب الجابية إلى سوق مدحت باشا، كانت بعض الدكاكين مغلقة، فالوقت مايزال مبكراً، ولكن مريم رأت بعض العقادين والعبجية، وقد فتحوا دكاكينهم، ونظفوا ما أمامهم، ونشروا بضائعهم، كانت تراقب ما حولها مندهشة تحاول منع نفسها من الخوف، فما الذي جاء بها في هذا الوقت المبكر مع خالدية خانم؟ ماالذي أغراها بصحبتها؟ حين سمعتها تطلب مصاحبتها إلى المدينة حسبت أنها ستمضي إلى سوق الحميدية، وهناك ستأكلان صحني بوظة على الأقل عند بكداش، أما سوق مدحت باشا، هه؟!

انعطفتا إلى سوق الخياطين، فأخذت مريم تتأمل الأقمشة المعلقة، والعربات الصغيرة المحملة بالثياب الخفيفة، والعقادين، العقادين أف، ما أكثرهم! ورأت بعضهم يضع اللمسات الأخيرة على القصب المطرز على العباءات بعد أن أنهتها الشغالات في البيوت.

وصلتا إلى جامع النورية،فأحست مريم بالعطش، وكانت من النوع الذي يتعرق كثيراً لدى أي جهد، ويشرب كثيراً لدى أي عطش، كانت امرأة سمينة اشتد بياضها بسمنتها، واشتدت سمنتها بحبسها في البيت وتهدل جسدها لكثرة من أنجبت ومات.

مدت يدها عبر الشبك الحديدي، فملأت الطاس النحاسي، عرضت على خالدية الطاس، فرفضت شاكرة، شربت ثم ملأته ثانية، فشربت ثم أعادته إلى مكانه، ووقفت تقرأ الفاتحة للسلطان نور الدين، نظرت إلى خالدية خانم، ولكنها لم تكن تقرأ الفاتحة، بل كانت تتجه بنظرها إلى سوق الحرير تنظر متلهفة، ترى ما الذي يتأكلها فيعجلها؟

لم تكن خالدية تنظر إلى مريم، ولكنها كانت كلها أعصاباً متوفزة تراقبها، فما إن مسحت على وجهها بعد قراءة الفاتحة حتى تحركت إلى الأمام، فلحقتها، وحين خطتا الخطوات الأولى في اتجاه سوق الحرير فهمت مريم فجأة هذه اللهفة، هاه لابد أنها ذاهبة إلى حمام القيشاني. إذن لابد أن لها رسمة هناك تريد الاطمئنان عليها، وتذكرت ولعها وأمها بالتطريز، تذكرت ما يحكى في الحارة عن أكوام المنضة و التفتة والموسلين المطرز، وتساءلت: ترى لم

الحماس، ولديهما كل هذه الشراشف، وأكياس الوسائد والمفارش والستائر؟! ولم تجرؤ على إعلان السؤال، فمشت إلى جانبها. تجاوزتا مدرسة القلبقجية، وتوقفت خالدية فجأة، أمسكت بذراعها بقوة أوجعتها، فالتفتت إليها حائرة. أتراها داخت؟! لكنها اكتشفت أنها كانت تنظر إلى شاب، شاب عادي يلبس قمبازاً من الديما، وقد تمنطق بشال من الأطلس الفقير، لا يلفت النظر، يحمل سطلين مملوءين بالماء، وقد خرج من القلبقجية بهما متجهاً إلى حمام القيشاني.

أحست مريم فجأة أن هناك شيئاً يعنيها في هذا الشاب، ولكن ماذا يمكن أن يعنيها بهذا الولد المسكين يحمل سطلين من الماء يمضي بهما إلى معلمه؟

همست: أرأيته؟

فسألتها في تجاهل: من؟

ـ عبده، ألم تريه؟

فهزت رأسها لا تجرؤ على الإجابة، وعندئذ فهمت مريم تقريباً سبب حيرة المسكينة، ومجيئها إليها، وتوسلها لاصطحابها إلى المدينة وصمتها الداكن، فخافت. خافت عواقب هذه المغامرة ككل، أمسكتها من ذراعها:

ـ تعالي نرجع إلى البيت!

فشهقت في دهشة: البيت؟ والمشوار الذي قطعناه كله. للاشيء؟

ـ فماذا تريدين؟

ـ أريد أن أرى الرسمة التي طلبتها منه.

ـ أهو رسام؟

ـ نعم.

هزت مريم رأسها، ولحقتا به يتمايل تحت ثقل السطلين تنسكب قطرات منهما، فتبل الأرض المتربة، أو توسخ البلاطية حتى غاب وراء باب كبير، فحرنت مريم، ولكن خالدية ألحت: تعالي.

ـ ولكن إلي أين؟

ـ حمام القيشاني، ألا تعرفينه؟

ولم تعرفه من قبل، ولماذا تعرفه، وهي لا تطرز، ولا تدندش، ولا تعرف الرسامين والطرازين، وستائر بيتها بيض دون تطريز؟! تبعتها مستسلمة وإن خالط استسلامها الخوف، فما هذه المغامرة تقاد إليها؟ وماذا لو علم عبد الله، سيقطع رقبتها، وهذا أقل ما سيفعل؟ يا إلهي! أي مأزق سقت نفسي إليه؟

تبعتها، ورأته مرة أخرى، وقد اجتاز الباحة، ثم عبر إلى اليمين ليصعد تاركاً من ورائه قطرات الماء تحيل التراب على الدرج طيناً يجب أن تحذره الواحدة فلا تنزلق.

لم تكن المسافة بينهما كبيرة لأنه ما أن وضع السطل أمام الدكان ليبدأ الرش حتى وصلتا، فتركه جانباً، وعرف خالدية بسرعة لأنه قال في لهفة مؤدبة:

ـ أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً، شرفوا.

دخلتا الدكان حيث كان هناك ديوان صغير مغطى بالأطلس، وكانت هناك طاولة جلس وراءها وقال: تفضلوا، تفضلوا وأشار إلى الديوان، ولكن خالدية ظلت جامدة، كانت تتأمله فقط، فغمزتها مريم في جنبها، فانتبهت: أه، آه صحيح.

جلست على الديوان ولدهشة مريم الصارخة رأتها ترفع المنديل تكشف عن وجهها، وأحست مريم بالخجل حتى تمنت لو أن الأرض تنشق، فتبتلعها، فكيف تجرؤ؟ ولكنها لم تبال، ورأته يرفع رأسه فيرى وجهها المكشوف، فلا يندهش، وأدركت أنه اعتاد ذلك منها.

أخرج من تحت الطاولة قطعة منضة كبيرة، نشرها فرأت مريم رسوماً بالقلم الرصاص، رسوماً كثيرة، ليست رسوم تطريز، بل كانت رسوماً تغطي القماش كله، رأت حمائم، ورأت بحرة، ورأت أسماكاً ورأت أصص زهر، ودالية معرشة، رسوماً كانت جميلة وغريبة فعلاً، قالت: أستطرزين كل هذا؟

لم تجب، بل قالت للشاب: والولدين؟

ـ تعجلت المجيء، كنت أرغب في التفرغ لهما اليوم.

ـ هل سترسمهما؟

ـ لاشيء لايمكن رسمه، ولكن أنت تعرفين، هذا رسم لم نعتد رسمه علينا أن نتعلمه.

ـ طيب، فارسمهما الآن، حاول.

وسأل في ضيق قليل: الآن؟

ـ نعم. نعم. الله يخليك.

أمسك بالقلم، وجمع قطعة المنضدة جانباً، ثم أخرج ورقة، فخط عليها بسرعة البحرة، وأخذ يحاول رسم الولدين، استغرق مريم المشهد بمجمله، فما معنى كل هذه الرسوم؟ يا إلهي كل هذه الرسوم على ستارة واحدة؟ ولماذا؟ والولدين. من يرسم ولدين على ستارة؟!

التفت خالدية إليها وقالت فجأة بصوت مسموع، أترين إلى هاتين اليدين ماأبرعهما! الله يخليه لشبابه.

كان صوتها مسموعاً، مسموعاً تماماً يا إلهي! إنها تغازله، وأحست مريم بالورطة، فما الذي جاء بها؟ مالذي أغراها بصحبتها؟ لو علم عبد الله، لو علم بأنها كشفت وجهها أمامه سيذبحها. سيذبحها.

ورأتها تنظر إليها في لهفة، ترجوها الإجابة على سؤالها، فأحرجت، واضطرت إلى الهمهمة الموافقة، وأخذت تجول بعينيها في الدكان، في الممر المغطى، في الممشى المبلط لم يكنس بعد، في الضجيج الخافت تحت، وتمنت لو تهرب فجأة، لو تهرب من كل هذا المأزق، وسمعتها تتشجع بعد نحنحتين خافتتين، فتسأل:

ـ وكيف هي الوالدة يا سيد عبده؟

ـ والله ضعيفة.

ـ إه الله يعافيها، ليتني أعرف البيت لزرتها.

ماذا، همست مريم لنفسها، أوصل الأمر إلى تمني الزيارة.

ـ لا. لا داعي لتعبك ستشفى في يومين إن شاء الله.

فقالت خالدية في حرارة: إن شاء الله، إن شاء الله.

وصعقت مريم، صعقت تماماً، فقد توقعت كل شيء إلا أن تكتشف هذا الوجه لخالدية خانم، خالدية المتكبرة لم يروض كبرياءها أحد تلين، وتتعطف أمام هذا الصبي المسكين، ولكن خالدية كما يبدو كانت قد قررت ألا تتوقف، فأكملت:

ـ وأنت. كيف تدبر أمورك؟

رفع رأسه إليها: كيف؟

كان سؤاله محرجاً، فيه بعض البرود، ولكنها لم تلحظ شيئاً لأنها اهتمت بتفسير سؤالها:

ـ أعني طعامك، غسيلك، نومك.

ـ هاه، يعين الله، بعضه تقوم به هي، وبعضه أقوم به أنا.

ـ يا عيني عليك يا مسكين لاتزال في أول عمرك، وتعاني كل هذا التعب؟

ـ يا ستي. هذه هي الحياة يوم عسل ويوم بصل.

ـ وما لقيت بنت الحلال تحمل عنك كتفاً بعد.؟

نظرت إليها مريم تكاد تتوسل إليها أن توقف هذا الحوار المخيف، ولكن يبدو أنها قررت أن تمضي فيه حتى النهاية لأنه حين أجابها: الدنيا نصيب.

انقضت فجأة بالسؤال الذي كانت تعد نفسها له:

ـ طيب وماذا تقول فيمن يجد لك بنت الحلال؟

شهقت مريم، فما الذي جرى للمسكينة، إنها تعرض نفسها عليه؟ أهناك من يصدق شيئاً كهذا؟ أهناك من يصدق هذا؟ خالدية خانم تعرض نفسها على أجير رسام، يد من وراء ويد من قدام، ولكن الصبي كان أمكر من أن يقع بسهولة كما لاحظت مريم، فقد قال:

ـ يا ستي الله يعينني. أنا ما أزال صانعاً، ولم أوفر مهري، وأمي عجوز تحتاج إلى معيل، فكيف أتزوج؟

وألقت خالدية أخيراً بقنبلتها: هناك نساء لا يطلبن الكثير.

ورأته مريم يرفع رأسه يحدق إليها مباشرة كأنه يتساءل: ماذاتعني بالضبط؟ وأحست مريم بقلبها يغوص وبالعرق يكدها، ورأت تصميم خالدية في وجهها المتحدي الذي اضطر الفتى إلى الانكسار والانحناء على ورقة رسمه، وقال في سخرية خفيفة: أين هؤلاء اللواتي لا يطلبن الكثير؟ هذا ما نسمعه في الحكايات فقط!

وأصرت خالدية على ألا يكون لجرأتها حد، فقالت: أنت اعزم، ولدي ما تريد. وهمست مريم: يا إلهي لقد قالتها أخيراً، وفهم، وفهمت، وفهمت ولكنها لم تحرك ناظريها عنه. كانت تنقل إليه الرسالة كاملة.

بعد سنوات، وكانت خالدية قد توفيت، وحسيبة قد نجت من ورطة مشابهة مع فياض، بعد سنوات وكان عبد الله قد قتل، فاضطرت مريم للعمل في مئة عمل وعمل لتعيل نفسها ووداد، وكانت جالسة مع حسيبة في الباحة وأمام البحرة نفسها، وكانت ماكينة الجوارب تدوي في المربع الكبير حيث كانت زينب تشغل نفسها، وكان صوت الدودو يعكر عليهما حديثهما. قالت مريم تصف تلك المغامرة: وحتى الآن لا أعرف يا أم عمر كيف لملمت نفسي، وأجبرتها على ترك الصبي لنرجع؟!.....................................

ورجعنا ولكنها كانت قد تغيرت تماماً، فرحلة الإياب لم تكن كرحلة الذهاب، كانت تتنطط على الأرض تنططاً. تتنطط كبنت الخامسة عشرة، قالت: نرجع من سوق الحميدية، ولم أجد ما يمنع، فرجعنا من سوق الحميدية وهناك في الداخل لدى محل بكداش في قسم العائلات وكان الوقت مبكراً فلم يكن فيه سوانا، وليتك ترين السعادة على وجهها، الجنون، قالت: ما رأيك؟ ولم أعرف فيم أبدي رأيي، فأكملت: أليس لطيفاً من شان الله. ألا يحب؟ وحاولت أن أحذرها مغبة السير في هذه الطريق إلى النهاية، ولكنها لم تستجب، بل أخذت تتغزل فيه، تصف رقته، نعومته، حياءه، عينيه الواسعتين، يديه الرشيقتين، قالت: أرأيت إلى أصابعه، أصابع طفل تستحقان التقبيل، والعض آه يا مريم.

وصمتت مريم قليلاً: آخ يا أم عمر حب الكبر مذل ـ تريثت قليلاً ثم أكملت كمن يصوغ حكمة العمر: جهل الكبر للرجال يشرشح، و للنسوان يفضح!

وسألتها حسيبة: ماذا تعنين؟

وتذكرت حسيبة كلمة خالدية حين استحضرتها من قبرها الزهري، فبكت أمامها، ووصفت لها العذاب، الأرق، الجنون، الذي أصابتها به عينا فياض الخضراوان، فقالت:لا يا حسيبة، إياك. الحب إن لم يكن متعادلاً يصبح مهيناً، وغصت قليلاً، ثم أحنت رأسها فوق البحرة، وقالت: أتعرفين ما الحب؟. الحب كلبين علقانين ببعض، بيركضوا في الحارات، علقانين، ما بيخلصهم إلا ضرب العصا وسطل المي....مساكين بس بعدما يخلصوهم من بعض، بيعرفوا قديش كانوا حمير وقديش الحب بيشرشح وبيضيع القيمة.

هذه الجملة التي لو نسيت حسيبة وجه خالدية المدوَّر، وعينيها الواسعتي السواد، وحاجبيها المنتوفين تماماً، والمعاد تخطيطهما بالقلم، ونسيت رائحة الياسمين الفائحة منها أبداً، فلن تنسى جملتها هذه التي لخصت حزن تجربتها مع عبده!

وكانت حسيبة كلما حملت ثوباً لفياض لتضمه إلى الغسيل أمام سعدية،وتشممته في شهوة تذكرت جملتها فرمته في الطبق في ذعر، وكانت كلما شربت من كأس شرب فياض بعضها لتشم ريحه منه وتذكرت جملة خالدية الحزينة تلك، فوضعته من يدها مرعوبة من منظر الكلبين العالقين، وكانت كلما أرَّقها الحزن والوحدة والليل الطويل، فقذفها إلى الديار تجول حافية القدمين كالمجنونة تسمع خوارهما واهتزاز السرير الخشبي من تحتهما، فتثور شياطينها الجبلية وتتمنى لو تعض، وتمزق، وتخور كما يخوران، فتذكر جملة خالدية، وتسرع إلى البحرة لتغسل وجهها، ثم لاتكتفي، فتغرق رأسها وذراعيها تتبرد ناسية شيخ البحرة وإخواننا بسم الله الرحمن الرحيم، ولا يوقفها عن الجنون إلا منظر الكلبين العالقين ببعضهما يعدوان في الحارات ملاحقين بضحكات الأطفال، وغمزات النسوان، وتظاهر الكهول الفانين بالورع وإدارة وجوههم يتمتمون: الله يلعنكم ويخزيكم.

وسمعت مريم تقول: إه الله يرحمها ويعفو عنها.

بهذه المغامرة التي أقدمت عليها خالدية حين تحدت قيم معاصريها كلهم كانت تظن أنها ستنتقم من كل الرجال الذين ظلموها، حسني بك أبو جبة، وشكري بك التحصلدار، والشيخ حمدان الجوقدار، من كل أولئك الرجال الذين كانوا يشرِّعون لها ولهم، فيختارون لأنفسهم ما يناسبهم، ويختارون لها ما... يناسبهم أيضاً، كانت تفكر: ما الخطأ في حبي لعبده؟ أفلم يتزوج حسني بك عروساً تصغره بثلاثين عاماً؟، أفلم يتزوج شكري بك عشر مرات وحمدان خمس مرات؟ وكلهم، كل من تعرفهم تزوج، وتزوج وتزوج، فلم يحرم عليها ما يحل لهم.؟ كانت قد نشأت بعيدة عن حمدان وتأثيراته الدينية، وكان لأمها التي أبلت ستة رجال قبل أن تقرر التقاعد عن الزواج تأثير يفوق تأثير حمدان الجوقدار بكثير، وحتى حينما حولت أم خالدية غرفتها إلى دكان عطارة، وحتى حين كانت خالدية تضطر إلى سد أنفها مبتعدة عن غرفة أمها حتى لاتديخها روائح الكافور والعنبر الفائحة أبداً من غرفتها فتكثر من زيت الياسمين تحارب به الكافور والآس، ولكنها ما إن يأتي الليل، ويهاجمها الكافور برائحته الباردة المخرشة، والآس برائحته الزيتية المتسللة حتى تسرع إلى قناني الياسمين، فتسكبها، ذلك الياسمين الموحي بالرقة والحب وشهوة الحياة، ولكنها حين كانت تغرق الروائح بالروائح ماكانت تشعر بأنها تحارب الموت المفروض عليها من الجميع بعطر الحياة الشبق المنادي دائماً لأنها كانت تحس جزءاً صغيراً منها يقول:إن كل هذه العطور الميتة الباردة التي تغلف أمها نفسها بها ما كانت إلا دعوة جسدية متأخرة من تلك الأم التي أبلت ستة رجال، وأرقت ستين، وكانت خالدية حين ترى أكوام الأكفان المطرزة المتراكمة أمام أمها تتحسسها بلذة، بلذة جسدية حسية يرعشها ملمس الموسلين الناعم وقد اخترقته بحرات الحرير الأزرق الموشحة بروائح الكافور والآس والحنوط التي لم تكن دائماً روائح الموت، عندئذ فقط كانت تشعر أن أمها تحاول استبدال لذة بلذة، وجسد بجسد، وحياة بحياة.

وورثت خالدية عنها ذلك التوق الحيوي العنيف، وتلك الكبرياء الحادة،، وذلك الإحساس المبالغ فيه بقيمة الذات، هذه الكبرياء وذلك الإحساس المبالغ فيه ساقاها إلى تحدي الجميع فقررت كسر كل

القيود والزواج من عبده، وقالت مريم: المسكينة صارت حكاية، خالدية خانم بنت العز صاحبة البيوت والأراضي والوقف. خالدية خانم التي طلقت رجلين، ظفر الواحد منهما بمئة من هذا الولد الممصوص تفاجئ الجميع بزواجها منه، واصطحابها له إلى البيت!

ـ وكيف عرف أهل الحارة بالأمر.

ـ كيف؟ من شجار خالدية وأمها، من وصول صوتهما إلى السماء، من غضبها عليها وعلى ساعة عرفتها.

ـ أكان الشجار عادة لهما!!؟

ـ أبداً، فما سمع لهما صوت من قبل أبداً، ولكن الأم على حق، فكيف لها أن تصبر على إدخال مثل هذا الصوص الممصوص إلى بيتها وزوجاً لخالدية؟!

ـ وبعد!

ـ عرف حسني بك أبو جبه، وجن جنونه: تطلقني أنا لتتزوج من هذا الجرو، وسعى حتى دبر له مقلباً، فقبضت عليه الشرطة، وضربوه فلقة قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.

ـ وطلقها؟

ـ لم يرض، فطردوه من الحارة، وهددوه بالقتل لو عاد.

ـ وهي؟

ـ انتظرت عودته، فلم يعد، فسعت حتى عرفت بما جرى، وعرفت بتهديدهم فحملت حليها وكل ما تملك، ومضت إليه!

ـ إليه، وهل كان لديه بيت؟

ـ غرفتان حقيرتان في حي قبر عاتكة من بيت مشترك بينه وبين أولاد عمه كان يعيش فيهما مع أمه.

ـ وتركت بيت العز لتعيش معه هناك؟

ـ نعم، وليته كافأها على تضحياتها.

ـ لم يكافئها.

ـ آه يا أم عمر! أنت تعرفين كل شيء يحرز ثمنه، وما يأتيك بالمجان فلن تهتمي بالحفاظ عليه.

وهزت حسيبة رأسها في حزن: فهو لم يحافظ عليها إذن؟

ـ بل نهبها، أخذ مصاغها وجعلها تبيع حصتها في بستان كفرسوسة.

ـ لا.

ـ وليته اكتفى بهذا؟

أحس عبده بعد أن انتقل بها إلى بيته في قبر عاتكة أنه مخدوع فالكل من حوله يفهمه أنه مخدوع، فمن يتزوج بامرأة في عمر أمه؟ ورغم أنها لم تكن في عمر أمه، فلم يكن ما بينهما يزيد عن عشرة أعوام إلا أنها في عرف أولئك الحيسوبين صفقة خاسرة، قالها له ابن عمه وقد خلا به بعد يومين من انتقالهما إلى قبر عاتكة.

ـ عشر سنوات أخرى وتصبح عجوزاً رمة،وأنت تصبح في عز شبابك، أفستقضيه مع هذه العجوز؟!

وأراد أن يحتج، ولكن الآخر أكمل: النساء الكبيرات يمصصن الشاب مصاً، صدقني ستسحب شبابك منك، وبعد عشر سنوات ستكتشف أنك صرت أكبر منها.

ودقت أمه على صدرها حزينة، فهو الوحيد الذي كانت ترجو أن تفرح كهولتها وشيخوختها بأطفاله لا يختار من نساء الأرض كلهن إلا هذه المطلقة العجوز، وكانت كل امرأة تجاوزت العشرين في حسابهم عجوزاً. وعاتبه معلماً ساخراً: ترى كيف يخرجونك من فراشها صباحاً؟ بملقط؟ وأحس عبده أنه مخدوع، صحيح أن الحنان الذي سفحته أمامه جعله يحس بقيمته للمرة الأولى في حياته، ولكنه... مخدوع. صحيح أن خزين عواطف قلبها جعله يشعر أنه أكبر من سلطان، ولكنه... مخدوع، صحيح أن جنان الحب التي حملته إليها لن يدخلها إلا كل من ولد في برج سعد إلا أنه مخدوع...

وتراكم لديه الحس بالخديعة، وفي مدن الواحات تلك، مدن الدكنجية والحيسوبين لا يسمح للإنسان أن يكون مخدوعاً إذ أن

معرفة الآخرين بأنه خدع تسلبه جزءاً كبيراً من سمعته ومن شرفه. لذلك كان على عبده أن يسترد شرفه، فيرد على الخديعة بالخديعة، كان عليه أن يحصل على تعويض عن الخديعة التي وقعت عليه... فأخذ يحاورها، ويداورها، حتى جعلها تشتري له دكاناً في حمام القيشاني.

بعد سنوات كانت حسيبة قد فتحت دكان حمدان الذي ظل مهجوراً بعد وفاة حمدان، فتحته لفياض لتعيد الحياة إلى بيت الجوقدار.

فقالت لها مريم بعد طول تنحنح، فقد كانت تعرف أنها ستتجاوز حدها، ولكن طول الصحبة جعلها تقول: آه يا أم عمر النسوان مسكينات مهما ظنن أن عقلهن كبير! أعطيته الدكان تريدين رفع رأس ابنتك ولكن... ستكتشفين ألا فائدة، الرجل نمرود، وما لا يحصل عليه بذراعه فلن يحترمه، ولم تفهم حسيبة ما عنته مريم تماماً، ولكنهاحين استجابت، فقصت على حسيبة تفاصيل القصة بتفصيلاتها ونبشت لها جراح خالدية السرية، قاربت الفهم، قالت مريم: وفتح الدكان الجديد واستقبل الزبائن، ولبس الألاجا، والشال الكشمير، وامتلأ جسمه لحماً، واسود شارباه، وضيق الشحم واللحم عينيه...

(8)

ذلك الملاك الرقيق يكاد ينقصف، والذي فتن خالدية بضعفه حتى اختفى ليحل محله نسخة جديدة من أولئك الدكنجية الراضين عن النفس، الحذرين من تقلبات الزمان، وأقبل عليه الزبائن، فأفكاره في الرسم طريفة، وماكان يستمدها إلا من خيالات خالدية المتوهجة، ونجح، نجح حتى اشترى دكاناً آخر، واكترى أجراء ينفذون له الأفكار التي تراها خالدية في أحلامها، فتصفها له، وبدأت ترفد رسوم حمام القيشاني أشكال جديدة، أشكال لم تكن تخطر على بال

الرسامين الذين لم يضيفوا إلى رسومهم وأفكارهم لمسة واحدة منذ أن نزل آخر نقاش عن جدار الجامع الأموي بعد أن رصف آخر قطعة فسيفساء في تلك الجنان الشامية المعلقة على جدرانه، وبدأت ترفد رسوم حمام القيشاني رسوم لتنانين أليفة، وقطط متكورة على نفسها في دلال، وأطفال سمان يلعبون إلى جانب البحرة، ورفوف من ستاتي تحمل طفلاً إلى السماء وسناجيب ترضع الأطفال المعلقين على الشجر.

وتصارعت النساء على عبده، تركن الرسامين الآخرين وتحلقن من حوله حتى صارت زياراته بموعد، وقبول القماش للرسم بجدول يحجز لشهرين، ولم يعد الدكانان كافيين فاكترى ثالثاً، وكثر المال، كثر حتى أحس أنه صار من الأكابر، وعندئذ فقط أخذ يصغي إلى وسوسات أولئك الذين أقنعوه أنه مخدوع بزواجه من خالدية. عندئذ اكتشف أن أولاد الأكابر في مدن الواحات لايتزوجون ممن يكبرنهم، بل يفضلون دائماً الصبايا الصغيرات، الرمان لم يقطف، والتفاح لم يزهر.. وما إن شم ريح آباطه حتى اشترى بيتاً جديداً لم تعرف خالدية عنه شيئاً، ثم لم يكتف بهذا، بل تزوج من ابنة معلمه السابق، تلك الفتاة التي رآها مرة حين ذهب إلى بيت معلمه ليأتي بسفرطاس الغداء، ولم تكن قد بلغت النساء بعد، رآها في ثياب البيت، ورأى شعرها الأشعث فلم تلفت انتباهه، ولكن حين جاد الزمان، وصار عبده صاحب الدكاكين الثلاثة في حمام القيشاني أرسل إليه معلمه السابق بابنته في ثياب زبونة، فلما رآها حين كشفت وجهها أمامه عرفها، وأدرك كم أضاع من عمره، فهمس في حرقة: سبحان مقلب القلوب، رآها فعرف الخديعة التي وقع فيها حين تزوج من خالدية، فأسرع يخطبها ويحملها إلى البيت الجديد الذي اشتراه في سيدي عامود، وأنَّت حسيبة: مسكينة يا خالدية لم أكن أعرف أنها كانت تحمل كل تلك الأحزان.

كانت تراها تمزح وتضحك، وتدلها على طرقات الحياة في متاهات المدن العتيقة، المدن التي لا شوارع لها فوق الأرض، المدن التي تشع طرقاتها السرية الغارقة تحت قرون الغبار والتراب والحرائق والأحزان، تشع، فتفتح لنفسها طرقاً على المرء أن يعرفها

بأفضل مما يعرف الطرق التي تشقها الحكومة، وتضع لها أسماء تدقها على الجدران.

وقالت حسيبة: ولكن كيف فعلت حين علمت، لاشك أنها علمت؟

ـ تصرفت كما يجب، وكما يتوقع منها، فعلت ككل النساء الكهلات المهجورات، لاحقته بالشجار، ففر إلى الجديدة، توسلت إليه فتدلل، عرضت نفسها عليها، فأمعن في شوفة الحال.

ـ المسكينة، كم في قلب الإنسان من جراح لا تدرك.

ـ ولم يكن للأمر أن يستمر على النحو، بيت صغير نظيف مريح، وعروس شابة واثقة من نفسها، وبيت عتيق مهمل، فيه امرأة نواحة شكاءة تتشاجر كل يوم معه ومع أمه في ذلك البيت العتيق في قبر عاتكة. وفجأة سألت حسيبة، وكان يجب أن تسأل:

ـ ولكن أنت. كيف وصلت إلى كل هذا؟

بدأت الإشاعات تتسرب، وأنت تعرفين... المدينة صغيرة، وأقنية النساء السرية سرعان ماتحمل أبعد الأسرار وأخفى المعلومات. سمعت بحظها السيء، فشكَّني قلبي، سمعت بقدرها الأسود، فخفت على وداد وغلبني الفضول والشفقة، فاغتنمت فرصة يوم الحمام، فلم أذهب إلى حمام عز الدين القريب، بل أكملت طريقي إلى حمام التيروزي، وهناك وضعت البقجة، وأودعت وداد عند الريسة، ومضيت أسال عن بيتها... وصمتت مريم، صمتت حتى اضطرت حسيبة إلى حثها على المتابعة:

ـ ليتني لم أزرها يا أم عمر، ليتني لم أفعل.

ـ لماذا!

ـ البيت، الوساخة، الديار الموحلة، المجاري الفائضة، روائح الزبالة.

ـ وهي؟

ـ هي كانت في غرفتها مستلقية على ديوان قديم، تلبس ثوباً زهرياً مكشوف الذراعين، واسع فتحة الصدر حتى ليكاد ثدياها يندلقان منه، منتوفة الآباط فقد كانت توسد رأسها ذراعاها.

ـ هه.

ـ وكانت رائحة الياسمين، رائحتها الحلوة التي تعرفينها عنها مقززة في اختلاطها مع الحموضة ورائحة المجاري المتسللة من الديار، ورائحة المجدرة والباذنجان المقلي العائمة في الحارة.

ـ يا حرام وكيف استقبلتك؟

ـ التفتت إليَّ. نظرت غير مصدقة، وهتفت: مريم، واستقبلتها بين ذراعيَّ أعانقها، فأخذت تبكي بين ذراعي بصوت عال، كانت تهتز على كتفي بلحمها الرجراج، أيه الله يرحمها ويحسن إليها، لست أدري يا أم عمر لماذا أحسست في تلك اللحظة وأنا أعانقها كأني أعانق واحدة من بنات الخطا في حارة البدوي و...أحسست ساعتها ريحاً خفيفة من شماتة تتسرب إلي؟!

ـ أعوذ بالله. ماهذا الحكي، خافي الله يا امرأة.

ـ سألتني وجاوبتك، هذا ما أحسست به لحظتها، ولكنها لكثرة ما بكت وتنهدت بين ذراعي جعلت الشماتة تختفي والشفقة تعود إليَّ. فنحن بعد كل حساب نساء ضعيفات، ناقصات عقل ودين.

واعترضت حسيبة: لا. لا يا مريم لاتقولي هذا، خالدية خانم امرأة مسكينة حاولت أن تستجيب لنداء قلبها، ولكن الزمان عاطل.

وهزت مريم رأسها في لوم: وهل يطيع قلبه إلا مجنون؟

وصمتت حسيبة، صمتت تفكر، وتردد هذه الجملة لسنين...

صحيح. هل يطيع قلبه إلا مجنون؟

لم يكن أمام حمدان الجوقدار حين علم بما وصلت إليه الأمور إلا أن يتدخل، وكان يتمنى ألا يتدخل فهي قد تحدته، وأرادت شق طريقها بيدها، ولكن الرجال الآخرين سيتكلمون، وسيصمونه بالنذالة، وستكون خسارته أكبر مما يكلفه التدخل، فمضى إليها، مضى بنفسه وصالحها، وأعادها إلى الحارة، أخلى بيتها الصغير المجاور لبيته من المستأجرين، وأسكنها فيه وقال:

ـ لا تهتمي. هذا بيتك، وأنا أخوك، فإن لم تشبعك كتفي اليمنى فهذه كتفي اليسرى أمامك.

وشكرته، شكرته باكية، شكرته كسيرة، فما أصعب عودة الشاة الضالة مهزومة خسرت كل شيء لتواجه نظرات الشماتة والإدانة، بل وحتى الغفران!

منذ ذلك اليوم الذي أغلقت فيه باب بيتها الصغير، البيت المكون من مطبخ ومرحاض إلى يمين الدهليز، وباحة صغيرة. فيها بحرة صغيرة تؤدي إلى المربع الأساسي غرفة معيشتها ونومها، والدرج الخشبي الموصل إلى المشرقة الموصولة بممشى صغير إلى الفرنكة الصغيرة أدركت خالدية أنها النهاية. تنهدت خالدية حين دخلت البيت، تنهدت في حزن على ماصارت عليه منذ غادرت بيت أمها، وتركتها تموت وحيدة دون أن تلف بالأكفان الحريرية المطرزة التي قضت العمر في تطريزها، تنهدت حين رأت ضآلة البيت، رغم إدراكها بأنه يفضل بيت قبر عاتكة بمرات، فالحارة غير الحارة، والجوار غير الجوار، والروائح غير الروائح، ولكن.... وودت لو تصرخ في لوعة:

ـ أين السكان؟! وقرصت نفسها في حقد، قرصت فخذها حتى احترقت بالألم، فلا يجب الحنين، لا يجب، فمن رماك فارميه. ارميه بعيداً كحذاء قديم...آه كحذاء قديم!!

وحتى لا تفكر بعبده ثانية ذلك الذي ما إن مضى إليه حمدان والشيخ يوسف يطلبان إليه الطلاق حتى تنفس الصعداء، فكأنه ما كان ينتظر إلا من يخلصه من هذا الحمل، وحتى لا تفكر في عبده ثانية، وحتى لا تطرز ولا تزور حمام القيشاني، ولاتقابل رساماً، ولاترى من يذكرها بتلك الأيام الطائشة بدأت بتربية نباتات الزينة، فجلبت الأصص، وأخذت تشتري وتستعير، وتستهدي ليتجمع عندها في أقل من سنتين أكبر مجموعة من نباتات الزينة في الحارة، بل ربما في المدينة، فما عدا الورق الأخضر، والشمشير، والياسمين الأبيض والأصفر والعراتلي، وما عدا الزنبق، والسوسن، وقلب عبد الوهاب، والشاشان، والداداا، والمنثور، والورد بأشكاله، والنسرين بألوانه، كان لديها في غرفتها الخاصة شمعة، شمعة بلغت في نموها أن امتدت أغصانها، فطافت حول الحيطان الأربعة وتشبثت بالجدران مربوطة بخيطان من حلم ونشرت زهوراً من شمع ما كان يمكن أن تعرف أنها طبيعية حتى يأتي الليل فتنتشر من حولها روائح

الشبق، روائح جنس عتيق عمره عمر الشهوة، روائح وقحة متطلبة منادية، ولكن ما من مستمع إلا خالدية، خالدية التي قررت التقاعد محرومة مكبوتة مهزومة منذ تجربتها مع عبده.

حين طرق صياح باب حمدان، وكانت حسيبة إلى جواره، كانت خالدية قد وصلت بأصص نباتاتها إلى الصف الثالث في المشرقة، فقد كانت نباتاتها قد احتلت الباحة مصطفة من حول البحرة، ثم تجرأ أصيص هرجاية بنفسجية على الصعود إلى الدرجة الأولى بعد أن ضاقت به الباحة، ولم يلبث أن تلاه الدادا البيروتي، فالشاشان الأصفر، والخبازى الحمراء، فالزهرية، فالليلكية، فالبيضاء و....حتى احتلت الأصص الدرج، وبدأت غزو المشرقة.

وحين فاتحت حسيبة خالدية في زواجها من صياح صدمت خالدية وأحست بانفعال أول بالرفض، ولكن حين ناقشت الأمر، وتذكرت صياح حين كانت تراقبه من خصها يمر صباحاً وهو يهتف بصوته الجهوري: أفلح من قال لا إله إلا الله، وأفهمتها حسيبة أن حمدان سيعتبره شريكاً وجدت أن في هذا الزواج تعويضاً لابأس به عن سني القحط الأخيرة التي عاشتها.

وحين سمعت أنه سافر وهجر المدينة، رفضت أن تصدق، ولكن حين لقيت حسيبة، فأخبرتها باكية أنه فعلها أصيبت بالحمى: فما هذا يا ربي؟! رضينا بالبين والبين لم يرض بنا، وأرادت أن تدخل في واحدة من تلك النوبات التي عاشتها أمها حين طرزت ثلاثمئة ذراع من المنضة والتفتة والموسلين لتجعلها أكفاناً لولا أن تدخلت حسيبة، تدخلت محتاجة إليها وما كان لها أن تتراجع عن نجدتها فقد كانت قد أحبتها، منذ اليوم الأول لرؤيتها، أحبتها لقوة قلبها، فقد كانت المرأة الأولى التي استطاعت ترويض حمدان، بل وربما كانت المرأة الأولى التي روضت رجلاً في الحارة كلها، أحبتها لسذاجتها وجهلها كل شيء عن العالم الذي وجدت نفسها فيه مسوقة إلى الامتزاج فيه، أحبتها لحسن إصغائها، وتمثلها للعلوم والمعارف والخبرات السرية للمدن العتيقة، قالت:

ـ خالدية خانم، يجب أن أعطيه صبياً، لن أستسلم أمام إرادة أولئك القساة.

حين قالت حسيبة هذا نسيت أو أنها لم تكن قد حفظت دروس خالدية جيداً، تلك الدروس التي تقوم عليها المدن السرية، تلك القوانين التي تعلمت فيها حسيبة كيف تحب رجلها، وكيف تجعل رجلها يحبها، وكيف أنها بهذا الحب تحترم المدينة وقوانينها السرية، كيف تقدم القرابين لشيخ البحرة، وشيخ البير، وشيوخ الليل جميعاً.

حين قالت حسيبة ذلك، نسيت أنها باطمئنانها إلى هدوء الواحة وطراوتها، إلى خرير مائها وظليل أغصانها، إلى خبزها الطري وسلامها الهادئ، نسيت أنها حين فعلت كل ذلك تاركة صياح يمضي إلى فلسطين وحيداً أعزل متخلياً لها عن بارودته وجناده وكامته وطبنجته، ثم لاتجد ما يذكرها بأيامها السالفة حين تؤرقها ذكراه وذكرى الجبل إلا أن تعلق مومياءاته التي خلَّفها وراءه إلى جانب رمح حمدان ودرعه المثقب بعث الصدأ.

نسيت أنها حين فعلت ذلك فقد تجاهلت قانوناً أساسياً من قوانين الدكنجية وهو أنه لاشيء دون ثمن، ولا ربح دون خسارة، هذه هي الحياة، وهذا هو القانون، نسيت أنها حين قبلت قوانين المدينة السرية، قوانين خالدية وحمدان وشيوخ الليل مرتاحة إلى متع الواحة، نسيت الجزء الثاني من القوانين هو دفع الثمن، الثمن الذي سيحدثها عنها الشيخ عبد الحميد حين يفتح لها المندل ويخبرها على لسان الصبي لم يعرف إثماً، ولم تجرحه خيبات الخطيئة بأنهم حاقدون عليها لذكورة كامنة فيها، وكانت تلك هي المرة التي لم تفهم تماماً ماذا يريدون؟ وأكمل الصبي: ـ خرقت النواميس وتحديت الشرائع وخرجت إلى الجبال، خالطت الذكور، ولبست ثيابهم، وحملت سلاحهم، وشاركتهم طعامهم، لذا فالذكور تحرمين، امرأة تلد امرأة، وأنثى تنجب أنثى.

وغصَّ الصبي، فألحت تستفهم، ولكن الشيخ خاف على الصبي بعد تلك الغصة فأيقظه.

عبثاً حاولت حسيبة الاتصال بهم ثانية، سؤالهم عن طلباتهم، طريقة الاعتذار إليهم، ولكن صبياً لم يستطع أن يفتح لها مندلاً من بعد.

استندت إلى ذراع خالدية خانم حين عادوا من بيت قبر عاتكة المفتوح على الرياح والجيران إلى بيت الشرف والاحترام والعيلة الطيبة وأصص الزريعة بلا نهاية.

ـ الحرب مع هؤلاء الناس يا حسيبة صعبة، بل ربما مستحيلة، فأنت لا تعرفين من تحاربين، هم يرونك وأنت لا ترينهم، أنت مكشوفة وهم مستورون.

وقالت حسيبة في قوة: حاربت من هو أقوى منهم وانتصرت، فلم يجب أن أهزم أمامهم.

وقالت خالدية تنظر من حولها في رعب: لا تحاولي.

ـ سترين.

من أجل صبي لحمدان كانت حسيبة على استعداد لفعل أي شيء، كانت مستعدة للمغامرة حتى بروحها، لكنها أبداً لم تتخيل أن رسالة الحفاظ على راية بيت الجوقدار مرفوعة بصبي يحمل اسم الجوقدار، هذه الرسالة التي تخلت من أجلها عن صياح والجبل والبارودة والجناد لاحقة بخالدية وحمدان، هذه الرسالة التي جعلتها هدفاً لها منذ نزلت عن صقالة الدالية الحلوانية، وتعرفت على خالدية لتصبح زوجة لحمدان والحاملة السرية لرسالة الشيخ عبد العزيز، لذلك لم تستطع التراجع رغم تحذير خالدية.

فقالت: سأبدأ أولاً بالطرق السلمية.

ـ سترين.

وجاءت بثلاث خرفان بيض بياضاً لا شية فيها، فذبحتها عند البالوعة قرباناً، ثم وزعت لحمها على الفقراء، لم تذق حتى المعلاق، وهبت جلودها إلى المسجد، حرمتها على نفسها وأهلها، ولكن حين جاء ياسين، وعاش معها شهرين، ثم مات رأت أن الحرب مازالت قائمة، فقررت تغيير طريقة الصلح، رأت أن الدم ربما لم يكن كافياً، فجاءت بالديوك البيض البيض العشارية، لا أعراف لها وذبحتها في أركان البيت، ديوك كثيرة بلا عدد ذبحتها في دهاليز البيت، في مشرقته، عند بلاليعه، علقت رؤوسها بلا أعراف، وأقدامها ذات المخالب العشرة على أغصان الشجر، وفي مدخل الدهليز، ورأت أن

في كل ذلك الدم المبارك ما يكفي لبل صدى تلك المخلوقات المتعطشة، ولكن حين وضعت أحمد، فعاش معها شهوراً ثلاثة ثم نظر إلى الصقالة في المشرقة، وإلى شجرة المسك العجوز، وإلى شجرة الدراق الزهري الصغيرة قليلاً، وأغمض عينيه، ومات. أدركت أن نهم هؤلاء القساة لاحدود له، فلعنتهم وشتمتهم، وضجت، وقررت الحرب ضدهم بلا هوادة، فأخذت تغلي الماء، وتسكبه عامدة في البلاليع وهي تصرخ: عليكم اللعنة، عليكم اللعنة، اصنعوا ما شئتم فلن تستطيعوا أذاي بأكثر ما فعلتم.

كانت تدرك بجزء صغير من حدسها أنهم لن يستطيعوا أذاها شخصياً فهي تحمل حجاباً كتبه الشيخ حمزة لها خصيصاً، وطلب منها أن تحمله تحت إبطها الأيسر، فلا تخلعه أبداً، كانت حريصة على عدم خلعه وخاصة حين قررت دخول الحرب المكشوفة مع هؤلاء القساة النهمين إلى الدم بلا قلوب ترحم.

في تلك الحرب التي دخلتها حسيبة مع هؤلاء البسم الله الرحمن الرحيم خسرت بالإضافة إلى عمر وياسين و أحمد، خسرت رغم المدفعية الثقيلة التي استخدمتها، والمدرعات المحملة بالبردة والأناشيد، خسرت أيضاً محمود ومحمد علي، وحين خسرت محمد علي، ونزفت تلك الدماء التي لم تعوض فيما بعد أبداً أدركت أنها قد خسرت المعركة نهائياً، فهي لن تحمل من بعد، وها قدرها قد تحدد! امرأة تلد امرأة، ولن يكون لديك إلا بكرك زينب.

في تلك الحرب التي دخلتها حسيبة مع البسم الله الرحمن الرحيم قررت كما تعلمت في الجبل أن الطقطقة من بعيد لبعيد لا تفصل معركة، وأن المهادنة والمصالحة لا ترضي عدواً، لذا قررت زجَّ كل ما تعرف من قوى في هذه الحرب، فمضت إلى الشيخ حمزة، صحبت خالدية، ومضت إلى جبل قاسيون، إلى مغارة الجوع حيث كان الشيخ حمزة قد نوى الاعتكاف، انبطحت عند أقدامه، فلم يرفعها، تركها تبكي، تبكي أطفالها الثلاثة الذين مضوا، تبكي أطفالها الذين سيأتون، تبكي صلابتها التي خسرت منذ تركت الجبل مع صياح، تبكي خيبتها في تحقيق حلم حمدان، ومن خلال دموعها قالت:

ـ سيدي أما من حل؟

نظر إليها من فوق دكته الخشبية تحيط به فروة بيضاء، بيضاء تماماً فكأنها غسلت للحظتها:

ـ أعداؤك أقوياء، أقوياء جداً يا حسيبة.

ـ ولكنني في حاجة إلى صبي، حمدان يريده فماذا أصنع؟

نظر إليها الشيخ بعينيه البنيتين الخافيتين بين أكوام شعر لحيته التي حرم على المقص مسها قال:

ـ سنلجأ للحل الأخير.

ـ وما الحل الأخير؟

ـ النوبة.

وارتجفت خالدية، إنها مخاطرة، مخاطرة كبيرة، مقامرة بكل شيء، بل، وربما بصحة صاحب النوبة نفسه، قالت حسيبة بسرعة:

ـ أنا على استعداد، ولكن أعطني صبياً.

ـ الله وحده من يعطي يا حسيبة... صمت قليلاً... جهزي نفسك والبيت، فستكون نوبتنا الخميس القادم.

فرش البيت بالسجاد، الباحة كلها فرشت بالسجاد، علقت المباخر في أركان الدار، جيء بالعود والصندل، بالند والبخور الهندي، أحرقت حتى غامت الدار تماماً، أحرقت حتى لم يستطع الحاضرون التنفس لزخم تلك الريح القاسية العتيقة المخدرة.

جاء الشيخ حمزة ومعه مريدوه، جاؤوا يحملون الطبول والصنوج، جاؤوا يحملون الدفوف والمزاهر، جاؤوا يلبسون العمائم الخضر والجلابيب البيض، قرأوا الفاتحة وقرأوا قل هو الله أحد ألف مرة، قرأوا المعوذتين ألف مرة، استنجدوا بالأجداد، استدعوا الأقطاب، استغاثوا بالأبدال، ثم بدأ القصف، قصف الطبول، قرع الصنوج، رقص الأجسام، المحملة بالحزن والأمل، قصفوا ورقصوا والشيخ على دكته العالية يراقب حتى إذا ما اختنقت الجدران

بالبخور، وأنَّت غصون الشجر من رعد الطبول وأنين الصنوج وارتعاش المزاهر والدفوف، نظر الشيخ إلى حسيبة.

كانت حسيبة راقدة أمام البحرة، مستلقية إلى جانب البالوعة مغطاة بعباءة الجد الأكبر، الجد المنحدر من قطب الأقطاب، الجد الذي أنقذ الأسرى المسلمين من فلسطين الصليبية، الجد الذي منع الجراد عن بر الشام، وردَّ السيل عن صحارى المغرب، وساق الغيم إلى الربع الخالي، الجد، الذي يمسك الأرض فلا تتزلزل، الجد الذي إن اختفى يوماً من الأرض هبَّت من مرابطها وضاعت في الفضاء حتى تصدم الشمس.

قرأت حسيبة كل ما تحفظ من آيات، تلت كل ما خطر على بالها من تعاويذ، صلَّت لكل من ذكرت من أنبياء وأولياء وقديسين حتى قام الشيخ.

قام الشيخ فدبَّت النار في الطبول، وهاجت العواصف في الصنوج، وماجت المحيطات في المزاهر والدفوف، خطا بهدوء، خطا والعيون تراقبه خائفة والقلوب ترتجف مما سيحدث حين يتم الصدام، خطا حتى وصل إليها، فصمتت النار والعواصف وسكنت المحيطات، قال:

ـ حسيبة أخطأت وتطلب السماح، حسيبة قدمت كل الاعتذارات فلماذا تصرون على الثأر، أقسمت عليكم بالاسم الأعظم الذي حبسكم به آصف بن برخيا إلا أجبتم. وصمت وانتظر الجميع الجواب، انتظروا الإشارة، ولكن صوتاً لم يجب وإشارة لم تبد، وحركة من سكان الليل لم تندَّ، وصرخ:

أقسمت عليكم بروح أجدادي، أقسمت عليكم بالأسياد والأقطاب والنقباء والنجباء، ورواسي الأرض إلا رفعتم أيديكم عن حسيبة بنت فاطمة، هذه الطفلة لم ترد أذاكم، ولم ترد التحرش بكم، خطأ أخطأت، هي تعترف، جريمة ارتكبت هي تقر، وقد بذلت كل ما تستطيع وفعلت كل ما يمكنها لتصالحكم. صالحوها واغفروا لها.

خطا إلى الأمام خطوة، فارتعشت المزاهر، خطا أخرى، فهمست الدفوف وخطا خطوتين، فانفجرت الطبول والصنوج وماج البيت.

وصل إليها عائداً فصمت كل شيء، الطبول والصنوج والمزاهر، بل حتى البحرة كفت عن التدفق، وشجرة المسك عن الاهتزاز، خطا فوقها الخطوة الأولى، وقال: بسم الله فأحست حسيبة بخطواته تمس جسدها كغيمة لا ثقل لها، أحست بمسِّ قدمه كهمسة صنج حملتها الريح، وأحست في جسدها راحة لم تعرفها ولم تحلم بها من قبل.

توقف إلى جانب البحرة منهكاً، وعندئذ، عندئذ فقط اندفقت البحرة واهتزت شجرة المسك تئن، فصرخ المريدون، صرخوا من قلوب محملة بأوراق عمرها ألف سنة: حي. حي هو الله، وهمس الشيخ:

ـ افرحي يا بنتي افرحي، وقومي فقد بدت الإشارة.

هجم حمدان والشيخ يوسف، فحملاها، لم تستطع ركبتاها الثبات فأسنداها، ساقاها إلى المربع الكبير حيث كانت النساء ينتظرنها خائفات، أنمنها على فراشها السميك، غطينها بفروة الشيخ وتركنها تستريح.

ولكن بعد شهور، وحين أنجبت محمود، وأنجبت معه الخوف كانت تنظر إليه، وتتساءل: أتراه يعيش؟ أتراه يكبر ليرث بيت الجوقدار؟ أتراه ينجو من لعنة سكان الليل؟ ولكن شهرين انقضيا حين رأت تلك النظرة في عينيه رفع رأسه قليلاً، فنظر إلى البحرة، إلى شجرة المسك، إلى الصقالة، فعرفت أنه يودع، ثم أغمض عينيه في حزن ومضى.

عندئذ أدركت أن لا فائدة، وأن سكان الليل هؤلاء لا راد لحقدهم وأنهم إن نقموا، فلا راد لنقمتهم، فإن عجز الشيخ حمزة ونوبته عن استرضائهم فما الذي يسترضيهم.؟

بعد سنوات وكانت قد فقدت عمر وياسين، وأحمد ومحمود، ومحمد علي، ثم فقدت بعدهم حمدان قالت لها خالدية، وكانتا في بستان كفرسوسة تشرفان على سلق القمح قبل طحنه برغلاً، قالت خالدية بعد أن راقبت زينب طويلاً، تلك البنت الشقراء حتى البرص، والنحيلة حتى الشفافية،والواسعة العينين حتى لم تتركا لها خدوداً، قالت:

ـ الحمد لله أن أبقوا لك زينب!

فوجئت حسيبة بجملة خالدية المفاجئة دون مقدمات، ولكنها لم تشأ الاعتراض، فقالت: الحمد لله.

ولكن خالدية، خالدية التي تقدم بها السن والحزن والإحباط والقهر، قالت: وكانت حسيبة تعتقد أحياناً أنها خرفت قبل الأوان لما تبدي من آراء غريبة: أتعرفين يا حسيبة، في بعض الأحيان أعتقد أن هؤلاء البسم الله الرحمن الرحيم غير موجودين؟!

وضعت حسيبة، من يدها غصن المشمش اليابس قبل أن تضيفه للكانون تحت حلة القمح، والتفتت إليها مندهشة: ماذا تعنين.؟

ماذا تعني ـ وتأتأت خالدية قليلاً ـ ماذا تعني؟ وفكرت، وجالت الفكرة في قلبها، ذلك القلب المليء بالأحزان، الأحزان التي راكمها على قلبها حسني بك وشكري بك والشيخ حمدان و.... عبده، عبده الرسام، والأحزان التي فتقت في قلبها أفكاراً ما كانت لتفكر بها لو كانت زوجة عادية وأماً عادية وامرأة ترى أطفالها في بيت لا تفكر فيه إلا بطعامهم ولباسهم، ولكن طول معاشرة أحزان الأم ذات الأكفان الثلاث مئة ذراع، وطول معاشرة أصص الورد والحديث إليها واستنطاقها، وطول معاشرة شيخ البحرة، وشيخ البير، وشيخ القبو، والبسم الله الرحمن الرحيم جعلها تهتف، وجعل حسيبة تتأكد من أن خالدية خرفت قبل الأوان، قالت: هذه المدن العتيقة جداً، والمسكونة منذ سيدنا آدم، المسكونة بآلاف الناس ملايين الناس، الناس الذين في ظروف مخيفة ماتوا، بالحرق ماتوا، بالطواعين ماتوا ليجيء أناس آخرون فيسكنون هذه المدن، ويبنون بيوتهم فوق قبور الذين ماتوا، ثم يجيئهم الموت، الموت القاسي، الحرق والسحل والخازوق والطاعون، ثم يأتي آخرون فيبنون بيوتهم فوق قبور من سبقوهم، بيوت فوق قبور، وقبور فوق بيوت، وقبور وقبور وقبور...، مدن عتيقة، مدن قبور سرية يستيقظ أهلها في الليل فيغضبون: أما زلتم تلاحقوننا، حتى في الموت تلاحقوننا؟ يغضبون ويثورون ويهتفون ويطلبون ثارات لايعلم الأحفاد عنها شيئاً، يحزنون وينادون بغضب، ولكننا لا نسمعهم لأن لغتنا غير لغتهم وأصواتهم مخالفة لأصواتنا، فيقررون الانتقام منا، الانتقام من صممنا، الانتقام من لامبالاتنا، الانتقام من فرحنا، الانتقام من بهجتنا وسعادتنا وفرحنا بأطفالنا، دليلنا الوحيد على البقاء والاستمرار، لذلك

هم ينتقمون، ينتقمون منا بأكثر الضربات إيجاعاً، بأطفالنا، فهم يعرفون أن كل الآلام يمكن تجاوزها إلا وجع فقد الطفل، آه يا حسيبة! أه... وأخذت تبكي ذلك البكاء الكريه بلا كرامة، بكاء الكهول والعجائز من النساء حين يسيل الكحل، وتذوب الحمرة، والبودرة، والمراهم تحت سيل دموع العجائز القبيح.

نظرت إليها حسيبة غير مصدقة، أفيمكن لخالدية أن تقول مثل هذا الكلام؟ أفيمكن لخالدية معلمتها، ودليلها إلى عالم المدينة الليلي، إلى عالمها السري الحزين المطالب دائماً بالأضاحي والاعتذارات والاستئذانات أن تكفر بكل ما علمته لها بسهولة؟!

جففت خالدية دموعها بجانب غطائها الأبيض ليصبح لونه كقوس قزح خليطاً من كل ألوان شباب خالدية السري، قالت: لا تأخذي على كلامي يا حسيبة. أنا امرأة عجوز، ربما خرفت، فلا تؤاخذيني.

ولكن حسيبة حين كانت تفكر فيما بعد في كلام خالدية هذا لم تفكر فيه على أنه خرف، خاصة وأن المسكينة ماتت بعد أيام، فقد كانت تسأل نفسها: ألعلها كانت تعرف أنها ميتة بعد أيام، وأن هذه هي وصيتها وتعاليمها الأخيرة؟! بل حين رددت كلامها هذا لنفسها أكثر من مرة أخذت ترى أن في كلامها بعض منطق، صحيح ربما لم يكن البسم الله الرحمن الرحيم موجودين، ربما لم تكن مصائبها كلها ما هي إلا غيرة الأجداد منها، ربما لم تكن إلا حسدهم لسعادتها، وفرحها، وبهجتها ربما.! وصمتت تفكر، فمن يدري.

بعد أيام، وحين رصفت خالدية آخر أصيص قرن الغزال في الممشى المؤدي إلى الفرنكة، وكانت قد أنهت رصف صفوف المشرقة والممشى الضيق الذي يغطي الدرج، وحافظت على الممشى المؤدي إلى الفرنكة خالياً تتلذذ في انتقاء أصصه أصيصاً أصيصاً ونبتة نبتة، وأخيراً وحين رصفت ذلك الأصيص الأخير ونظرت من حولها إلى الفرنكة، إلى الممشى المغطي للدرج، إلى الدرج، إلى البيت جميعاً أحست بحزن صغير تلمست بعينيها بزاز الكلبة، والحي عالم، والهرجاية، والوردة الجورية، والمرجانة وأحست بأسف صغير، فلم يعد بالإمكان إضافة أصيص آخر.

وصلت الدرج، وأرادت أن تمشي محاذرة، فقد كان أصيص البيغونيا السوداء قد نشز بغصن جديد، لا تريد كسره، أرادت تحاشيه، فانحرفت إلى الجدار المقابل لأصيص البيغونيا، ولكن شيئاً ما، شيئاً لم تدركه، ولم تحسه، أكان هو الغصن الناشز، أم كان الجدار، أم كان غضب أولئك البسم الله الرحمن الرحيم؟ ربما لم تسأل نفسها كل هذه الأسئلة، وهي تنزلق عن الدرجة الأولى، صرخت في رعب ورغم كل حرصها على الغصن الناشز من البيغونيا السوداء إلا أنها آسفة تمسكت بالأصيص تحتمي من الوقوع، ولكن الأصيص انزلق معها، فتمسكت بأصيص الهرجاية العسلية، ولكنه انزلق يلاحقها.

انزلقت خالدية، وزلقت معها كل الأصص، تلك الأصص التي رصفتها عمراً، فعمراً، وشباباً فشباباً،وسعادة فسعادة، انزلقت وانزلقت معها كنوز الأخضر والأصفر، والأحمر، والكحلي، والبنفسجي، انزلقت، وانزلقت معها صفوف الساعات والأيام والليالي التي رصفتها على الدرج، انزلقت وانزلقت معها أحلام، وأمانٍ، وأفراح لم تسعد بها، ولكنها حين وصلت أرض الديار لم تصلْ وحيدة، فقد كانت هناك أذرع الصفائح القصديرية تنتظرها لمعانقتها، وكانت هناك أعناق أصص الفخار تتطاول لاستقبالها وكانت عيون من زهر، وقلوب من جلنار تراقبها في لهفة.

لم تصرخ خالدية، ولم تئن، ولم تشك، بل كانت تنزلق بطراوة، بسهولة تسمع قرقعة الأصص على الدرج، وتعرف أنه لحن الوداع، ترى أذرع البيغونيا السوداء والخبازى البيضاءء تلوح وهي تنزلق من ورائها، فتعرف أنها تلويحة الأصدقاء الأخيرة.

بعد يومين، وحين اقتحمت حسيبة البيت بعد أن قلقت لتأخر خالدية عن زيارتها اكتشفت القبر الأخضر الذي نامت فيه خالدية ترتاح أخيراً، رأت الزهور الباكية من فوقها، ورأت حداد الخبازى وأسف الزنبق، وبكاء الياسمين صديقها القديم، وعرفت أن خالدية قد حققت أخيراً مالم تحققه أمها حين استطاعت جعل نفسها تدفن تحت أصص الورد التي قضت العمر في تربيتها.

حسيبة

في اليوم نفسه الذي ماتت فيه خالدية أعلن مجنون كان يعمل أجير دهان، ثم رقي به الزمان ليصبح عريفاً في الجيش حين دخل جيشه باريس دخول المنتصر أن مرحلة جديدة من تاريخ البشرية قد بدأت، ولكن فياض الشيزري حين علم بدخول هتلر باريس لم يحزن كثيراً، ولم يحزن لذكرياته الضائعة، ولا لشبابه المنسي هناك، فقد قال كلمته التي حفظتها حسيبة فيما بعد من مقالته: (اللهم وشماتة) فليذوقوا مرة طعم تدنيس العواصم.

(9)

حين مضى صياح إلى فلسطين... أعزل، حين تحدى حسيبة، ومضى أدركت حسيبة أن معركة جديدة عليها أن تخوضها كانت كلمة دكنجي التي أطلقها عليها باحتقار مهينة، فقد فهمت تماماً ما عنى: الآمال الصغيرة، الأحلام الصغيرة، الأرباح الصغيرة، الخسائر الصغيرة، الأحزان الصغيرة، فما كان في عمل الدكنجي ذلك التوتر، وتلك المغامرة التي نسيتها منذ تركت الجبل مع صياح ونزلت لتتزوج من حمدان الجوقدار.

قالت: صياح اختار الجبل ليعيش حياته، وأنا اخترت حياتي لأكون زوجة تاجر، ولكن... فكرت في حزن: الدكنجي ليس تاجراً، التاجر مغامر يقطع الصحارى والبوادي، يشق المحيطات، ويخترق الغابات، يحمل الأخبار والتجارب، وخيرات العالم، ولكن حمدان دكنجي، صياح على حق، حمدان دكنجي يفرح بالليرة والليرتين ربحاً، فلم لا ينمي تجارته؟ لم لا يصبح تاجر القوافل الكبير؟!

نظرت إليه تتأمله، لا. هذا الجسد السمين الضخم الكهل لا يصلح لعمل كهذا، وللحظة تمنت لو كانت رجلاً لفعلتها، ولكن كيف تفعلها وهي المرأة الملفوفة بملاءة سوداء تغطيها من الرأس إلى الأساس؟ كيف تفعلها ووراءها زينب الطفلة في حاجة إلى من يطعمها ويلبسها ويحنو عليها؟ لا حل، ليس أمامك إلا حمدان، يجب أن تحوليه إلى تاجر كبير، ولو مقيماً، عرضت عليه الفكرة، فضحك:

ـ ولماذا؟ يأتيك رزقك وأنت قاعدة، لم المغامرة والمطاردة، والشقاء والخوف؟

ـ لكن المكافأة كبيرة. صدقني، بدل الليرة والليرتين مئات وآلاف.

ـ الحمد لله مستورة، رزقنا من الدكان والبستان، وحصتنا من الوقف كافية وزيادة.

ـ ولم القعود إن استطعنا أن نزيد من ربحنا؟!

والتفت إليها ضاحكاً يستمع إليها كما يستمع إلى طفل يحدث عن مغامرة يحلم بها.

ـ في الحرب الماضية، أتذكر؟

ـ ماذا أذكر؟

ـ أوقية السكر حين صارت حلماً، ورغيف الخبز كيف صار أمنية!

ـ هيه، أيام قاسية لا أعادها الله.

ـ وما يدريك أنها لن تعود؟ كل الإشارات تؤدي إلى أن الحرب قادمة!

ـ فماذا نصنع؟

ـ نستعد لها.

ـ كيف؟

ـ هاه، الآن بدأت تفهمني. كيف؟ بستان كفرسوسة كله كم يعطيك في السنة؟

ـ يعني تسع مئة، ألف ليرة.

ـ وهذا مبلغ يستحق الوقوف عنده؟

ـ فماذا تريدين؟

ـ نبيعه.

ـ مجنونة أنت؟

ـ ربما، وربما لا، ولكن إن بعناه، فسنبيعه بثلاثين ألف ليرة على الأقل.

ـ هه، وتعرفين الثمن؟

ـ سألت الدلال.

ـ يا خبيثة، وسألت الدلال أيضاً؟

ـ نعم، ونشتري بثمنه سكراً وقمحاً وزيت كاز، ونخفيها في انتظار الحرب.

ـ أيتها المجنونة من يفعل شيئاً كهذا؟

ـ أنت. لو كنت تاجراً حقيقياً، أقول لك الحرب قادمة لامحالة.

ـ وافرضي أنها قادمة، نبيع بستان جدي؟

ـ ونشتري بثمنه سكراً وقمحاً وزيت كاز.

وصمتت قليلاً كأنما تحسب الربح القادم.

ـ سيأتي يوم صدقني، تكون أوقية السكر فيه بوزنها ذهباً، وصفيحة الكاز بما يساوي وزنها دماً، ومد القمح...

ـ حسيبة يكفي.

ـ بل يجب أن تفكر بالأمر، لن تبقى الدكنجي الصغير إلى الأبد.

ولكنه لملم قنبازه، واتجه إلى باب المربع الكبير محتجاً.

ـ إلى أين؟

ـ إلى الشيخ، إلى الجامع، فلعلي أسمع كلمة مفيدة خيراً من هذا الهراء.

تركها ومضى، تركها لتشعر بالخذلان، فهاهو يرفض حلمها في التحول من دكنجي إلى تاجر كبير، كانت ترصف الأحلام كما ترصف خالدية أصص الزريعة، وكانت تصل إلى أن النتائج مضمونة، مضمونة تماماً، فالكل يعرف أن الحرب قادمة، هذه الحرب التي إن قدمت، فسيشقى الناس وراء كل ما يؤكل، سيدوخ الناس وراء كل ما يوقد، فلم لا يستمع إليها ليخرج بها من حفرة الدكنجي؟

كررت الطلب، فكرر الفرار، كررت العرض، فكرر الهرب، وأخيراً وبعناد بنت صياح المسدي قررت أن تفعل ذلك بنفسها، وحتى تكشف له خطأه حين يؤون الأوان، باعت أساورها، حلقها، وكردانها، كل ما أعطاها من هدايا وأموال، واشترت أكياس سكر.

عارض في البدء ورفض، ولكنه ليريح رأسه تركها تفعل ما تشاء، فأفرغت السقيفةمن الحطب وملأتها أكياس سكر، أكياساً فوق أكياس، ملأتها حتى الباب. أقفلت السقيفة، وأخذت تنتظر الحرب،

الحرب التي ستخرج بها وبزينب، وبحمدان من حفرة الدكنجي، ولكن الحرب تأخرت، وحمدان مات، والحرب لم تقع.

فتحت السقيفة مرة لتفحص السكر، ففوجئت بأنه تحول إلى كتلة واحدة، فقد شرب رطوبة البيت والسقيفة وصار حجراً، ولكنها لم تبال، وحتى حين قال لها حمدان: اسمعي مني أنزليه ودعينا نبيعه الآن، نستطيع أن نجد من يشتريه الآن، ولكن إن انتشر الدود فيه فلن تجدي من يرضى بحمله إلى النهر، رفضت وقالت: الحرب قادمة، وسيصبح ثمنه وزنه ذهباً.

وجاءها مصطفى العربيني يخبرها بأن صياح انفجر مع قنبلة في كيبوتز عين هاشوفيت، فبكته كثيراً، ولكن الحرب لم تقع، ومات حمدان بعد أن بكى أطفاله الخمسة، ولم... تقع الحرب، ولكنها لم تيأس، فالحرب لابد أن تقع، وكل الإشارات تشير إلى ذلك.

كان حدس حسيبة مصيباً، وكان عنادها الجبلي على حق، فلقد وقعت الحرب، وانقلبت الطاولة تماماً، وفرنسة التي حاربتها حسيبة مع صياح في الجبل صارت محتلة، ومتعجرفو الأمس صاروا يتذللون اليوم ويطلبون الود، وانقطعت المؤن، وارتفعت الأسعار، وكانت فرصة حسيبة.

فتحت حسيبة السقيفة للمرة الأولى منذ سنوات، كان السكر قد صار حجراً رمادياً، ولكن من يسأل عن اللون في زمن الحرب؟ كانت خيطان الأكياس قد تحللت واختلطت بالسكر، ولكن من يتضايق من الدود في زمن الحرب..؟ وجاءها التجار، ولكنها رفضت البيع، كانت تنتظر احتدام الأزمة و....احتدمت، ومع ذلك فلم تبع مالديها من السكر دفعة واحدة، كانت تبيعه كيساً فكيساً، وكل كيس بضعفي سعر الكيس السابق، وهكذا شكلت بداية الثروة التي حلمت بها طويلاً للخروج من حفرة الدكنجي إلى رحابة التاجر الكبير، وكم ندمت وكم أسفت، أن حمدان لم يطاوعها قبل موته ويبيع بستان كفرسوسة وحصته من الوقف وبيت خالدية، ويشتري بثمن ذلك كله سكراً وقمحاً وزيت كاز هاهو حدسها يصيب، وهاهي الحرب تقع، وهاهو الصراع على أوقية السكر، ورغيف الخبز، وأوقية الكاز يبدأ.

حسيبة

لكن حظ حسيبة لم يكن عسلاً، فقد جاء فياض الشيزري، ولجأ إليها في الفرنكة، وتزوج من زينب، وفتحت له الدكان، وأضاع الثروة التي جمعتها من تخزين السكر في السقيفة ليكون الهزيمة الثالثة لها بعد صياح وحمدان.

(10)

حين خلا البيت من حمدان وسعدية التي لم ترض البقاء في البيت بعد موت حمدان اكتشفت حسيبة أن البيت كبير، بل وأكبر من أن تستطيع الحياة فيه وحيدة مع زينب، فكيف تستطيع العناية ببيت فيه مربعان كبيران وغرفة ضيوف وإيوان، وفرنكة وباحة يجول فيها الخيال، وبحرة يستطيع السباحة فيها خمسة رجال، وشجرة مسك بكل ما تلقيه من ورق يابس أصفر وزهر ذابل وثمر كريه، وشجرة الدراق الزهري، والداليتان البلدية والحلوانية، والنارنجة البليدة وشجيرتا الياسمين البيضاء والعراتلي؟! يا إلهي! أفأستطيع العناية بكل هذا، وبزينب، وأنا الأرملة الوحيدة في مدينة لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت تسأل عني؟!

في تلك الفترة التي أخذت حسيبة فيها تخرج من شرنقة حمدان وصياح لتنشر أجنحتها الخاصة الجديدة كانت تغيرات جديدة تتم في البلد، فلقد رفضت الكتلة الوطنية تشكيل الوزارة، فعرضها المسيو بيو على نصوح البخاري، فشكلها ثم استقال بعد أقل من شهر ونصف، فعمد المندوب السامي إلى الطلب إلى بهيج الخطيب بتشكيل حكومة من مديري الوزارات العامين ومن أزلام المندوب السامي متخلياً عن السياسيين الذين يدعمهم الشارع، فهاج الناس وقامت المظاهرات، وأعلن التجار الإضراب، وأعلن بهيج الخطيب حظر التجول من المساء وحتى الصباح، ولكن عبد الله زوج مريم لا يستطيع حظر التجول لأنه إن لم يحمل قدور الفول والحمص إلى القميم في المساء، فلن يجدها ناضجة عند الصبح ليقدمها إلى زبائنه.

فكر قليلاً، وقال لنفسه: أتراهم سيتركون المدينة كلها، ثم لا يجدون إلا حارة التعديل يفتشون فيها عن خارقي حظر التجول ثم... كلها خطوات وأضع القدر في القميم وأعود.

ولكنه قبل أن يغادر الحارة بالقدور المحمولة على دراجته والتي قضت مريم نهارها في تنقية حمصها وفولها من التبن والحصى رأى

أن يتطاول برأسه من الحارة قليلاً ليرى إن كان هناك سنغالي أو مغربي، أو ليجيون ايترانجيه في انتظاره، ولكنه لم يكن يعرف أنه لم يكن هناك سنغالي، ولا مغربي، ولا ليجيون ايترانجيه، بل كان هناك رجال بهيج الخطيب المكلفون بحفظ الأمن، والذين ما إن رأوا رأساً يتطاول من الحارة حتى انطلق ميتراليوزهم في صلية واحدة انتثر على إثرها رشاش أبيض من نخاع مجلل بنثار أحمر من دم، ثم وقعت عجلة كانت مستندة إلى جدار الحارة ليندلق سيل من حمص وفول نظيفين كانت مريم قد قضت نهارها في تنقيته من التبن والحصى.

بعد انقضاء شهور العدة والبكاء على ذلك الذي مضى بغلطة تاريخية بسيطة كان على مريم أن تفكر في الطريقة التي ستدير بها حياتها وحياة وداد الرابعة التي تركها لها عبد الله ومضى، وكان لهذا الظرف الصعب الذي مضى فيه فائدتان: الأولى أن بقيت وداد حية، فلا تخاف عليها مريم الموت، والثانية كانت لحسيبة التي بدأت صداقة طويلة بينهما، صداقة اختلطت فيها الصداقة بالمنفعة بتبادل الخدمات، صداقة بدأت بعد انقضاء شهور الحزن والعدة، وبيع دكان الفول ومخزون أكياس الحمص والفول، وإنفاقها كلها ليرة فليرة رغم كل التدبير والحرص اللذين حاولتهما مريم. ولكن ـ كل مالا ينبع ينضب ـ هتفت مريم وهي تراقب ثوب وداد الممزق وهي تسعى في الديار.

كان موسم المكدوس قد بدأ، ومريم تلوب في الديار تفكر، في صفيحة زيت الزيتون تفكر، في الجوز تفكر، في الفليفلة الحمراء تفكر، وفي الباذنجان الذي سيصبح مكدوساً تفكر، حين رأت مرابع الشيخ حمدان يحمل كيس الباذنجان ويطرق باب حسيبة فأدركت أن حسيبة ستبدأ صنع المكدوس، وسرعان ما وجدت الحل، ستساعدها، وحسيبة خانم الجوقدار لابد أن تقدر لها ذلك، وكان ماقدرت مريم صحيحاً، فقد أهدتها بعد إنجاز المكدوس قطرميزين، قالت: لايوجد في البيت غيري وغير زينب، فمن سيأكل كل هذا المكدوس؟ كليها مع وداد.

وتدللت مريم قليلاً. ثم حملتها شاكرة، فقد كانت قد أمضت الأيام الثلاثة الماضية بمساعدتها، مساعدة بدأت بزيارة عادية لشرب

القهوة، والثرثرة، ثم تحولت إلى مساعدة في قطع رؤوس الباذنجان وشق بطنها:

ـ سأعاونك قليلاً، خير من الفرجة عليك وأنت تعملين.

مساعدة تحولت إلى حمل حلل الباذنجان إلى الكانون، إيقاد النار، سلق الباذنجان، إنزاله، تركه يزرب الماء الذي حمله، حشو الباذنجان بالفليفلة والثوم والجوز، ثم إيداعه القطرميزات، ثم حمل قطرميزين إلى البيت، فلن تستطيع حسيبة أكل كل هذا المكدوس.

صداقة غريبة بدأت بين هاتين المرأتين، ليست كالصداقة التي قامت بين خالدية وحسيبة، فهذه رغم اعتمادها على مساعدة حسيبة المالية إلا أن فيها علاقة المعلمة بالتلميذة، والحماة بالكنة، والأخبر بدروب الحياة بجاهلها.

أما صداقة مريم وحسيبة، فقد كانت صداقة قائمة على التغابي المشترك، حسيبة تفترض بأن مريم تقوم بدور سعدية بشكل أو بآخر ولكن دون أن تدعيه، ومريم تفترض أن من حقوق الصداقة، الصداقة المحضة أن تساعد الصديقة صديقتها إن أضناها عمل ـ ومعظم أعمال البيت تضني حسيبة ـ ولابأس لو ساعدت الصديقة صديقتها أيضاً بإهدائها بعض ثوب، أو بعض مكدوس، أو زيتون، أو مربى، أو حتى بضع ليرات لن تؤذي أحداً.

ماكانت مريم تظن أن الحياة ستؤول بها إلى هذا، ولكن من يعرف إلام ستؤول به الحياة؟ من يعرف ما الضربة القادمة التي سيكيلها له الدهر؟

حين حملت مريم إلى بيت عبد الله كادت الأرض لا تسعها من السعادة، فأن تحصلي على عريس بهذا الجمال، هذا الطول، هاتين العينين المكحولتين أبداً، كان يقول إنه يكحلهما دفعاً للرمد، هذين الشاربين الأحمرين، ولم يكن يعترف بأن حمرتهما من سائل العطوس الذي يرشح به أنفه دائماً. صحيح أنها كانت تراه طويلاً، فقد كان أطول منها بسبع أصابع تقريباً، ولكنها هي التي لم تزد عن المتر والنصف إلا قليلاً، صحيح أنها كانت تراه الأوسم والأكمل بين الرجال إلا أن من رأتهم من الرجال كان قليلاً جداً.

حسيبة

حين كان عبد الله عازباً كانت حياته قاسية، فقد كان عليه أن يعمل ليل نهار حتى يجمع مهره كما يطلب إليه الجميع، ولكن مشاكله لم تكن في مهره فقط، بل كانت في أن المجيديات القليلة التي كان يجمعها للمهر كانت سرعان ما تذوب في ليالي الشكارات يقضيها مع رفاقه في بستان الحجر، تلك الليالي التي ظلت ذكراها هي كل مايعرف عن السعادة في الحياة، كانوا خمسة شبان من القنوات وباب سريجة يقضون الأسبوع الطويل في العمل المضني يجمعون القرش والقرشين حتى يكتمل المبلغ اللازم لليلة الشكار، تلك الليلة التي نهاهم الشيخ عنها، ونهاهم المختار عنها، ونهاهم المعدلون في الحارة عنها، ولكن... الشيطان شاطر، فأيأس المعدلين منهم، فكانوا يكتفون كلما رأوهم يوم الخميس وقد حملوا صررهم وباطياتهم، ثم اتجهوا غرباً بالتمتمة: إه الله يمحو كاساتكم. ماكانوا يستطيعون شيئاً آخر، فقد كانوا جميعاً من زعران الحارة، ولربما حمد أولئك المعدلون ربهم أن الزمان تغير، وإلا لكانوا قد صاروا قبضايات الحارة، فأفسدوا، وأزعجوا، ولكن والحق يقال ما كان لهم من لذة في الحياة إلا تلك الكؤوس يشربونها، وتلك الراقصة رفيقة أبو محيي الدين الجمال ترقص لهم، وتسليهم من متعة أخرى.

صحيح أنهم كانوا حين تدب الخمرة في رؤوسهم يتمنون لو تقبل بأحدهم رفيقاً كما قبلت بأبو محي الدين، ولكنهم كانوا يعرفون ـ ولو بينهم وبين أنفسهم ـ أنهم لن يستطيعوا تحمل نفقات رفيقة كهذه، صحيح أن ليلتي الخميس والجمعة كانت تنقضي بين شرب، وفرجة على الرقص، وتحرق لاهب على تلك العجيزة الممتلئة والخصر الأبيض يرتجان من أمامهم، ولكنهم كانوا زكرتية يكتمون مافي قلوبهم، ويتركونها في القلب تجرح، ولا تبدو للآخرين فتفضح.

كان يمكن للأمر أن يستمر بهذه المجموعة إلى أن تنحل وتتفكك كمعظم مجموعات الشكار بزواج أحدهم، وبتوبة الآخر، وبمحو كاسات الثالث لولا أن أبو مستو الخضري لم يعد يحتمل الفرجة على المستورة رفيقة أبو محي الدين فيحترق قلبه، ولا يستطيع شيئاً، وكان لابد من التصرف و.....تصرف.

وفي الخميس التالي تأخر أبو مستو عن الحضور حتى يئسوا منه، واقترب الليل، فأعدوا النار لشي اللحم، وقامت المستورة بتحضير

السلطات والفواكه التي يمنع أكلها، بل ترصف لتزيين المجلس، رش أبو عبده الماء من حولهم فانتشر عبق التراب المبلول المختلط بروائح شجيرة العطرة، وورق الجوز والفحم أول اشتعاله، وأحس عبد الله للمرة الأولى بالضيق، فهذه هي المرة الأولى منذ التئام جماعتهم تتسلل العتمة إلى المجلس دون أن يكون سكران، وحار في هذا الضيق، وكانت حيرته مبعثاً لمزيد من الضيق. حار في ضيقه وسببه، أهو مقدم المساء عليه صاحياً في البستان، أم هو تأخر أبو مستو؟!

ولم تطل الحيرة بعبد الله والرفاق لأن الباب الخشبي الكبير طرق، وأسرع أبو محي الدين لفتحه هاتفاً: هه هاهو أبو مستو.

ولكنه حين فتح الباب شده، فلقد توقع من أبو مستو أن يجيء بباقة زنبق كعادته، أن يأتي حاملاً باطية نبيذ للمضمضة صباحاً، وأن يأتي ومعه سحارة فواكه منتقاة للمجلس. ولكن أن يأتي ومعه... امرأة، لا. هذا لم يكن بالحسبان!

تقدم أبو مستو مرتبكاً قليلاً أمام نظراتهم، ولكنه برم شاربه الأشقر وصرخ بصوته الممطوط زكرتية: مرحبا يارجال.

وهتف أكثر من واحد: أهلين بشيخ الشباب.

لكن عيونهم كانت معلقة على الشبح الأسود المغطى من الرأس إلى الأساس، ولم يدعهم أبو مستو معلقين إلى دهشتهم إذ صرخ:

تفضلي أختي تفضلي. الشباب كلهم إخواننا.

ودخلت مرتبكة تكاد تتعثر، فأسرعت إليها رفيقة أبو محي الدين تمسكها من يدها لتدخلها إلى البيت، وران عليهم جميعاً الصمت، الصمت المنتظر بما فيهم أبو مستو نفسه، وحده أبو محي الدين قام إلى اللحم يضعه على المنقل قبل أن يذوب الفحم.

حين فتح باب الدار الصغيرة الملحقة بالبستان، وخرجت المرأتان لم يستطع عبد الله أن يكتم شهقته، فقد كانت المستورة رفيقة أبو مستو شيئاً مخالفاً تماماً لرفيقة أبو محي الدين، كانت طفلة تقريباً في الخامسة أو السادسة عشرة، نحيلة بيضاء سوداء الشعر، حيية كان واضحاً أنها جديدة على الكار، وهمس عبد الله لنفسه: من أين

اصطادها ابن الحرام هذا؟ ولكنه لم يجرؤ على إعلان سؤاله، فأخفاه في نفسه، وتشاغل بشرب كأسه، وحين بدأ الشكار، وأمسك أبو عبده الفحام بالعود، وأبو عيد السمكري بالدربكة كان عبد الله قد وصل إلى السماوات بنشوته.

شدت رفيقة أبو محي الدين المستورة الجديدة إلى الرقص، ولكنها كانت خجولة، همست في أذنها شيئاً، فتمنعت قليلاً، ثم قبلت، وحين تخففت من ثوبها الأعلى اصفر عبد الله إذ أحس أن روحه ستزهق في اللحظة التالية، وحين تثنت تصاحب رفيقة أبو محي الدين كشفت عن ليونة عجيبة في الجسد، ولكنه كان الجسد الساذج مما أكد لعبد الله أنها جديدة على الكار، وتساءل ثانية من أين اصطادها ابن الحرام هذا؟ ولكنه للمرة الثانية لم يجرؤ على إعلان تساؤله.

وللمرة الأولى يمتد بهم الشكار أسبوعاً كاملاً قضوه في البستان يشربون، ويأكلون، ويتعذب عبد الله بالفرجة على رفيقة أبو مستو تتلوى أمامه بذلك الجسد الملائكي، ورغم أن السكر كان يتعتعه آخر الليل إلا أنه كان يستيقظ متوتراً حين يسمع أبو مستو يتسلل بها بعيداً في البستان حيث كان يمكن لعبد الله أن يتخيل جنان اللذة التي ينهلها أبو مستو هناك.

في اليوم الأول حين كانت تلتقي عينا عبد الله بالمستورة كان يغضي، فهكذا تقضي أخلاق الزكرتية، ولكنه في اليوم التالي لم يغض، أما في اليوم الثالث، فكان يحاول تذكر أين رأى هذه البنت من قبل، كان في وجهها شيء مناد بعيد يقول له:

ـ أنت تعرف هذه المرأة، ولكن أين، وكيف؟ وحين كان يكد ذهنه في السؤال كانت الخمرة تغشي على ما تبقى من صحو في ذهنه، فيضيع السؤال قبل الجواب.

ثم ما إن يهل اليوم التالي، وتبدأ جولة الرقص والشرب حتى تلتقي العيون، ويهل السؤال من جديد، فقد كانت الأخرى تبحث عن عينيه لتقول:

ـ إني أعرفك من قبل.

لكن السؤال الذي أرق الجميع، عبد الله، وأبو عبده، وأبو عيد كان من أين جاء أبو مستو بالمال ينفق خلال هذا الأسبوع الذي ما إن ينقص الزاد فيه حتى ينزل إلى المدينة ليعود ومعه خروف مذبوح، ودمجانتا عرق وبقية مايحتاج إليه الشكار؟! من أين له بكل هذا؟ وأبو محي الدين الجمال صاحب البايكة والبستان لا يستطيع تحمل كل هذه النفقات؟!

أرَّق السؤال عبد الله كثيراً، فهو يعرف أبو مستو، يعرفه جيداً، فدكان الخضري التي يتعيش منها لا تكاد تستره، فمن أين له بكل هذا المال؟ ورغم إلحاح السؤال إلا أنه لم يستطع الإجابة عنه حتى بعد شكارين عاشت الحارة خلالها دون فول وحمص وتسقية عبد الله وخضار وفواكه أبو مستو، ولكن السؤال لن يظل سؤالاً إلى الأبد، فقد كان حظ أبو مستو سيئاً إذ تعرف عليه أحد ضحاياه بعد أن شلَّحه عند مفرق الشيخ سراج، تعرف عليه من صوته ومن ميتانه الذي انكشفت عنه الفروة حين حمل المنهوبات.

وحين جاءت الشرطة تسأل عبد الله عن أبو مستو شم أبو مستو الرائحة فاختفى، وانقضى أسبوعان لم يبد له فيهما أثر، ولكن حين انقضى أسبوعان نفدت فيهما المؤونة التي تركها أبو مستو للمستورة جاءت تسأل عنه، وحين أرادت السؤال عنه لم تجد سوى عبد الله تسأله عنه.

فوجئ عبد الله بها في الدكان، وكان قد أنهى زحام الصباح، وحين كشفت وجهها اختفت الأسئلة كلها، فلقد عرفها، تذكر أن هذه المرأة هي الطفلة التي كانت تشتري منه الحمص والفول منذ سنوات، وحين سألته عن أبو مستو، سألها: ألست منور بنت أبو مصطفى الخباز؟

فأغضت في خجل، وتراجع الزمان، فرآها الطفلة تدرج، والفتاة تكبر، واليتيمة يموت أبوها أمام الفرن. سألها: وأين اختفيت كل هذه الأيام؟

قالت: كنت أبحث عن لقمة العيش.

وغص، غص حتى اختنق، المسكينة، أهذه هي منور الطفلة؟

قالت: جاعت أمي، وجعت، فجئت أبحث عنه، أتعرف أين أجده؟

أراد أن يحدثها عن أبو مستو قاطع الطريق، ولكنه خجل، فالزكرتية لا يطعنون الزكرتية، أراد أن يحدثها عن أرقه منذ غيابها عن عينيه، فخجل، فالزكرتية لا يخونون الزكرتية، أراد أن يحدثها عن الأسئلة تطرق رأسه، فتعذب هذا الرأس الذي لم يعتد الأسئلة، و لكنه خجل، فالرجل لا يكشف خفاياه أمام الحريم، أراد، وأراد، ولكن لسانه لم يعتد الكلام الكثير، ولم يعرف الأسئلة والإجابات.

قالت: يجب أن تدلني عليه.

قال: سأسأل عنه، فإن جئت مساء ربما دللتك على طريقه.

شكرته وقامت، مد يده إلى جيبه وأعطاها مجيدياً، قال: دبروا أنفسكم اليوم، وحتى يفرجها الله، أو أعرف طريق أبو مستو.

شكرته وأخذت المجيدي، ومضت... شيء في عبد الله انكسر، شيء في الروح تغير، ولم يعد عبد الله القديم، لم يعد عبد الله الذي لم يعرف منور قبل قليل، بل صار عبد الله جديداً، فالزكرتية لا يأرقون، ولكنها أرَّقته وأخجلته بالأرق يدخل حياته ضيفاً غير محبوب، أرَّقته حين اختلطت لديه مزيجاً من شوق للمرأة وحنين للطفلة التي عرفها، وتوق لمجهول بدأ يطرق باب قلبه المغلف بالإهمال والعزلة والشوق إلى المرأة.

في اليوم التالي لم تأت، فتشاجر مع ثلاثة من الزبائن، وحين اقترب الليل خاف الأرق، فشرب ثلاث بطحات عرق لينام، ولكنه أرق، ورآها الطفلة، ورآها المرأة، ورآها تتلوى، ورآها تمشي منكسرة وراء أبو مستو حتى عمق البستان، وصحا من نومه فجأة ليسمع نفسه يقول:

ـ بودِّي منور.

وخجل، فالزكرتية لا يشتهون نساء الآخرين، ولكنه اكتشف أنه لم يخجل كثيراً، فقد أرادها فعلاً، بعد أربعة أيام جاءت. قالت: ألم تعرف عنه خبراً؟ فحاول إخفاء البريق في عينيه واللهفة في صوته والشوق في أصابعه، فسكب صحن المسبحة على الأرض، وانحنى يجمعه، وحين انتصب ثانية قال: لا.

ولكنه كان يتمنى أن يقول شيئاً آخر.

وارتبكت الطفلة المستورة أمام نظراته، فحاولت إنزال المنديل ولكنها لم تستطع، فقد كان هناك شيء خفي تحسه يقول لها: إن عبد الله لا يريدها أن تنزل المنديل، احتارت قليلاً في ما تصنع، واحتار كيف يقول لها أريدك، فقال لها بخشونة الزكرتية: تفضلي أختي اقعدي.

وقعدت ولكنها في اللحظة التي قعدت فيها، وأمسكت كأس الشاي الذي صبه لها عبد الله برز أبو مستو أمامها فجأة، نظر إليهما بعينيه الزرقاوين من فوق لتحت ومن تحت لفوق، ثم قال في ازدراء: إخس على الرجال!

كان الازدراء واضحاً دون قوله: إخس على الرجال، وحاولت المستورة أن تقوم، فسكبت الشاي على ملاءتها، ولكن واحداً منهما لم يلتفت إلى الشاي المنسكب، وقال عبد الله محاولاً تمالك نفسه:

- له يا أبو مستو. لا تغلط.

ولكن أبو مستو كرر: إخس على الرجال، بس.

ولم يكن أبو مستو في حاجة إلى نقاش كثير أو حديث طويل، فقد كانت الخيانة جلية أمامه، فاستل خنجره ولم يكن ينوي طعن عبد الله ولكن أصول الزكرتية تقضي، واسترداد قلب المستورة من هذا الخائن يوجب بعض الاستعراض، ولكن عبد الله لم يفهم هذه المرة أن أصول الزكرتية تقضي بذلك، أو أنه لم يكن يستطيع أن يمرر هذا الاستعراض أمام المستورة، فقد رفع مدقة الحمص بسرعة وضربه بها، وكان رأس أبو مستو خفيفاً، فسقط. وكان حظه وحظ عبد الله وحظ المستورة سيئاً، فوقع رأسه على حد البلاطة، فأن بخفة لم تكن ممطوطة، وقال:

- أخ - بصوت لم يكن زكرتياً، ومات.

ولولت المستورة، واصفر عبد الله، وجاء الدرك، وسيق عبد الله إلى السجن، ولكن لكون أبو مستو مطلوباً للعدالة، ولسوابقه قاطع طريق ولشهادة المستورة لصالحه لم يشنق، بل حكم عليه بسجن طويل.

حسيبة

حين خرج عبد الله من السجن كان لايزال شاباً في الأربعين، صحيح أن شاربيه الأعقفين دب إليهما الشيب، ولكن الحناء مذهبة للشيب، وصحيح أن ليل السجن قد أبهت سواد عينيه الواسعتين، ولكن الكحل يعيد حتى إلى عيون العميان جمالها.

خرج من السجن وكان عليه أن يبدأ من جديد، فتح الدكان، وسلق الحمص والفول، وشرب النارجيلة أمام الدكان، وسارع إليه المعدلون:

ـ يجب أن تتزوج.

ـ ألم تكتف من الجهل؟

ـ يا الله حسن الختام؟

ـ ما بقي أقل مما مضى، ماذا تنتظر؟

ولم ينتظر الكثير قال: أنا بين أيديكم. لاقوا بنت الحلال، وأنا حاضر... وكانت بنت الحلال موجودة، ولم تكن سوى مريم اليتيمة التي ولدت يوم دخل السجن، لم يكن مهرها كبيراً، ولكنه لم يكن يملكه، لم تكن مطالب أمها كبيرة، ولكنه لم يكن لديه إلا البيت الصغير الذي تركه أبوه، فرممه وجاءت مريم، جاءت من بيت ترمل ويتم فشبعت للمرة الأولى، فأخذت تأكل، وتتسلى بالأكل، تأكل كل ما تجده بقايا الدكان، الحمص اليابس، كسر الفول، الخبز اليابس، ورغم أنه لم يكن ينقص شيئاً من لوازم البيت إلا أنها كانت تحب أن .... تتسلى، ومازالت تتسلى حتى صارت كرة، كرة حقيقية، ولما لم تكن طويلة، فقد كان تحولها إلى كرة أمراً سهلاً.

كان عبد الله يراقب هذا التحول في دهشة، كان حين يأتي المساء فتعد له سفرة المازة، صحون المكدوس، واللبنة والمسبحة بلحمة، والفلافل، فيصب لنفسه العرق ويشرب، يتأمل مريم، ثم يتذكر تلك المستورة السنيورة، فيغص، ويتمنى لو تأخر أبو مستو ساعة فقط، لو ذاق القشطة بعسل مرة، ثم سجن، أما أن يسجن وتضيع سنوات الشباب كلها بالمجان، فهذا حرام! ولكن... ويشرب الكأس الثاني، فالثالث، فالرابع، حتى تمتزج مريم بالمستورة، فيحملها إلى المربع، وفي الصباح يسألها في صوت ممطوط: متى ستنجبين محمد سعيد؟

فتحني رأسها في خجل: لما يأذن الله.

ولكن الله حين أذن لم يعطه محمد سعيد بل أعطاه وداد، فغضب غضباً شديداً، وغضب حين رآها عارية تغير لها مريم ثيابها المبلولة فاحتقن من الغيظ حين ذكر منور، وذكر كيف كانت تأتيه صباحاً تحمل الصحن النحاسي، وتقول: بمتليكين فول، الله يوفقك.

ثم يرى وداد وقد كبرت، فجاء أبو مستو لتصبح رفيقته، ويختنق بالغيظ، فيهمس لتسمعه مريم: غداً تكبر وتصير مستورة، فتصفر مريم وتقول: استغفر ربك يا رجل، عيب، حرام عليك. ولكن الفكرة لا تفارقه، فيقول وكأنه يخاطب نفسه: غداً أموت، ولاتجد من يعيلها فتصبح مستورة، وأخيراً وبعد كأسي عرق صرف اغتنم فرصة غياب مريم في الديار تغسل ثياب الطفلة، فحمل وسادة وضعها على وجهها بهدوء، ضغط قليلاً ثم أعاد الوسادة إلى مكانها ونام.

نام بارتياح، فلقد اطمأن الآن إلى أن وداد لن تصبح مستورة، وحين أعولت مريم وناحت، وبكت لم يخطر على بالها أبداً أن تكون الوسادة قاتلتها... وأخيراً دفنتها، وحزنت قليلاً، ثم حبلت ثانية، وانتظرا معاً محمد سعيد، ولكنه لم يأت، بل أرسل بوداد التي أصرت مريم على تسميتها بوداد، وما كانت تعرف أنها حكمت عليها بمصير وداد، فما إن أيقن عبد الله أن وداد ستصبح مستورة بعد موته حتى حمل الوسادة ووضعها فوق وجهها ونام.

وحبلت مريم ثانية، ولكنه شك في هذه المرة أن محمد سعيد سيأتي، وكان شكه صحيحاً لأن وداد الثالثة ولدت، ولم تقم في البيت طويلاً إذ كانت الوسادة تنتظرها، وكان على مريم أن تدفن ودادات ثلاثاً قبل أن تكتشف أنهن لم يكن يمتن بأمر الرب كما كانت تعتقد، بل كان عبد الله يقتلهن بنفسه وخافت حين رأته يضع الوسادة على وجه وداد الثالثة، فلم تعول، ولم تصرخ، بل اكتفت بأن رمت بنفسها عليها تحاول إنقاذها، ولكن المعركة كانت محسومة، فلم يكن يحتاج لإنجاز مهمته إلا إلى إلقائها بعيداً تتدحرج بشحمها الكروي، وتعيد الكرة لتكتشف أن تدخلها متأخر... قليلاً.. فـ..تتركها وتمضي إلى الديار، وتكتفي بالبكاء، البكاء الذي سيستمر حتى بعد غسل الطفلة والصلاة عليها ودفنها في قبر أخواتها، البكاء الذي سيستمر حتى بعد

حملها الرابع رغم معرفتها أن محمد سعيد لن يأتي، وأن وداد هي الآتية، وحين أيقنت أن وداد هي الآتية خافت، فسيخنقها كأخواتها، وكأبو مستو يا إلهي! هذا غير معقول، يجب عدم السماح له بذلك.

فكرت وبكت، فكرت ونشجت، فكرت، ونسيت بعض التبن والحصى في الحمص، فكرت، وبكت، ولكن للضرب الذي نالته حين اكتشف التبن والحصى في الحمص، وأخيراً أشرقت الفكرة: وداد لن تموت، ستهرب بها، ستخفيها، ستفعل كأم موسى، ستهرب بطفلتها من فرعون، ستقاتل للاحتفاظ بها، ولن تتركه يخنقها.

ـ ستصير مستورة.

ـ إذا كان قدرها أن تصير مستورة، فلتصر، ولكن لن أتركها تموت.

وولدت وداد الرابعة، وكانت جميلة، جميلة جداً، وحاولت أن ترقق قلب عبد الله عليها، ولكنه قال: جميلة جداً؟ هذا يؤكد أنها ستصير مستورة!

وقررت أن تنفذ خطتها، فلم تتركه يختلي بها أبداً، كانت تودعها لدى الجارات كلما حضر، تخفيها في السقيفة إذا لم تستطع إيداعها لدى الجارات، تخفيها خلف الفرشات في اليوك، وكانت قد أفردت لها مكاناً لا تختنق فيه، وكأن الصغيرة أحست أنها تتآمر مع مريم ضد عبد الله، فسكتت، لم تكن تبكي ولم تكن تكاغي إلا إذا داعبتها مريم وحيدتين.

وكبرت البنت، نجت من الموت خنقاً، وعرف أهل الحارة بوجودها وخاف لو خنقها وقد كبرت أن تشكوه مريم للشرطة، ويعود إلى السجن، فصمت على مضض، ولكنه كان ينتظر الفرصة، الفرصة التي لن يسمح فيها لوداد أن تصير مستورة، وكان يمكن له أن يتخلص منها رغم بلوغها السنوات الثلاث لو لم يمد رأسه في ذلك المغرب من فتحة الحارة، ولو لم يكن رجال بهيج الخطيب خائفين منذ سمعوا أن سنغاليين قد قتلا في الليلة الفائتة في كيوان، وأنهما حين عثر عليهما في الصباح كانا عاريين يلتمعان كباذنجانتين. وكان يمكن له أن يتخلص منها لو تأخر في التطاول برأسه دقيقتين حتى تعبر الدورية، وكان يمكن له أن يتخلص منها لو

لم تنه مريم تنقية الفول والحمص مبكرة هذه المرة ليسارع بإيصالها إلى القميم قبل حلول الظلام، ولكن حظ وداد الطيب هو ما جعل الكتلة الوطنية ترفض تشكيل الوزارة قبل توقيع معاهدة 1936، وكان حظ وداد الطيب هو ماجعل المفوض السامي بيو يرفض العودة إلى معاهدة 1936 ويشكل وزارة من المستقلين برئاسة نصوح البخاري، وكان حظ وداد الطيب هو ما جعل بيو يماطل مع البخاري حتى يضطره إلى الاستقالة بعد أقل من شهر ونصف، وكان حظ وداد الطيب ما جعل المسيو بيو يكلف بهيج الخطيب بتشكيل وزارة من مديري الوزارات العامين، وكان حظ وداد الطيب هو ما جعل التجار يضربون فيصاب بهيج الخطيب بالذعر، ويأمر بحظر التجول، وكان حظ وداد الطيب ما جعل أولئك الرجال من الفوج السوري يقومون بدوريتهم في ذلك المساء، في تلك الساعة، في حارة التعديل، وكان حظ وداد.... ماجعله يتطاول برأسه في تلك اللحظة لينتثر نخاعه الأبيض الموشح بدم أحمر على جدار الحارة البازلتي.

وكان على مريم أن تبدأ حياتها من جديد. كان عليها أن تستأنفها أرملة تزن مئة كيلو، ولم تبلغ الخامسة والعشرين، وليس لها من أحد في الدنيا إلا وداد، ثم تتلفت من حولها فلا تجد إلا حسيبة الجوقدار وابنتها زينب لتلتقي أرملتان ويتيمتان تحاولان جعل الحياة ممكنة أيام الحرب الصعبة، ولكن هذه الحياة السهلة لم يقدر لها أن تستمر، فلقد طرق باب حسيبة ذات مساء وجاء إياد الجوقدار ذلك الابن العم البعيد لحمدان والذي كانت تسمع عنه الكثير، عن سفره إلى باريس، وعن فشله في الدراسة، وعن انغماسه في السياسة، وعن كتابته في الصحف.

كانت هذه هي المناسبة الثانية التي تراه فيها، أما الأولى فقد كانت عند وفاة حمدان حين اهتم بكل الترتيبات، فجهز القبر، وجاء بالمقرئين، وقام بواجبات الحداد كاملة في رجولة لم تستغربها فقد كان القريب الذكر الوحيد المتبقي لهذه العائلة بعد وفاة حمدان.

طرق الباب كسيف الوجه قال: أم عمر، أنا أعرف أن ما سأطلبه صعب، ولكن ليس لدي سواك.

قالت: تفضل.

قال: أنا أعرف أن ابنة صياح المسدي لن ترفض لنا طلباً كهذا الطلب.

وشكَّها قلبها. فلماذا يذكر صياح المسدي الآن، ولكنها بوجهها القطيفاني المدور الكبير المتحفظ، قالت: تفضل.

قال: صديق هارب من الفرنسيين، ومن بهيج الخطيب، نريد أن يختفي عندك يومين.

قالت: ولكننا امرأتان وحيدتان، فكيف نخفي لدينا رجلاً غريباً؟.

قال: لأنكما امرأتان وحيدتان، فلن يشك باختفائه لديكما أحد. أسبوعان، أسبوع فقط حتى تنجلي الغمة، وتكون خدمتك لقضيتنا بلا حدود.

ووافقت حسيبة، ودخل فياض الشيزري بيت الجوقدار.

(11)

حين فتح ذلك الطبيب الكهل الممتلئ باب غرفة الفحص لينظر إلى الصالون حيث ينتظر المرضى لاحظ في الصالون عدداً من الشبان أحدهم ملتح.

قال الطبيب الكهل بصوته الهامس الحيي: دور من؟

فتقدم اثنان، وقال الملتحي الذي كان يمسك بطنه بيده يئن وذراع الآخر تحتضنه: الأخ قادم معي ، فقال الطبيب للملتحي:

تفضل.

ودخل الملتحي ومعه رفيقه، وكاد الطبيب يعترض، ثم أهمل الأمر، فلعل الآخر أخوه، أو لعل المريض يخاف الوقوف أمام الطبيب وحيداً، فتقدمهما إلى حيث منصة الكشف: تفضل استلق، واكشف بطنك.

تلكأ الملتحي قليلاً، ولكن الطبيب ابتسم ابتسامته المطمئنة المحترفة:

- تفضل هاهنا.

وأشار إلى المنصة، ساعد الآخر الملتحي حتى استلقى على المنصة، ثم كشف عن بطنه، حمل الطبيب سماعته، وانحنى فوق المريض، فألصقها بقلبه ودار بها فوق رئتيه: تنحنح. اسعل.

كان يهمس وهو يرى الآخر يتراجع شيئاً فشيئاً، ولكنه لم يهتم للأمر، فلابد أنه سيرتاح على الكرسي القريب.

أنَّ المريض الملتحي حين ضغط على بطنه، فأخذ الطبيب يجيل أصابعه في بطن المريض الملتحي في حركات محترفة يبحث عن مكان الألم بدقة حين لاحظ نظرة خاصة في عين الملتحي، وكان قد لاحظ تحرك ظل من خلفه، ولكنه لم يفهم النظرة ولم يتابع الحركة حين... انطلقت عدة رصاصات جعلته ينحني فوق الملتحي، ويسأل في خوف: ماهذا؟

كانت هذه كلماته الأخيرة لأن ركبتيه ارتختا فجأة، وسقط فوق المريض تماماً وهو ينظر إليه مندهشاً لا يصدق.

حين سمعت حسيبة الخبر لم تصدق: الدكتور عبد الرحمن الشهبندر قتل؟

وصرخت في لوعة، صرخت كما لم تصرخ حين جاءها مصطفى العربيني يخبرها بانفجار لغم عين هاشوفيت في صياح المسدي، وضياعه منها إلى الأبد.

حين سمعت حسيبة الخبر صرخت كما لم تصرخ حين رفعت الشرشف عن وجه حمدان لتجده أبيض هادئاً مستريحاً، وكأنه ماكان ينتظر في حياته كلها إلا هذه الراحة المطمئنة.

صرخت كما لم تصرخ حين فقدت عمر وياسين وأحمد ومحمد علي ومحمود، فقد كانت المصيبة كبيرة، وأكبر من أن تحتمل، الدكتور عبد الرحمن الشهبندر مثل صياح المسدي الأعلى يقتل في عيادته؟ وزير خارجية الحلم الفيصلي يقتل في عيادته؟ صديق المستر كرين يقتل في عيادته؟ رجل المنشور الأول الطالب للاستقلال **(نحن نطلب الاستقلال التام)** يقتل في عيادته**؟!** وبكت، بكت حتى أشفقت عليها زينب ومريم ووداد، ولكنها لم تكن تعلم أبداً حين بكت كل هذا البكاء المر أنها بعد يومين فقط ستستقبل وتؤوي في بيتها الرجل الذي ضجت المدينة كلها تتهمه بقتل معلمه ومرشده السياسي، فقد انتشرت الشائعات بسرعة، انتشرت كما تنتشر كل الأخبار التي يريد لها رجال السياسة التحتيون الانتشار، بل وتجرأت صحيفة على إعلان الاتهام في صفحتها الأولى تقول: فياض الشيزري يقتل معلمه ومرشده السياسي الدكتور الشهبندر**!**

لكن حسيبة التي كانت قد منعت دخول الصحف إلى بيتها منذ سمعت بتلك الشجارات السخيفة بين الزركلي والعظمة، وأرسلان ولطف الله، لم تقرأ ما كتب عن فياض، ولم تعرف أنه المتهم الأول بقتل الشهبندر كما كانت كل الصحف تدعي، لذلك حين وافقت على إلجائه في بيتها ماكانت تعرف أن شيئاً كهذا يمكن لها أن ترتكبه.

حين نظرت حسيبة إلى فياض وإياد في غرفة الاستقبال فوجئت تماماً، فقد كانت تتوقع أن ترى واحداً من رجال الجبل، كانت تتوقع صياح المسدي آخر وإن أصغر عمراً، كانت تتوقع مصطفى العربيني آخر، كانت تريد أن تراه هكذا، وكان يجب أن ترى ما تريد، ولكنها فوجئت بفياض آخر غير الذي لامت نفسها بعد مضي إياد على ارتكاب غلطة استقباله في بيتها، فقد ألح عليها السؤال بعد اختلائها بنفسها: ماذا سيقول الجيران من أهل التعديل والقنوات حين يعلمون أن بيت حمدان الجوقدار الذي لا يسكنه إلا حسيبة وزينب، ولا رجال فيه قد دخله رجل غريب لم يره، ولم يعرف به أحد من قبل**؟!**

للحظة قريبة قررت أن تصرفه بالحسنى، فما لها ولهذه المشاكل ولكنها حين أنهت ترتيب الفرنكة، وألقت عليها نظرتها الأخيرة، وقررت صرفهما بالحسنى رأت كهلاً وصبية يقفان يثقلهما الخوف

والخجل، والحس بالصغار أمام هذا العالم اللامبالي. تذكرت كيف كان صياح يتنفس بصعوبة وهو ينتظر فتح الباب بينما كانت تتمنى لو كان لها جناحان لتطير بهما إلى الجبل هاربة من ذل طرق أبواب الغرباء، نظرت إلى الفرنكة ثانية، الأرض المفروشة ببساط حلبي أحمر، السرير الخشبي والشراشف العاطلة عن التطريز،والطاولة الصغيرة إلى جانب النافذة، وبهدوء وجدت شكوكها جميعها تتهاوى، ووجدت نفسها تتخذ القرار الذي كانت، وكان إياد يعرف أنها ستتخذه. نادت مريم، طلبت إليها إحضار مطرقة وبضعة مسامير، حاولت مريم التساؤل، ولكن الوجه القطيفاني الأصم جعلها تبتلع سؤالها، فتحضر المطرقة والمسامير، تتناولها حسيبة، تدق المسامير في مصراعي النافذة المطلة على الديار، تثبتهما فلا ينفتحان، تفعل كل هذا أمام عيني مريم المندهشتين حتى الاتساع:

ـ ولكن لماذا.

ـ لا يجب أن يطلع على ما يجري في الديار.

ـ من؟

وتذكرت حسيبة أنها لم تحدثها عن إياد، أو الضيف اللاجئ الذي سيصحبه إلى البيت، ترددت قليلاً ثم قررت ألا تخبرها، فمن يدري؟!

ـ لا. قريب بعيد.

ـ وسينزل هنا في الفرنكة.

ـ نعم. ولم لا؟

ـ لا. لاشيء... ـ وابتعدت مستغربة ـ ولكن..

ـ مريم أنت ستغلقين فمك، ولا شأن لك بشيء.

وأدركت مريم رغم كتلتها العظيمة أن هناك ما يجب الصمت عنه وأن تآمراً معيناً عماده الصمت يجب أن يقوم بين النساء الأربع.

حين طرق إياد الجوقدار باب حمدان الجوقدار المحفور مربعات ومثمنات ومسدسات وعطاءات الزخرفة العربية الثرية لم يكن بإمكانه أن يذكر أبداً أن هذا هو الباب الذي استقبل قبل خمس عشرة سنة طرقات صياح المسدي مع ابنته حسيبة التي ستصبح فيما بعد

حسيبة خانم الجوقدار، ثم الست أم عمر! ولكن حسيبة نفسها حين فتحت الباب، ورأت إياد وإلى جانبه فياض يلف رأسه بالكوفية تذكرت تلك اللحظة كاملة، بخوفها وتوجسها، وأملها، وتمنيها الطيران بعيداً عن هذه التجربة.

فتحت الباب، وحين رأتهما لم تفعل إلا أن استدارت بجسمها الطويل العبل الملتف نصفه الأعلى بالمنديل الأبيض الكبير، وقالت: تفضلوا. نظرت إليه ثانية وهو يهرب من نظراتها إلى البارودة المعلقة والطبنجة والكنبات والسجادة، كانت تريد أن تعرف: أي الرجال هو؟ وكانت تعرف أن عيون الرجال مفاتيحها، وكانت أيام الجبل قد علمتها أن تنظر في عيني الرجل مباشرة دون أن تستخدم اللغة، وكانت هذه النظرة كافية لمعرفة مايريد. ولكن فياض كان يهرب من عينيها وكان إياد يثرثر ويثرثر، يتحدث عن جريدة، وعن حريق، وعن مقال كتبه فياض أزعج الفرنسيين، ولكن هذا الشاب النحيل الطويل ذا العينين الخضراوين لمحتهما عند الباب الخارجي، ثم لم تستطع تكرار تلك اللمحة، كان صامتاً، صامتاً تماماً. أتراه صمت صياح؟! أم صمت الماكر لا يحب كشف ورقه منتظراً الآخرين ليكشفوا ورقهم؟

مشت أمامهما بجسمها العبل الطويل تصعد الدرج، ويتبعانها تريهما الطريق، وكانت مريم حين رأتهما قد أسرعت بجر زينب ووداد للاختباء معها تحت الدرج فلا يراهما هذان الرجلان.

فتحت باب الفرنكة، أشارت لهما بالدخول، أرتهما السرير والطاولة والنافذة المغلقة، وقال إياد: لن يطول بقاؤه أكثر من أسبوع.

ـ لا بأس ـ قالت باقتضاب، ونزلت الدرج ببطء، وكان بإمكانها أن تعرف نوع الحوار الدائر بين الرجلين، ولكنها مالبثت أن سمعت خطوات إياد تنزل الدرج، ثم نقره باب غرفة الضيوف.... فتحت له الباب، ودخل.

ـ هه. ما رأيك؟

ـ فيم؟

ـ في الشاب. أليس مسكيناً؟

نظرت إليه بحدة: وهل فتحنا بيتنا ملجأ للمساكين؟

ـ لا. ما عنيت هذا؟ـ

ـ فماذا عنيت؟

ـ أعني أنه لا يخيف.

ـ ومن يخاف من قصبة كهذه؟

نظر إليها مفاجأ بجوابها، ثم أطلق ضحكة مرددة، ومشيراً إليها بملامح وجهه ويديه أن تتابع الضحك معه، ولكنها لم تستجب، بل وقفت تحدق فيه فقط، فاختصر الأمر، وقال: أما عن الطعام فلا تتعبي نفسك نحن نؤمن له ما يحتاج.

أحست حسيبة للمرة الأولى بالإهانة، فكيف يتحدث هذا الولد؟

انتفضت قائمة وقالت: إن كنت تظن أن هذا البيت فندق، فأنت مخطئ أستاذ إياد، هذا بيت حمدان الجوقدار، وبيت حمدان الجوقدار لا يقبل أن تكون ضيافته مجزأة.

صدم إياد للمرة الثانية في دقيقة، وفي محاولة لإصلاح غلطه وقع في غلطة أخرى: قال: أنا ما عنيت الإهانة ولكني ما أردت إتعابكم.

ـ أنت حين جئت إلي قلت إنك قادم إلى ابنة صياح المسدي. صحيح؟

ـ صحيح.

ـ وابنة صياح المسدي لا تستطيع رفض لاجئ من رفاق الجبل.

ـ و.... لكنه....

ـ لكنه ماذا؟

ـ ليس من رجال الجبل..

ـ فمن رجال من إذن؟

ـ إنه من رجال القلم.

ـ المعنى؟

ـ إنه صحفي.

ـ صحفي، يعني يكتب بالجرائد؟

ـ نعم.

وأطلقت ضحكة قهر كبيرة، ففراستها كانت على حق، إذ لو كان من رجال الجبل لنظر في العينين مباشرة يسأل ويجيب، ولا حاجة لمخادعات اللغة.

للمرة الأولى منذ سنوات وسنوات أحست حسيبة بالخوف، فما إن حل المساء حتى بدأت تتوجس، فمن هذا الرجل؟ ماهذا الرجل؟ كيف سيصنع حين يأتي الليل، وينام الناس. ألن تراوده نفسه لفعل شيء ما؟ ما الذي تعرفه عنه؟ ولعنت نفسها لقبولها هذه المغامرة وحين عرضت مريم أن تنام عندها الليلة مع وداد لم تستطع إلا أن توافق.

في خفية عن النساء الأخريات أنزلت حسيبة الطبنجة المعلقة على الجدار، طبنجة صياح المسدي التي لم يتمكن من حملها معه إلى فلسطين، أنزلتها، جربتها قليلاً، لاتزال صالحة، شحنتها، ثم أخفتها تحت الوسادة.

ليس هذا فحسب بل ومضت إلى المطبخ، فحملت ذراع الهاون، أخفته تحت ثوبها الطويل، وانسلت به إلى الغرفة، ودفعته تحت الديوان في متناول يدها.

فيما بعد، وبعد عدة سنوات قالت مريم:

ـ كنت بادية القلق، وكنت أشد منك قلقاً، ولكنك حين شحنت الطبنجة كدت تميتينني رعباً.

ـ فهل رأيتني؟

ـ كان مكانها واضح البياض مقروناً ببقية الجدار.

ـ هل رأيتني أشحنها؟

ـ بالطبع، ورأيتك تخفين يد الهاون تحت الديوان، فقلت: يا رب ارحم.

فيما بعد وحين كانت حسيبة تذكر تلك الليلة كانت تسخر من نفسها كثيراً، فكيف خافت من تلك القصبة، بل وكيف خطر لها ولو للحظة أن شاباً حيياً لا يجرؤ على النظر في عيني امرأة يمكن له أن يفعل ما يخيف؟ هه.

فيما بعد، وبعد إصابة حسيبة باللقوة، ونفورها من الرجال عارفة بأن معركتها معهم قد حسمت، وحين كانت تفكر في تلك الليلة ذكرت فجأة كيف أفاقت في منتصف الليل على حركة في المربع حيث كانت تنام مع النساء الثلاث، فتحت عينيها، كانت الغرفة مضاءة بآخر ذبالة مصباح الكاز الذي كان ينشر الظلال والاهتزازات من حوله، رفعت رأسها، حدقت في زينب، كانت تنام مستسلمة وعلى وجهها تلك البسمة البريئة الحبيبة، حدقت في الكتلة العظمية لمريم تغط إلى جانبها، أرادت أن تنظر إلى وداد حين فتح الباب، فتسمرت، مدت يدها تحت الوسادة تبحث عن الطبنجة، ولكنها لم تجدها، اتسعت فتحة الباب وأحست بالرعب يرعشها، فأخذت تبحث عن الطبنجة بعصبية، فتح الباب تماماً، ولكنها لم تجد الطبنجة.

حين تأكدت أن الطبنجة غير موجودة دخل، وهالها منظره الضخم وطوله الفارع، إنه صياح، ولكن، لا، ليس صياح، فصياح مات منذ زمان، ولكن الطول طوله، وتقدم في الغرفة، وتقدم دون صوت. يا إلهي! إنه هو الضيف الجديد! ولكن كيف يجرؤ؟! أرادت أن تصرخ، أن تعول، ولكنها مازادت على أن أصابعها أخذت تنكش بعصبية في ثوبها وجيوبها تبحث عن الطبنجة، إنه يقترب، ومع اقترابه وقع ضوء المصباح على وجهه. إنه عبد الله... عبد الله؟ معقول! ولكنه هو بعينيه المكحولتين، وشاربيه الأعقفين المحمرين، ولكن عبد الله قصير مربوع، فكيف يمكن له أن يكون بهذا الطول؟ لا. إنه ليس عبد الله. اقترب. صحيح إنه ليس عبد الله فهاتان العينان الخضراوان ليستا لعبد الله. إنهما للضيف، وحين تأكدت أنهما للضيف صرخت، صرخت مرعوبة ترتجف...

وقالت مريم: اشربي. اشربي كأس الماء هذا.

وشربته، ونظرت من حولها. أين الرجل؟ ولم تجرؤ على السؤال. نظرت إلى زينب. ما تزال نائمة فكيف استيقظت مريم إذن؟

ـ كنت تئنين وترتجفين. أهناك ما يضايقك؟

نظرت إلى الوجه السمين الطيب، ثم هزت رأسها في نفي: لا.

أدارت ظهرها لها، وعادت إلى النوم.

فيما بعد، وبعد سنوات الخيبة واللقوة والمرارة، وحين كانت تذكر تلك الليلة بأحلامها القاسية كانت تتساءل: أتراها اهتمت به منذ تلك الليلة؟ ثم تعود إلى التساؤل: أهو الاهتمام فعلاً، أم الحرمان وحمدان قد مضى على غيابه سنوات؟ وعلى عزلتها في هذا البيت وحيدة من صياح وحمدان وعمر وياسين وأحمد ومحمود ومحمد علي ثم... خالدية.... سنوات... خالدية التي كانت الصديقة والرفيقة والنجية، وكانت تعجب لنفسها حين يأزقها مأزق ولا تعرف التصرف فيه، فتقيم خالدية من قبرها الزهري لتأخذ مجلسها المعتاد عند البحرة، وتمسك بأناملها المصفرة تلك السيكارة الملفوفة الرفيعة عند الفم، والغليظة عند نهايتها المشتعلة، تدخن وتنصت إليها، تدخن وتنصت ثم تقول كلمتين، وتمضي.

في اليوم التالي، حملت حسيبة إليه الفطور بنفسها، كانت تريد أن تحسم الشك باليقين، كانت تريد استخدام حدوسها، وغرائزها كاملة، كانت تريد معرفة كل شيء عن هذا الضيف الذي أفزعها وأرَّق ليلها. ولكنه لم يتكلم، تناول لقمتين، شرب كأس شاي، وقال: شكراً.

وكان من الواضح أنه يريد أن يخلو بنفسه، قالت: ولكنك لم تأكل! قال: شبعت، قالت: سأترك الصينية على الطاولة فلعلك تجوع. ولكنه لم يجب، تركت الغرفة غاضبة قليلاً ومضت.

حاولت شغل نفسها بأعمال المنزل الكثيرة، ولكن مريم ووداد لم تتركا لها فرصة كثيرة للعمل. حاولت شغل نفسها بتنظيف البحرة ولكنها كانت نظيفة، فقد نظفنها جميعاً منذ ثلاثة أيام، وفجأة غضبت من نفسها، غضبت كثيراً، فما الذي يؤرقها ويشغلها، ويجعلها تلوب في البيت بهذه العصبية؟ أهو هذا الولد؟ هذا الولد؟ هـ..ذا؟ الولد؟ أحست نظام حياتها يضطرب، وهدوءه يتزلزل، ولكن لماذا؟ من أجل هذا الولد الذي لن يقيم سوى يومين؟ وقررت أن تطلب من إياد أن يتصرف، فهي لن تحتمل هذا الاضطراب، ولكن أي تصرف والمسكين مطلوب من الفرنساوي، وليس شامياً كما أخبرها إياد، ولا

أهل له في الشام؟ ولو قبضوا عليه، فستكون مسؤولة عما يجري له؟!

ثلاثة أيام انقضت بين نحنحته يطلب النزول إلى الحمام، وتصفيقه يطلب الصعود إلى غرفته، وهروب النساء واختفاؤهن كلما أراد حركة في البيت، وقدوم إياد في المساء يحمل الصحف والمجلات والكتب، ثلاثة أيام من القلق والاضطراب كان يمكن لها أن تستمر طويلاً لولا سماعها وزينب ـ فقد كانت مريم ووداد قد مضتا إلى بيتهما ـ ذلك الناي العجيب الذي انطلق من الفرنكة.

حين تناول فياض ذلك الناي الملقى على الطاولة والذي نسيه إياد لديه، والذي علق قائلاً وهو يريه له: كنت أظن أن الناي هو ما يعزف حين رأيت ذلك الشاب يغني به كل تلك الأغنيات في سوق الحميدية ولكن يبدو أنه العازف.

وضحك ساخراً: ليس الناي!

وضعه جانباً دون أن يأبه به، فلقد جرب العزف به، ولكن التجارب كانت فاشلة، ثم ثرثر، وثرثر متحدثاً عن ملاحقات واتهامات وهروبات، وقال فياض في هدوء مر: ولم يقبضوا على القاتل بعد؟

ـ قبضوا على مشبوهين ومتهمين كثيرين.

ـ ولم يعترف واحد منهم بعد؟

ـ لا.

وتنهد فياض: هذا يعني أن اختفائي سيطول.

يبدو أن الأمر كذلك، ولكن ـ حاول أن يضيف بلهجة مبشرة ـ يبدو أن الحملة ضدك قد هدأت قليلاً.

ـ آه.... قليلاً.

حين مضى إياد لم يلحظ فياض الناي في البدء، ولكن الملل والكتب المعادة القراءة الموضوعة جانباً جعلته يمسك تلك القصبة الغشيمة يعابثها بفمه قليلاً ويكتشف أنها بحاجة إلى ضبط، يستخرج

سكين جيبه الصغيرة يضبط فتحاتها متذكراً قصب العاصي، وتجفيفه، ولذعه بالنار ليقسو، حفره، ثم تجربة الناي فيه.

ضبط القصبة، نفخ فيها هامساً بعض الشيء، وبهدوء وجد القلعة وشيزر والطفل اليتيم الضائع في دروب الحياة تنبثق، تنبثق بهدوء أمامه.

حين انطلق فياض يغني متذكراً الأصائل والضحى في ظلال قلعة شيزر وقد امتد العاصي تحت قدميه مغللاً بالصفصاف والطرفاء، حين انطلق يغني لم يكن يغني، بل كان يتذكر، يتذكر أركان القلعة، خباياها، حمامها البري، أرانبها المذعورة، حدأها المحومة، النهر الأخضر المتسلل المخيف تحت أقدامها، القرية المتعرجة بديوكها الصائحة وكلابها النابحة فوق الجدران، ومياه مجاريها السود، تتسلل بين الحارات قبل أن تجففها الشمس القوية الجارحة، فانطلق يغني وجرح في القلب وجد أخيراً متنفساً له. انطلق يغني شاعراً بأن البخار القديم، العتيق، المكبوت هناك في الداخل، وجد أخيراً مسرباً عبر هذه الأنبوبة القصبية ذات الثقوب، فأحس وهو يغني... بالصفاء والانطلاق وأنه أخيراً قال ما انقضت سنوات وسنوات وهو يتمنى قوله.

لكن المسلي في الأمر أن فياض حين أمسك بنايه البازاري ذاك، وغنى، لم يكن يعرف، ولم يخطر له أبداً أنه بإمساكه تلك القصبة المثقبة ونفخه فيها قد هدم سوراً عمره عشرات السنين، سور بناه حمدان وأبو حمدان، ورعته وسيلة خانم، ونفيسة خانم، وآسية خانم، وصبحية خانم، سور عمره عمر السفربرلك والحزن المقيم في مدينة تخشى الفرح، وتخشى الحزن، وتخجل من إظهارهما للآخرين **(خلها في القلب تجرح ولا تخرج للآخرين فتفضح)** فتحولت إلى كبوت مخبوءة في عمق القلب، سور وضع أساساته جد الأسرة القديم الشيخ عبد العزيز ذاك الذي لم يقطع فرضاً، ولم يهمل سنة، ولم ينم ليلة على غير طهارة، سور كان الشيخ عبد العزيز قد فرضه على نفسه منذ وهبه شيخ البحرة الأساس المادي لثروته، وتحرره من ذل العمل أجيراً ليتحول إلى دكنجي، سور فرضه على نفسه وأهله منذ أن خرج في إحدى تلك الليالي ليقضي حاجته، فلقي شيخ البحرة واقفاً

إلى جانبها يلتمع بالنور ودرر الماء المتسربة من لحيته، فلم يفزع، بل قال بقلب قوي مكملاً طريقه إلى الحمام: السلام عليكم.

وكانت مكافأة شيخ البحرة لجد الأسرة كبيرة تتناقلها الأجيال، ويتحدثون بها في السهرات حتى تعددت الروايات، وتكاثرت، فبعضها يقول: إن الجد صافحه، فكانت المكافأة تحول الشيخ كله إلى كيس مملوء بالليرات الذهبية، وبعضها يقول: إن شيخ البحرة قد خاف من الجد الأكبر فهرب إلى البحرة، ولكن الجد أصر على السلام عليه ومصافحته، فأمسك بتلابيبه قبل أن يغطس تماماً في البحرة، فتحولت البحرة إلى صندوق كبير امتلأ بالليرات الذهبية والفضية، وبعضها يقول، ويقول، ولكن الروايات كلها تتحدث عن قوة قلب جد العائلة الأكبر، وخوف شيخ البحرة، وإعطائه تلك الثروة التي قفزت بالأسرة من الصنايعية إلى الدكنجية.

هذا الجد فرض على الأسرة فيما بعد، واحتراماً لهذه الهدية السماوية، احترام كل سكان الدار الآخرين شيخ البحرة، وشيخ البير، وشيخ المطبخ والحمام، وجعل لكل منهم طقساً يجب على الجميع احترامه، هذا الجد منع الفرح والهذر من دخول البيت، فلا فرح للمؤمن إلا بلقاء وجه ربه، والفرح الوحيد المسموح به كان فرح العرس، أو فرح يوم المولد النبوي، وماعدا ذلك فكل الأفراح مؤجلة حتى لقاء وجهه تعالى يوم الفرح الحقيقي.

حين سمعت حسيبة ذلك الناي انتبهت فجأة كمن يستيقظ من حلم عميق: يا إلهي! أما يزال هناك نايات تعزف، وفرح يشدو إذن؟!

حين سمعت حسيبة ذلك الناي تذكرت فجأة أنها لم تسمع نایاً، ولم تصغ لعود، أو دربكة منذ ذلك اليوم الذي طرقت فيه مع صياح باب حمدان الجوقدار بعد أن لفظهما الجبل منذ سنوات وسنوات!

حين سمعت حسيبة ذلك الناي تذكرت حمدان ورفضه الفونوغراف، والراديو، وكل بدع الشيطان، فالفرح الوحيد كان الصلاة ودرس الشيخ عبد الكريم، وسماع أخبار المقاتلين والمجاهدين والفاتحين من الصحابة والتابعين، وانتظار الجنة التي وعد بها المتقون.

حين سمعت حسيبة ذلك الناي تذكرت صياح، والتغير العجيب الذي حل عليه منذ دخل بيت حمدان. تذكرت أنه لم يعد يضحك لنكتة، ولا يبش لمزحة، ولا يفرد وجهه للرغيف السخن كما يقولون، وبدلاً من الغناء والعتابا والميجنا التي كانت تسمعها منه في الجبل لم تعد تسمع منه إلا نداءه الصباحي: أفلح من قال لا إله إلا الله، وحين كانت تسمع بقصة الجد الكبير الشيخ عبد العزيز والنذور التي قطعها على أبنائه كانت تتساءل:

أترى صياح وقع ضحية للنذر أيضاً؟!

حين سمعت حسيبة ذلك الناي البازاري تذكرت خالدية خانم التي حاولت قنص الفرح من كبد السماء بأصابعها العارية، ولكنها بعد كل مغامرة كانت تعود كسيفة كسيرة لا ملجأ لها إلا بيت الشيخ عبد العزيز الذي رد عليه شيخ البحرة سلامه بفم يتغرغر بالماء، ثم لا تجد أمامها إلا أن تخضع للشرط العام، فتلفظ العود والدربكة وتنسى الغناء والبهجة والرقص والمتع الحسية الوضيعة كلها.

حين سمعت حسيبة ذلك الناي البازاري تذكرت مريم وحياتها العجيبة التي نقلتها في بيت عبد الله إلى كرة ثكلى بأربع بنات، ثم أكمل الزمان قسوته، فلم يحفظ عليها حتى قسوة العيش في كنف عبد الله لتبقى الأم الثكلى الحزينة لاتستطيع أن تجد الفرح حتى لو بحثت عنه.

حين سمعت حسيبة ذلك الناي البازاري وقف شعر بدنها، فقد اكتشفت تحطم ذلك السور الذي أقامه الجوقداريون حين منعوا كل غناء إلا: أمن تذكر جيران بذي سلم منعت دمعاً جرى من مقلة بدم، يرد عليه الحاضرون بإنشاد جماعي، مولاي صل وسلم دائماً أبداً على حبيبك خير الخلق كلهم.

حين سمعت حسيبة ذلك الناي البازاري شعرت أن هذا العزف حرام، فانتصبت لتمنع هذا المنكر بيدها، ولكن الناي مالبث أن رقَّ ورقَّ، شدا، وحزن حتى نام الشعر الواقف في جسمها، ورأت جذوع الشيح تتمايل، وشمَّت بقايا حطب يحترق تحت إبريق الشاي، وسمعت صدى طلقات بعيدة تقصف، ولمست وجه صياح يتلوى تحت وقع هذا الناي.

قالت زينب: ما هذا الصوت؟

قالت حسيبة هامسة: إنه الناي.

قالت زينب: إنه جميل.

قالت حسيبة: صحيح إنه جميل، ولكن عجيب، متى تعلم هذا العزف؟ لا يبدو لي فلاحاً ولا راعياً، فأين تعلم هذا؟

قالت زينب: أحب هذا الصوت.

قالت حسيبة وقد أمسكت بيدها: تعالي معي نسمعه فوق.

قالت زينب مفاجأة: فوق؟ عنده؟ وأرادت أن تقول: عند الرجل؟

قالت حسيبة: نعم تعالي.

وتبعت زينب حسيبة تصعدان الدرج الخشبي بهدوء، يتبعان صوت الناي منجذبتين كفراشتين في ليل عتم إلى ضوء ساطع.

حين صعدت المرأتان الدرج ذكرت حسيبة ولا تعرف حسيبة كيف تسللت هذه الذكرى إلى مخيلتها، ذكرت أول سيران لها مع حمدان وصياح وخالدية والمعلاقين المتبلين المجهزين، واللحم المفروم للكباب والبطيختين، وذكرت سعدية تتمايل تحت الكيسين بينما اكتفى حمدان بحمل البطيختين، وكان لابد من حملهما حتى التعديل، فالعربة لا تدخل الحارة، ذكرت هذا وذكرت الفخر على وجه سعدية وهي تقوم بهذا الطقس، ذكرت هذا وذكرت الدهشة والفرحة اللتين ملأتاها وهي تخرج لهذا السيران ـ النزهة تغير فيه رتابة البيت ومحدوديته، ولكنها لم تفهم فخر سعدية حتى حدثتها عنه خالدية، فهذا الطقس لا يتمتع به كل الناس، والخروج إلى السيران الأسبوعي في عربة يجرها حصانان لا يقدر عليه إلا حمدان وقلة من أهل الحارة، وحتى هذه القافلة في خروجها من الحارة إلى التعديل طقس تعرف جيداً أن الكثيرات يتلصصن عليه الآن من خصاصهن في حسرة فأزواجهن، أو أبناؤهن لا يستطيعون القيام بهذا الطقس لعدم القدرة على دفع أجرة العربة، أو لعدم وجود البستان الذي يستقبلهم، أو لعدم القدرة على شراء المعاليق أو اللحم وعدة الغداء، لعدم، لعدم....

قالت خالدية: لا تظني الناس كلهم يملكون ما تملكين.

صعدت حسيبة وزينب الدرج منجذبتين إلى صوت الناي كفراشتين، ولكن حسيبة لم تستطع فهم سبب تذكر ذلك السيران، ولكنها حين وضعت قدمها على المشرقة منهية الدرج في طريقها إلى الفرنكة تذكرت فجأة أن ذلك السيران كان الفرح الأول، ثم عرفت جيداً فيما بعد أنه الفرح الوحيد المسموح به في بيت الجوقدار.

حسيبة

(12)

فيما بعد وكان قد مضى على زواج فياض وزينب سنة، سنة طويلة كانت حسيبة فيها قد بكت على كتف خالدية بعد أن أقامتها من قبرها الزهري، بكت وأرقت حتى أنحلها الأرق، وطافت في باحة الدار حافية حتى صار لأعقابها حراشف، وبرَّدت جسمها في البحرة حتى احتاجت إلى تغيير ملابسها خمس مرات في الليلة، ثم.... حاولت التأقلم مع الوضع.

قالت: أنت لم تعرف أي جرح فتحت بعزفك تلك الليلة! ربما كنت تعبث، ربما كنت تتسلى، ولكنك فجأة أيقظت فيّ كل شياطين الجبل.

حين أيقظ فياض شياطين حسيبة الجبلية كما دعتها لم تدر أنه لم يوقظ شياطين حسيبة فقط، بل وأيقظ أشياء كثيرة ما كان يدرك أنه سيوقظها، فلقد اكتشفت حسيبة فجأة أن زينب صارت امرأة، نظرت إليها مندهشة ولم تصدق، نظرت إليها ولم تعرفها، نظرت إلى البريق الجديد في عينيها، إلى الحمرة في الخدين الأبيضين حتى الشحوب، إلى الدموع تتجمع في عينيها، وهمست لنفسها: يا إلهي! البنت كبرت.

وكان يجب عليها أن تدرك أنها كبرت منذ زمن طويل، كان عليها أن تدرك أن زينت حين أنهت كل ما تفترض في فتاة مثلها من تدريب أنها أصبحت امرأة، فلقد قرأت الصُبَّرة عند الحاجة وهيبة، وختمت القرآن عند الحاجة أمينة، ثم حفظت عندها ربع ياسين، وتعلمت التطريز عند خالدية خانم. تعلمت تطريز الأزهار والعصافير والبحرات،بل وتعلمت تطريز خيالات خالدية القديمة التي أقلعت عنها منذ طردت أو طردت من حياة أبو شفتور، وتعلمت الخياطة عند أم راتب، ولكن... يا إلهي! لم أدرك أنها صارت امرأة حتى هذه اللحظة.

كان ذلك عندما اضطرت حسيبة إلى الاستتار في المربع لتسمح لفياض بالنزول إلى الحمام حتى إذا ما اطمأنت إلى إغلاقه باب الحمام من خلفه تسللت مسرعة إلى المربع الثاني لتفاجأ بزينب وراء الشباك وقد أزاحت الستارة قليلاً تراقب نزول فياض، ونسيت نفسها حتى ضبطتها حسيبة في مرقبها ذاك، قالت هامسة خجلة من سؤالها: ماذا تفعلين؟

واحمرَّ الوجه الأبيض، احمرَّ حتى تسللت الحمرة إلى العينين البارقتين، احمرَّ حتى تجمعت الدموع في العينين، وعندئذ أشفقت عليها، وتمتمت لنفسها: يا إلهي! لقد كبرت البنت، وفي اللحظة التالية همست لنفسها: كانت غلطة، ماكان يجب أن تتم، فمن ذا الذي يسمح لرجل أعزب أن يأوي إلى بيت ليس فيه إلا ثلاث نساء وحيدات وطفلة؟!

قالت: تعالي، وجرتها إلى الديوان، فأجلستها عليه، أرادت الكلام، ولكن أي كلام؟ ماذا يمكن لها أن تتحدث معها؟! فيم تحدثها؟ بل ماذا تقول لها؟

سمعت طرقه المتكرر على باب الحمام ينبههن إلى خروجه، ثم سمعت الباب يفتح وخطواته تضرب الأرض في طريقه إلى الدرج، فالفرنكة. شيء ما جعلها تقوم لتتأكد، فتسللت إلى الشباك أزاحت الستارة قليلاً، راقبت تقدمه، رأته يتقدم ورأسه مطرق إلى الأرض، حتى إذا ما قارب النافذة، رفع رأسه ينظر إلى الفرنكة، رأت أهدابه الصهب الطويلة، ولابد أنه أحس شيئاً ما إذ التفت قليلاً، لم يلتفت إليها في النافذة، بل التفت لترى عينيه الخضراوين الواسعتين تلك العينين اللتين قالت عنهما لخالدية فيما بعد: يا إلهي! ما كان يجب أن يخلقه الله رجلاً، لا. هذا حرام، فمثل هاتين العينين الخضراوين الواسعتين ماكان يجب أن تخلقا لرجل! لا. ما كان يجب. هذه الأهداب الوطف الطويلة والعينان الخضراوان كان يجب أن تخلقا لامرأة تُحِب وتُحَبُّ، لامرأة تعشق وتبذل الأرواح من أجلها، أما لرجل، لا، فهذا إسراف.

وحين سمعته يصعد الدرج التفتت لتفاجأ بزينب تقف خلفها وعيناها تبرقان ذلك البريق الذي لم تره فيهما من قبل، ولم تستطع إلا أن تكرر لنفسها: يا إلهي. البنت كبرت.

وبعد يومين وحين جاء إياد يبلغها أن فياض سيرحل، فلقد أثقل عليهما بما فيه الكفاية سألته:

ـ وهل عرف القاتل؟

ـ لا.

ـ أما يزال في خطر؟

ـ طبعاً، ولكنَّا وجدنا له بيتاً ’آخر.

وعندئذ ألقت قنبلتها: فلم يرحل إذن؟ دعه هنا حتى ينقطع الطلب عنه.

ـ ولكن ـ تمتم إياد ـ لا. لا. لا. لقد ضايقناك بما فيه الكفاية.

ـ لا. لا مضايقة ماداموا لم يلاحقوه إلى هنا، فمعنى ذلك أنه في أمان ـ ثم أردفت في تصميم ـ دعه هنا.

وتلكأ إياد قليلاً ثم قال: ربما كان الانتقال لمصلحته.

ـ كيف؟

ـ يحس بالوحدة فوق، أنت تعرفين ـ ثم أضاف ضاحكاً ـ لقد شكا إلي من أنه يحس أنه في سجن مرتب أكثر مما يجب.

وضحكت حسيبة ثم أضافت: هو على حق، فالعزلة في الفرنكة صعبة ـ ثم تراجعت قليلاً ـ أهو من يصر على الرحيل؟.

ـ لا. فأنا لم أبلغه بعد.

فقالت في تصميم: فلا تبلغه إذن. دعه. أريد أن أشعر أني صنعت شيئاً لمن كتب: (اللهم وشماتة).

وكان إياد قد جلب إليها بعض الصحف القديمة، فقرأت افتتاحيته بصعوبة، وعرفت من هو فياض، وعلى الرغم من أنها لم تتعلم قراءة الصحف، فالقراءة التي تعلمتها في بيت حمدان الجوقدار كانت لقراءة القرآن ودلائل الخيرات فقط، فقد طالعتها جميعاً وعرفت مَنْ فياض، وفي مرة أخرى حدثها عن مغامرتهما في تفجير مصفحة السنغال في الفحامة، فرأت فيه شيئاً قديماً كانت خالدية خانم ومريم وحمدان قد أنسوها إياه: دعه هنا فالمكان آمن.

أنهى إياد زيارته دون أن يفاتح فياض بالرحيل، وحين مضى إياد أرسلت حسيبة مريم إلى فياض لتقول له: ألن تعزف الليلة على الناي؟

وعزف.... ولكنه في هذه المرة لم يعزف لشيزر، وشياهها، وجدائها وفياض الطفل الذي فقده منذ أن جاء روجيه وماتيلد، فتبنياه، وأخرجاه من شيزر وذكرياتها، وقذفا به إلى بيروت يتعلم في سانت جوزيف ثم باريس و....و...... بل عزف عتابا جريحة جعلت حسيبة تبكي صياح الذي تركها أعزل، ومضى إلى فلسطين.

قالت لمريم: مسكين. الوحدة تتعبه، سأجعله يتعشى معنا.

وشهقت مريم: أم عمر، كلام الناس.

ـ أين الناس؟ ثم ماذا يهمني من كلامهم؟ ولد كابني، مجاهد ضاقت به الوحدة، سأجعله يتعشى معنا.

ودخل فياض بيت الجوقدار.

كانت السنوات الأخيرة التي قضاها فياض في دمشق سنوات جدب، فبعد سنوات باريز وفتيات المونمارتر، والمادلين، والفارس الشرقي تلاحقه الجميلات، ويتدلل إذا به يصبح حبيس الملاءات السود، تحوم من حوله أشباحاً لا تغري بالمتابعة، وهو على كل حال لم يكن يحتاج إليها، فقد شغلته السياسة التي انغمس فيها فجأة، وشغلته الصحافة ، وشغله اكتشاف النفس الجديد، فما كان بحاجة إلى اكتشاف مافي هذه الملاءات السود من سحر سري وفتنة مخيفة حتى ساقته المقادير إلى فرنكة حمدان الجوقدار، ليس هذا فحسب بل أمعنت المقادير في لعبها، فرمت الناي بين يديه ليمزق أحجبة الحزن القديم في قلبه فإذا بحسيبة وزينب تصعدان إليه، وكانت المفاجأة كاملة لفياض، فقد كان يتوقع كل شيء إلا أن يرى هاتين المرأتين تصعدان إليه حاسرتي الوجه ملفوفتي الرأس والجسد بالمنديل الأبيض، وظن أنه ضايقهما بعزفه، فقال: أنا آسف، آسف جداً إن أزعجتكم، لابد أني لفت النظر إليكم بعزفي السيء...أ....أنا منزعج من نفسي، أنا خجل، ولكن الناي هذا اللعين خدعني، جرني إليه.

ويندفع إليه يريد تحطيمه وحسيبة تراقبه في دهشة، تراقب وجهه الآسف والخصلة الصهباء المنحدرة على جبينه وشعر سالفيه الطويل. **(كأن فيه حسناً أنثوياً)** همست لنفسها، كان شيئاً مخالفاً تماماً لحمدان المربوع المليء ذي العينين البنيتين الصغيرتين والشاربين الرماديين الطويلين والرأس الحليق، لا. كان هذا مخلوقاً

آخر بهذا النحول والبشرة الصافية والعينين الخضراوين والشعر الطويل والخجل، الخجل المربك، كان يريد تحطيم الناي، فأسرعت حسيبة تمنعه: لا. لن تكسره.

- إنه السبب في هذا الحرج، أعدك أنه لن يتكرر.

- أنا لست منزعجة. صدقني. كان عزفك جميلاً.

وهمس في دهشة: ماذا؟

- ذلك العزف. كنت تعزف بشكل جميل. أين تعلمت كل هذا؟

وفجأة، وربما تحت وقع السؤال ارتد إلى التحفظ والحذر.

- لا. أبداً. كان مجرد تنفيس عن القلب.

وألحت:هذا التنفيس. أين تعلمته؟

أخذ يعبث بإصبعه وراء إذنه، وفجأة اكتشف أنهما واقفتان.

- عفواً. تفضلوا. تفضلوا.

ومرة ثانية يحس بالحرج أن يدعوهما إلى الجلوس في غرفته. فيستدرك:

- إن أحببتم طبعاً.

جلست حسيبة على الديوان الشرقي المواجه للنافذة المطلة على الديار، وجلست زينب إلى جوارها بينما ظل حائراً أين يجلس، وأخيراً اتجه إلى طاولته التي يأكل ويكتب عليها، فجلس، تمتم: أهلاً وسهلاً. ولكن حسيبة قاطعته: سيد فياض أنت مجروح، وأنا أفهم جرحك، ولكن الحياة ستستمر.

كان تعليقها مباغتاً، ولكنه لم يفاجأ كثيراً، فقد كان يتوقع من أم عمر كلمة تعبر عن تجربتها العريضة، ولكنه بعد أن لاك جملتها قليلاً تلوى وجهه، وبدت عيناه الخضراوان وكأنما ستبكيان كانت قد ضغطت دون إرادة منها على زر الأحزان السري، فهتفت: أرجوك أرجوك يا سيد فياض.

قال في صوت جريح: كانت المعركة واضحة فشوشوها. فرنسة عدوة تحتل بلدنا، الأمر بسيط، يجب أن نعمل لطردها.

ـ هذا صحيح.

ـ والآن فرنسا احتلتها ألمانيا، فانقسمت قسمين، وعلينا أن ندافع عن فرنسا التي يسمونها ديمقراطية، فرنسا ما قبل أن تحتلها ألمانيا، إكراماً لله، كيف يمكن تفسير هذا؟

ـ وأنت. ماذا عنك؟

ـ أنا ضد فرنسا، محتلة أو غير محتلة، ضد فرنسا الديمقراطية، وضد فرنسا الفاشية.

ـ ومن يخالفك في هذا؟

ـ رجال السياسة المحترفون. الدكتور بنفسه كان قد لامني على ما سماه تطرفاً.

وهزت برأسها في ألم: كأن الزمن لا يتقدم في هذا البلد!

ـ المعنى.

ـ كان صياح يقول الكلام نفسه، كان يقول: كان الأمر جلياً. الصديق بيّن والعدو بيّن حتى جاء رجال السياسة، فخلطوا الأوراق، فصرت لا تعرف العدو من الصديق. لذلك...

ـ هه.

ـ مضى إلى فلسطين، قال: هناك الأمور لا تزال واضحة، فالعدو لا يمكن له التنكر هناك أبداً.

فيما بعد، وبعد عشاء قضت حسيبة ومريم فيه عصر اليوم كله استند فياض إلى شجرة المسك، ومد ساقيه الطويلتين على البساط الأحمر بينما تحلقن من حوله ملفوفات بالمناديل البيض، وتذكر باريس، فحدثهن عن باريس، ولكنه حين تحدث عن باريس لم يتحدث عن باريس الجغرافية، بل تحدث عن باريسه الخاصة، باريس التي ربما كان لها بعض الجذور الأرضية، ولكنها باريس خاصة. ربما لن يزورها أحد إلا فياض، حدثهن عن باريس ندية

وردية جميلة طيبة مليئة بالتماثيل والمثالين، بالرسوم والرسامين، بالشعر والشاعرين، حدثهن عن قطارات تمشي تحت الأرض، فلا يحس بها الساكنون في بيوتهم، ولا العشاق في عشقهم، حدثهن عن كرات مطاطية تحمل الناس وتطير بهم فوق المدن فتكشف لهم مباهج لم يحلموا يوماً أنها موجودة، حدثهن عن طائرات لا ترمي القنابل، ولاتحرق الدور، بل تحمل العاشقين والأطفال، فتريهم الغابات في زمردها، والبحار في إزبادها، والأنهار في تلويها.

كان يحدث ويحدث ولم يخطر له أبداً أن يذكر أنه يرمي شباكاً قديمة في بحار جديدة.... ثم أضاف في مرارة:

ـ ولكنه أمر غريب، أمر غريب يا أم عمر، فبائعة التذاكر في شباك المسرح، تلك الفتاة الرقيقة الوديعة والتي يمكن الحصول على كنوز من السعادة من مجالستها حول فنجان شاي، هذه الفتاة نفسها إذا ما قدمت إلى ما يسمونه بالمستعمرات، تغير فيها شيء ما فجأة. تجدينها وقد لبست دون حاجة إلى لبسه بالفعل ـ قبعة الفلين والشورت فوق الركبة والسوط من عصب الثور ـ، ثم تنظر إلى هؤلاء المتخلفين البرابرة، والذين يقع عليها هي تحديداً عبء تمدينهم، ولا سبيل إلى هذا إلا بذلك السوط والصوت الآمر.

كان في حديثه لكنة غير شامية، لكنة غريبة جعلت كل ما يقوله يبدو غريباً وكأنه قادم من عالم سحري، عالم بعيد مليء بالأضواء والسحر، والجان المروضين، كان يتحدث وعيون النساء الثلاث تراقبنه، يصغين إلى هذا الأمير الذي ذاق لذة الترحال، ومعرفة العالم صغيراً، وتعرف إلى الفرنجة في ديارهم. وتكلمت زينب فأدهشت الجميع، قالت فجأة في حياء: ولكن لماذا تكرههم إذن؟

ـ أكرههم؟

ـ طبعاً مادامت بلادهم على هذا الجمال، ونساؤهم على هذه الرقة؟

وابتسم ابتسامة خفية في الجلسة نصف العتمة حين سمعها تقول (نساؤهم) بتأكيد خاص فيه عتاب ولوم.

ـ أنا لا أكرههم هناك، بل أكرههم هنا!

حاول أن يشرح لهن الأمر، ولكن اللغة التي استخدمها كانت أكبر من أن يفهمنها، حاول أن يفسر لهن، ولكن يبدو أنه هو نفسه لم يكن يستطيع تفسيراً كاملاً لكلامه، لعلاقته مع فرنسا، تلك العلاقة المعقدة التي تورط فيها معظم متعلمي ذلك الجيل، فقد أحبوا الحرية في فرنسا، أحبوا الديمقراطية، واحترام الثقافة والعلم، ولكنهم كانوا يصدمون إذا ما وصلوا المستعمرات حين كانوا يرون فرنسا أخرى، فرنسا الليجيون ايترانجيه، فرنسا المرتزقة والقتلة ومأجوري الشعوب المقهورة، ولا يستطيعون حلاً لذلك اللغز.

في مرة أخرى تحدثت حسيبة، فحدثت عن صياح وأشواقه، عن صياح وبارودته وكامته، وتنقله مابين جبل الدروز، وجبل القلمون، مابين حمورية وأكروم وسهول حماة، عن لحاقها به من مكان إلى مكان تحمل جنادات الرصاص ولفافات الشاش وأحزان الارتحال، حدثت عن جريمة كبيرة ارتكبتها بحق صياح. ولما استفهم عن هذه الجريمة صمتت، فلم تكن تريد البوح بأن هذه البندقية، وهذه الكامة وهذه الجنادات المعلقة على جدار غرفة الضيوف، كانت يوماً لصياح، وأنها تركته يمضي إلى الثوار أعزل دون سلاح، وكانت حين تذكره، كثيراً ما تتساءل: ترى كيف يذكرها حين يهدأ الليل، وينام الجار، وتقبل الذكريات، ترى هل يلعنها، أم.... يفهمها؟

وامتدت بينهما الجسور، جسور جعلتها تؤمن بأن القدر رغم ظلمه فإنه قد يقدم كوى للسعادة بين الحين والآخر، وإلا فلم قذف إلى صحرائها بهذا الفارس أخضر العينين؟

وفي تلك الصباحات، وعند أول ضوء، وحين يكون الجميع نائمين كانت تخرج إلى الباحة، فتتوضأ من البحرة كما كان يفعل حمدان، تتوضأ وتتنشف، ثم تصلي الصبح، تصلي السنة،والسنة، والسنة تحاول نسيان ذلك النائم في الفرنكة فوق. وكانت أحياناً تتساءل:

ـ إذا كان القدر يحب أن يكرر ألعابه، فلم لا يجعل فياض يخرج إلى المشرقة، ويحاول سرقة العنب من صقالة الدالية الحلوانية كما فعلت؟ ولعله يراها في لحظة إشراق كما رآها حمدان، ولكن فياض ظل نائماً، ولم يفكر مرة بسرقة العنب كما فعلت، وكانت أحياناً تكرر

التساؤل، إذا كان القدر قد ساقها وصياح إلى فرنكة حمدان كما ساق فياض و... جعل حمدان يراها كما حدثها كثيراً، فيحس أن السعادة قد تقلصت لتصبح تلك الصبية المشرئبة إلى الصقالة تقطف العنب. فلم لا يسوق فياض إلى إكمال اللعبة؟

وأرقت حسيبة، أرقت وحزنت، ولامت نفسها، أفيجدر بها وهي الأرملة في الأربعين أن تتعلق بفتى لم يصل الثلاثين، فتى نصفه امرأة؟

وقالت لخالدية مرة بعد أن أقامتها من قبرها الزهري، وأجلستها إلى جانب البحرة، وتركتها تدخن سيكارتها عجيبة اللف، قالت وهي المرأة لم تعرف في حياتها إلا الارتحال وراء صياح، ثم حمدان الزوج، ثم التتلمذ على خالدية لتعلم الدخول إلى مملكة المدن ـ الواحات السرية، فتعلمته حتى أتقنته وتسيدته ـ قالت لها وهي المرأة لم تسمع بكلمة حب إلا في الأغاني تتسرب إليها من بيوت الجيران قالت: خالدية خانم إكراماً لله. أهذا هو الحب؟

وهزت خالدية برأسها في حزن المرأة التي دمرها مرة السير وراء عاطفة ماكانت ترضى عنها مدن الواحات: آه! يا ابنتي. إنه الحب. إنه الحب ولكنه الحب المميت ـ إياك يا حسيبة، حب الرجال الصغار مذل...

وفي مناسبة أخرى قالت لها خالدية جملتها التي لم تنسها حسيبة أبداً حين وصفت الحب، فقالت: آه يا حسيبة يا حبيبتي. ما كنت أتمنى لك هذا القدر، الحب. آخ آخ أخ الحب لو عرفت، وقالت لها جملتها التي حفظتها حسيبة وكررتها حتى ظنت أن خالدية قد قامت فعلاً من قبرها الزهري لحرارة حرقتها: الحب... كلبين علقانين ببعض بيركضوا في الحارات، علقانين ما بيخلصهم إلا ضرب العصي وسطل المي... مساكين. بس من بعد ما بيخلصوهم من بعض بيعرفوا قديش كانوا حمير، وقديش الحب بيشرشح وبيضيع القيمة!

ولكنها مع ذلك أحبته. أحبته ولم تجرؤ على البوح بحبها، أحبت وتمنت لو تصرح، ولكن صياح، وحمدان، وخالدية، ومريم، وزينب وسكان المدينة ـ الواحة جميعهم كبحوها، منعوها من التصريح،

منعوها من إمساكه من ذراعه، والصراخ: افتح عينيك يا حمار، وانظر إلى هذه المرأة التي عشقتك بعد سنوات من جفاف وانتظار.

ولكن فياض كان في عالم آخر، فلقد فتنته البراءة في زينب، فتنه هذا التطلع للمعرفة الدائم في عينيها، فتنه هذا السؤال الأبدي: متى. كيف؟ قل. قل. وقال، وحدث، وبنى عوالم من سحر وشعر وجمال وخيال، وعاد دون أن يحس إلى عالمه القديم ذلك العالم الذي بناه مرة لإيفون، ذلك العالم الذي اضطره إلى قضاء الليالي في بنائه خيالياً لبنة، لبنة، وشجرة شجرة، وخيالاً خيالاً، ورؤية رؤية. سحرها حتى لفها بخيطان سرية من نسيج الحلم، سحرها حتى صارت كفراشة موثقة من كل الجوانب، كعنكبوت ماهرة تحسن نسج الشباك، سحرها حتى لم يعد بإمكانها إلا انتظار قبلة الموت ولكنه.. دون أن يدري اصطاد فراشتين، فراشة سمينة تعج بالتوق والحياة وعسل العمر الحزين، وفراشة طرية ساذجة لا تملك إلا أجنحة الوهم، وحين ضرب ضربته **(قبلة الموت المنتظرة)** فجع قلباً وأدمى روحاً، وأفرح براءة كانت تنتظر. وصرخت حسيبة في صوت دموي: زينب؟

وغض بصره الذي كان يتأمل قبل قليل بارودة صياح وكامته ودرع حمدان الزردي الموروث ورمحه القديم، ذخر وذكريات حسيبة المعلقة على الجدار.

وكررت بصوت ذبيح: زينب؟

وعادت إلى خالدية فبكت على كتفها الزهرية، وقالت: جاءني يخطب زينب، إنه الموت يا خالدية خانم، إنه الموت!

وسمعتها حسيبة تقول من قبرها الزهري: الحب كلبين علقانين ببعض.

وبحثت عن إياد ليأخذه من البيت، يبعده عنها، يطرده من حياتها، فلن تحتمل أبو شفتور آخر، لكن إياد كان مسافراً فلم تستطع أن تطرده بنفسها، وقالت: أنتظر قدومه ليأخذه بعيداً. لن أحتمل.

وأرقت، ودارت في الباحة حافية، ونزلت في البحرة بثيابها لم تخف من شيخ البحرة هذا الذي وهب حمدان ثروته مرة، لم تخف أحداً، كانت تريد الموت، أو الجنون والنسيان.

ولكنه كان نائماً... فوق... في الفرنكة التي تنتصب أمامها الصقالة حاملة الدالية الحلوانية التي سرقت منها ليلة العنب، ورآها حمدان ليرى فيها الجنة التي وعد بها المتقون، دخلت إلى المربع الثاني، ورأت زينب نائمة، نائمة تتنفس في هدوء، وأجنحة سعادة ترفرفت من حولها، وللحظة كرهتها، كرهت الضرة التي ما ظنت يوماً أنها ستكونها، وتمنت لو لم تكن موجودة، تمنت لو اختفت، لو تزوجت قبل مجيء فياض، لو لم تدخل في منافسة معها، ولكنها.... كانت موجودة، نائمة، سعيدة تنتظر مقدم العريس، العريس الذي حلمت به العمر كله وماكانت تعرف أنها كانت تنتظره. تأخر إياد في سفره، واستراحت خالدية في قبرها الزهري، وكرهت مريم التي لايمكن البوح لها بأشياء القلب، فلقد تعلمت من تجربتها مع خالدية أن أشياء القلب لا يباح بها، فسيأتي يوم تنكشف فيه الأسرار. ولكنها يجب أن تصنع شيئاً، يجب. فياض خطب زينب. وهي؟... هي المنتظرة المتشوقة الآملة المتحرقة يتركها ليخطب زينب؟ زينب التي تملك الحياة والمستقبل وإمكان الاختيار! أما هي، فهذه فرصتها الأخيرة، هي تدرك ذلك، ليست فرصتها الأخيرة، بل ربما فرصتها الأولى فهي لم تعرف السهر والأرق والمشي الحافي حين تزوجت حمدان، ولم تعرف الحزن وفقدان الشهية حين خطبها حمدان. كان زواجاً عادياً كمن يقوم بمهمة عادية اعتاد القيام بها آلاف المرات، كانت تؤدي طقساً أدته ملايين النساء من قبل، وهي ليست إلا ممثلة كومبارس في مسرحية كبرى ولكن... الآن... جاء فياض ليحولها إلى بطلة، بطلة لها الدور الأول تحركه، وتختار بنفسها، ولكنها في اللحظة التي رأت فيها نفسها البطلة اكتشفت أنها لم تكن البطلة إلا حسب ظنونها، أما الشريك الآخر فقد كان يراها السنيدة تاركة البطولة لتلك التي لم يخطر لها ببال من قبل أبداً أن تكون البطلة، والمنافسة، والضرة... ابنتها ووحيدتها زينب.

ولكن.... زينب طفلة! ولن تذيقه كؤوس السعادة التي اختزنتها له، ثم.. هي طفلة والعمر أمامها طويل، وتستطيع الحصول على من هو

خير وأكثر جلباً للسعادة... أما هي... وقررت الحصول عليه، تنبيهه، وكزه، و... افتح عينيك يا غبي، وانظر كؤوس السعادة المنتظرة، و... استيقظت خالدية خانم، فحدثتها عن إخواننا البسم الله الرحمن الرحيم، القادرين على فعل أشياء كثيرة، حدثتها عن قدرتهم على التسلل إلى النفس السرية، وبث الحب، البغض، والوفاق والنفار، ولكن... كيف؟ فذكرت لها الشيخ عبد الحميد، ذلك الذي حدثها عن غضبهم منها، وخطف صبيانها، وعدم قدرة حتى الشيخ حمزة على إيقاف عدوانهم فقررت المضي إليه، و.... لعله واجد حلاً!

توضأت، وتنشفت، وصلت الصبح، دعت، وبكت، ورجت وتوسلت، ثم صلت السنة، والسنة، والسنة وأخيراً لفت ملاءتها، ومضت. دقت الباب على مريم، ودعتها إلى البيت، قالت لها: سأمضي لمشوار، أشرفي على البيت.

حملت مريم وداد، ومضت إلى بيت حسيبة تشرف عليه وتعتني به، ومضت حسيبة تضرب في الحارات تبحث عن الشيخ عبد الحميد، اجتازت باب الجابية، عبرت السنانية، وصلت زقاق البرغل، تاهت في الحارات، ضاعت بين الأقواس، والقباب، والشرفات المتعانقة.

واجهت نظرات متسائلة، وخجلت، ولكنها كان يجب أن تجده، كانت تذكر حارة طويلة، وثلاثة أقواس متعاقبة وباباً مؤطراً بالرخام المجزع، وبحثت، كانت تدخل حارات زقاق البرغل حارة، حارة، تتأمل وتفتش، وتمعن التحديق، وأخيراً رأت الباب، عرفته، فلا يمكن لها نسيانه، طرقت الباب، فخرجت إليها امرأة:

ـ الشيخ عبد الحميد، هو هو هوه. الله يرحمه.

وشهقت حسيبة في حزن بارد: مات؟

ـ منذ سنة ألم تعرفي بذلك؟

ـ وكيف لي أن أعرف؟

قالت في حزن كسير، فقد أدركت أن السهم الذي اعتمدت عليه لإذابة الشحم عن قلب فياض كان مفلولاً.

ـ أراك حزنت. أكنت تعرفينه جيداً؟

ـ منذ زمن طويل.

أحزن صوتها الكسير المرأة الأخرى، فدعتها إلى الدخول، ولم تشأ الرفض، فقد كان متعبة حزينة عرقانة، فدخلت، تأملت البيت الذي جاءته مع خالدية، تفحصت كل شيء، البلاط الرخامي الناعم والجدران الحجرية، وسقف الإيوان الملون، ودانتيلا الرخام على الكتبية حتى رجعت الأخرى تحمل إبريق الماء.

ـ تفضلي. لابد أنك عطشى.

وشكرتها، فقد كانت عطشى فعلاً، وشربت، شربت لاتريد الري، بل تريد إطفاء نار حكم عليها ألا تنطفئ. جلست الأخرى على الكرسي المقابل، فسألتها حسيبة:

ـ زوجته؟

ـ لا. نحن سكان جدد.

ـ وأهله؟.

ـ باعوا البيت ورحلوا.

وهزت حسيبة رأسها في فهم، فلا بد أنهم لم يشاؤوا البقاء في بيت الذكريات الحزين، ولكن الأخرى لم تستطع الصمت.

ـ تأخر الولد؟

ـ لا.

ـ تزوج الزوج عليك؟

ـ لا، فقد مات.

ـ زوجاً لابنتك تريدين؟

وكرهت حسيبة إلحاحها، ولكن كان لدى الأخرى شيخ لكل مهمة، وما على حسيبة إلا أن تحدد طلبها، وستدلها على الشيخ المناسب، ولكن حسيبة خجلت من فضح سرها أمام غريبة تحدثها عن عشقها

لشاب يصغرها بعشر سنوات، شاب نصفه امرأة، شاب رأى طفلة لا تعرف تنظيف نفسها بعد، فأحبها، ولكن.

- ولكن....

- لاتخجلي يا أختي، الله جعل لكل داء دواء. علينا أن نحدد الداء.

وانتبهت حسيبة إلى جملتها. علينا فقط أن نحدد الداء، عليها أن تحدد بنفسها، ورأت خالدية أمامها، فأدركت فجأة كم كانت جريئة حين حددت داءها، وتناولت دواءها بنفسها، صحيح أن الدواء كان مراً، ولكنها تذوقته، وقررت أن تتذوق دواءها.

استأذنت، وعادت تخترق الحارات يتناوبها النور والظل، الحر والرطوبة، صياح الباعة، وسكون الحارات حتى وصلت البيت.

كان الباب مفتوحاً، فدخلت، وقد قررت أن تنبهه بنفسها، أن تلكزه وتقول: افتح عينيك يا غبي، كنوز السعادة العتيقة لدي أنا. تعال وذق.

ولكنها حين وصلت إلى باحة البيت فوجئت بكركرة زينب، التفتت لتجدهما إلى جانب شجرة المسك، وقد تربعا يلعبان البرسيس.

اختلطت الأمور فجأة على حسيبة، اضطرب كل شيء، فما كانت تعد نفسها له إذا بها تجد الأخرى وقد سبقتها إليه، واستيقظ حمدان ممتزجاً بخالدية، فصرخا من قلب جريح: ماذا تفعلان هنا؟.

وقالت زينب في براءة وقد أخافتها صرخة أمها: نلعب البرسيس.

وهجمت حسيبة، فحملت رقعة البرسيس لتلقيها بعيداَ: تلعبين البرسيس، تلعبين البرسيس؟ بنت حمدان الجوقدار تلعب البرسيس مع رجل غريب؟

كانت مريم تراقبها بعينين مفتوحتين دهشة، وكأنها تريد القول:

- ألست أنت من دعاه للعشاء، ألست أنت من شجعه؟ ألست أنت التي لم تقولي كلمة حين خطبها منك؟

ولكن غضب حسيبة، ذلك الغضب المكبوت منذ عصور، ذلك الغضب الذي علمتها خالدية عدم إظهاره أمام الرجال، ذلك الغضب

الذي ما نفست عنه منذ علقت بارودة صياح على الجدار إلى جانب درع حمدان الزردية ورمحه القديم، ذلك الغضب كان يجب أن ينفجر.

ـ اخرسي، وامضي إلى غرفتك.

وقبل أن تصل زينب إلى المربع الكبير كان فياض قد وصل الفرنكة أيضاً، وأغلق الباب من خلفه مرتبكاً مضطرباً شاعراً بإهانة لم يستحقها، وبخجل ماكان يجب أن يحسه، جمع أشياءه القليلة، بذلة وبيجامة، وبضعة كتب، وناي. وطرق الباب يستأذن في الخروج من الفرنكة.

نظرت مريم إلى حسيبة التي لم تفارق مجلسها منذ انفجارها الذي لم تخطط له، ولكن راحة باردة كانت قد سرت فيها، فهذا الانفجار كان يجب أن يتم، وهذا التنفيس كان يجب أن يصير، وهذه الراحة كان يجب أن تحصل عليها.

ـ إنه يطرق الباب، ويريد الخروج.

لملمت نفسها، واتجهت إلى غرفتها: قولي له: أن يتفضل.

وقالت له أن يتفضل، كانت تتوقع أنه يريد الحمام، أو يريد الحديث إلى حسيبة يفسر ما حصل، ولكنها فوجئت به يحمل حقيبته الصغيرة نازلاً الدرج في حزن، وأسرعت إليها: أم عمر، أم عمر.

ـ لا أريد الحديث إليه الآن.

كانت حسيبة تتوقع أنه يريد تفسير ماحصل.

ـ إنه لايريد الحديث، بل يريد الرحيل.

ـ الرحيل؟ إلى أين؟

ـ لا أدري، ولكنه يحمل أشياءه ليمضي.

وقفزت حسيبة تريد إيقافه، ولكنها سمعت الباب الخارجي يغلق، وأدركت أنها قد تأخرت، ومع ذلك فقد جرت إلى الباب، ففتحته، ونظرت، ولكنها رأته وقد وصل أول الحارة، ثم انعطف إلى جادة التعديل، وللحظة صمتت قليلاً تنتظر، وكأنها توقعت أن تسمع صوته

يعلو: أفلح من قال لا إله إلا الله. ولكنها لم تسمعها، وأدركت أن من كانت تراقبه لم يكن صياح بل كان فياض، فصرخت: مريم، ولكنها لم تكن في حاجة إلى الصراخ، فقد كانت إلى جوارها، الحقي به، أرجعيه، سيقبضون عليه.

وأسرعت مريم، فلبست ملاءتها، وشدت منديلها الأسود، وتدحرجت في الحارة حتى التعديل، فالقنوات تبحث عنه، ولكنه كان قد مضى،وحين عادت إلى البيت فوجئت بزينب وحسيبة تغسل لها وجهها في البحرة، وكان إلى الجانب البالوعة بركة من قيء أصفر مختلط بمزق برتقالية وحمراء.

لم تسأل مريم حسيبة عما جرى لزينب، ولم تسأل حسيبة مريم عن فياض، ولمَ لمْ يرجع معها؟ فقد كان الأمر جلياً، ولكن منظر زينب أمام البحرة وحسيبة تغسل لها وجهها وبركة القيء إلى جانب البالوعة سيثبت في ذاكرة مريم إلى زمن طويل لأن هذا المنظر سيتكرر يومياً، وحتى تمضي حسيبة بنفسها إلى إياد تسأل عن فياض، وتبكي لكي يرجع إلى الفرنكة التي عزف فيها الناي لأول مرة منذ عشرين سنة تخلى فيها عن الناي والعزف والقلعة وشياهها.

كان شهراً طويلاًً ذلك الذي انقضى قبل أن تقرر حسيبة الاستسلام.

كان شهراً من أرق وبكاء، شهراً من خوف على زينب، ولوبان في الباحة إذا ما نام القمر، شهراً من حراشف نبتت في العقبين وأسفل القدمين من المشي الحافي، شهراً من الصلاة والحزن واستدعاء صياح وحمدان وخالدية، وسب الزمان القاسي ولكنه كان قد مضى. أخذ معه الناي الجريح ومضى، أخذ معه الحكايات الغريبة عن مدينة غريبة ذات قطارات تمشي تحت الأرض وكرات مطاطية تحمل الناس والعشاق فوق الغابات والمدن، ومضى، أخذ معه العينين الخضراوين الواسعتين والأهداب الوطف، ومضى، أخذ... معه سحر الرجل وخشونة الصوت ووقع الأقدام الحذرة على الدرج، أخذ معه كل شيء، ومضى تاركاً كل شيء، ومضى تاركاً لحسيبة الحزن والفراغ والخواء واللاجدوى، ولزينب المرض. هذا المرض الذي سيستمر معها إلى الأبد. فكرت وحسبت، ووازنت، وتشاجرت

مع حمدان ومع خالدية، وقال لها صياح: الدكنجية لا يفعلون هذا. فلم فعلته؟

وفي مرة ثانية قال لها: الدكنجية يحسبون الربح والخسارة، فلم قامرت بكل شيء.

وقال لها حمدان: بنات العائلات لايعشقن، بل يتزوجن، لا يعشقن فإن عشقن عشقن من يساويهن نسباً ومالاً و..... سناً.

وقالت لها خالدية: حب الكبر للرجال يشرشح، وللنسوان يفضح.

وقالت لها زينب: مرضاً وصفرة وقيئاً وضياعاً.

فكرت وحسبت ووازنت، فاكتشفت أن زينب أقرب، فكرت وحسبت ووازنت، فاكتشفت أن البيت بحاجة إلى رجل، وقد طردت الرجل، فكرت وحسبت ووازنت... وكانت زينب تذوي، فرأت في ذويها عمر وياسين وأحمد ومحمود ومحمد علي، وخافت أن يأتي اليوم الذي تنظر فيه إلى البحرة والدالية وشجرة المسك، وتودع، وتمضي تاركتها وحيدة في هذا البيت الكبير.. فاستسلمت، قالت:

- أن يكون إلى جواري هو وزينب خير من الوحدة في هذا البيت الكبير، فمضت... إلى إياد، و..... قالت:

- سله الرجوع.

ورجع.

وبدأت رحلة التمزق التي عاشتها حسيبة، تلك الرحلة التي لن تنتهي إلا بتعليق قاتلي الدكتور الشهبندر على المشنقة بعد أن أغراهما شيخهما على الاعتراف بجريمتهما بقتل الشهبندر، ففي اعترافهما مصلحة للمسلمين، وتسكين للفتنة، فاعترفا وشنقا، وبرئ كثيرون كانوا متهمين بقتل الشهبندر، وبرئ فياض، وصار بإمكانه أن يخرج من معقله، وأن يخلي البيت قليلاً من طقطقة السرير الخشبي في الفرنكة ومن مواء القطط، وخوار الثيران، وروائح الزعفران تعلو فتغطي على كل رائحة في البيت.

بدأت رحلة التمزق منذ أن أغلقت باب الفرنكة عليهما زوجين، وجلست تحت في المربع تعض أصابعها وتفكر فيما صنعت، بدأت

منذ لم تستطع الجلوس في الظلام، فخرجت إلى الباحة تمشى حافية القدمين تنظر إلى السماء فتجدها سوداء، وتنظر إلى شجر المسك فتشمها سوداء، فتتوضأ وضوءاً ليس كوضوء الأيام السالفة تبليلاً للذراعين والوجه والقدمين، وضوءاً هو أقرب إلى الاغتسال منه إلى الوضوء، ثم تمد السجادة على الأرض المكشوفة في الباحة وتأخذ في الصلاة، الصلاة التي تحاول أن تجعلها عميقة قلبية، ولكنها وفي أثناء قراءاتها لآياتها تكتشف أنها سهت، فقرآت آية مكان آية، وان أذنيها وكفيها وثدييها، وقلبها، وعينيها المغمضتين كانت تتجه إلى فوق، إلى الفرنكة تتسمع، وتتجسس، وتحاول شم اللذة التي يتذوقانها.

حين سمعت الطقطقة الأولى اقشعر جلدها، وحين سمعت التأوهات الأولى بكى جرحها القلبي، وحين سمعت الخوارة الأولى أحست قطرات باردة تتسلل عبر جسدها كله، وحين انتبهت إلى أحاسيسها هذه اكتشفت أنها قد توقفت عن صلاتها منذ فترة، فقد تحول جسدها كله إلى أذان تحاول أن تسمع كل نأمة، وكل همسة، وكل صريرة.

جلست على الديوان القريب متخلية عن صلاتها، جلست حزينة منكسرة، وتساءلت: لمَ لمْ تعرف في زيجتها من حمدان هذا المواء وهذا الخوار؟ لمِ َ لمْ تعرف هذه اللهفة وهذا الحنين وهذا الجنون؟ وبكت. بكت دموعاً باردة يائسة دون نشيج، بكت عمرا ًمضى، وقواماً تهدل، وأطفالاً ضاعوا، بكت صياح الأعزل، وأفلح من قال لا إله إلا الله، بكت بارودة وجنادة لم تمضيا إلى الحرب، بل علقتا على الجدار إلى جوار رمح حمدان ودرعه الزردية، بكت حتى لم تعد تعرف لمَ تبكي؟

وما إن جهجه الضوء الأول بالليل حتى مضت إلى مريم، فدعتها إلى الإشراف على البيت وخرجت، خرجت تمشي في شوارع وحارات المدينة، فتعرفت على المدينة التي عاشت فيها السنوات السابقة كلها ولم تعرفها. خرجت تخترق الأسواق يظنها مبكرو الدكنجية تبحث عن بضاعة لم يعلقوها، وما تبحث إلا عن قلب ترمد، خرجت من القنوات وعبرت من تحت القناطر، واخترقت شارع جمال باشا، ونزلت ساحة المرجة، فدارت في سوق علي باشا،

وسوق الخيل، وسوق التبن والسوق العتيق، ثم تأملت خان الباشا بعيون لا ترى، واجتازت سوق الهال، ثم عرجت على سوق ساروجة فاخترقته حتى العمارة، ثم اخترقت العمارة حتى وصلت إلى ليل سوق الحميدية، فاجتازته حتى سوق النسوان، وهناك التمع أبو شفتور أمامها، فذكرت خالدية خانم وبكاءها القبيح الذي حول منديلها الأبيض إلى قوس قزح، جمالها السري، فأكملت طريقها لعلها ترى هذا الأبو شفتور، وصلت إلى سوق الحرير، ومنه إلى حمام القيشاني، ولكن من أين لها أن تعرف أبو شفتور ضمن أولئك العشرات اللابسين الألاجا، والمتمنطقين بالكشمير، والمميلي الطربوش على الحاجب الأيسر، والمبرومي الشوارب ينتظرون زبون الصباح.

خرجت من القيشاني تتمايل إرهاقاً حتى وصلت القباقبية، فاجتازته إلى الصاغة، وهناك فوجئت بالأموي يفتح بابه، فعرفت أنه كان ينتظرها.

دخلت الأموي، ومضت إلى ميضأة النسوان، فتوضأت، توضأت مسبغة الوضوء تبرد أعلى ذراعيها، وأعلى ساقيها، وحول وجهها حتى القفا ثم مضت إلى محراب الشافعيين، فصلت، صلت ما لاتعرف أنها صلته من قبل، صلت حتى أحست أنها لن تستطيع رفع رأسها من هذه السجدة لو فعلت، ثم قامت تترنح حتى قبر النبي يحيى، فقرأت سبع فواتح، ثم طرقت رأسها بعمد القبر النحاسية وبكت، ورجت وتوسلت، كانت لا تريد إلا شيئاً واحداً، أن تبرد النار في قلبها ولكنها.... لم تبرد. خرجت إلى باحة الأموي، وتأملت مأذنة العروس، مضت إلى البحرة فتوضأت ثانية، ولابت في الباحة، لابت تهرب الحمائم عن طعامها، لابت شبحاً أسود لايرتاح، لابت تتعثر بذرق الحمام، فلقد كلَّت ساقاها، لابت حتى وقعت متعثرة بإرهاقها، فتحاملت على نفسها حتى وصلت جدار المصلى الكبير فاستندت إليه تريح جسدها المنهك، تأملت جوربيها الممزقين، تأملت ملاءتها المتسخة، وبكت، فهذا ليس أنت يا حسيبة، هذا ليس أنت يا حسيبة!

وتسلل الليل، الليل العتمة، الليل المخيف، وقام الحسكية يكنسون باحة المسجد الكبير، وكان لابد لها أن تمضي، فقامت تمشي مترنحة إلى باب المسكية، لبست حذاءها ومضت، مضت وقد أذكرها الجوع

أنها لا تزال حية، مضت تخترق ليل سوق الحميدية فالحريقة، فالدرويشية، فالقنوات، مضت إلى البيت ـ الجنة، ولكنها ما إن وطئت الدهليز سمعت خواء البيت حتى أدركت أن مريم مضت إلى حيث وداد، وأنهما عادا ثانية إلى الفرنكة، فمضت إلى المطبخ تبحث عن لقمة تأكلها، وفوجئت بصينية السفرة وقد أنزلاها من غرفتهما إلى المطبخ، وكانت الصحون مملوءة لاتزال، وقد نقرها العاشقان، من هذا الصحن نقرة، ومن ذاك نقرتين، نظرت إلى الأماكن التي أكلا منها، وأخذت تخمن: ترى أي الصحون صحنه.وأيها صحنها؟

وعرفت. أدركت أي الأطباق طبقه، وأي الملاعق ملعقته، رفعت الملعقة التي أكل بها، تشممتها، وفجأة وجدت نفسها تلعقها، تحاول تذوق المكان الذي مسه لسانه وشفتاه، وأحست نشوة مديخة، فانقضت على طبقه تلعق المكان الذي أكل منه، تشرب بقايا الكأس التي شربها، تأكل بقايا الصحن الذي أكله، تبحث عن ريحه، طعمه، عن شيء يعوضها عن فقده منها، والتهبت النار ثانية فيها.

وتكرر العذاب، تكرر الليل الطويل بلا نوم، تكرر المشي الحافي والصلوات المبتورة والوضوء المبرد بلا برد، واللوبان بلا هدف والتنصت على كل نأمة، وكل مواءة، وكل خوارة، وكل طقطقة سرير، وانتظرت الصباح، الصباح المريح من وحدة الليل الأسود، فلبست ومضت إلى الأسواق تخترقها، مضت إلى جامع القلبقجية، ورأت الطلاب يدرسون، فاستمعت إلى درس الحديث قليلاً ولكنها لم تستطع الجلوس طويلاً، فمضت إلى جامع النورية، فتوضأت وصلت، وبكت، وقرعت رأسها إلى ضريح نور الدين الشهيد، وبكت، وطلبت من الله أن يخفف عنها، ويريحها، ولكن النار المتقدة لم تترك لها راحة، فمضت إلى جامع شمسي باشا، إلى الطاووسية، إلى جامع منجك، إلى جامع زيد بن ثابت، إلى .... السباهية، ذرعت الشام شرقاً وغرباً، ولكن... النار لم تبرد. أسبوع طويل انقضى تعرفت فيه إلى أسواق الشام وحاراتها، جوامعها، لكن النار لم تهدأ. وفي جامع السباهية سمعت بالحاجة وهيبة، فمضت إليها قضت بعد الظهر تستمع إلى درسها الديني، ولا تسمع، ثم عرفت حاجّات وشيخات المدينة كلهن، سمعت دروساً في السيرة النبوية، في الفقه، في الحديث أنشدت معهن البردة، وتلت: مولاي صل وسلم دائماً أبداً

على حبيبك خير الخلق كلهم عشرات المرات. سمعت أشعار ابن الفارض، حفظت آيات وأحاديث لم تسمعها من قبل، لكن النار. النار المتقدة لم تبرد، فقد كانت حين تعود إلى البيت لا تملك إلا أن تعدو إلى المطبخ، لم يكن الجوع ما يحدوها بل البحث عن آثاره، ملعقته صحنه، كأسه، وبقايا طعامه.

لكنها هذه المرة وجدت الصحون نظيفة والملاعق جافة، والكؤوس معلقة، فعرفت أن مريم سبقتها إلى تنظيفها، وكادت تنفجر باللعنات، وانضاف إلى لوبانها لوبان البحث عن أثر له، وحين فتحت غرفة الغسيل الصغيرة، وجدت بيجامته، ثيابه، ملابسه الداخلية فانقضت عليها في شهوة تتشممها، تتشمم ريحه، آثاره، تبحث عن شيء يجسده أمامها، وحين سمعت خالدية تقول لها: الحب كلبين عالقين ببعض لم تصغ إليها في البدء، ولكنها حين سمعت مريم تقول لها: حب الكبر للرجال يشرشح، وللنسوان يفضح.ألقت بالثوب من يدها مرعوبة وهتفت:

- يا رب يا رب، أفتريد لي نهاية كنهاية خالدية. يارب. يا رب دخيلك. أخرج حبه من قلبي فلم يعد لي فيه من مطمع، أبرد هذه النار في قلبي.....

ولكن الليل طويل، والأرق ممض، والنار المتقدة لا تبرد. انقضى شهر طويل، شهر دون نوم، شهر دون ليل، شهر من مواء وخوار وطقطقة وزعفران. شهر... دون زمن، دون... تاريخ. انقضى حتى لم تعد تحتمل، فصرخت في إحدى تلك الليالي، صرخت حتى ظنت الحارة كلها قد سمعتها: لك وطوا صوتكم يا قليلي الأدب، وطوا صوتكم ما عاد فيه حياء، وطوا صوتكم ما أحد تزوج غيركم، وطوا صوتكم فضحتونا قدام الجيران.

وخمد الصوت وانقطع، فلم ترتح، فلم صمتوا؟ خمد الصوت فتلهفت ثانية إلى سماع طقطقة السرير، ومواء القطط، وخوار الثيران، وروائح الزعفران ولكن.... صوتاً لم تسمع من بعد، وروائح لم تشمَّ من بعد.

شهر من عذاب ومرارة وألم كان لابد أن يختم، وكان لابد من نهاية، وكانت النهاية المؤلمة حين أرهقها السهر الطويل والجوع

والتعب واللوبان والنعاس، فنامت إلى جانب البحرة، نامت تلك النومة التي ستظل تذكرها إلى الأبد لأنها في نومتها تلك أغضبت شيخ البحرة راعي الأسرة القديم، أغضبته حين نامت في مملكته دون استئذان، فصفعها، تلك الصفعة التي ستترك شفتها السفلى مرتخية، وعينها اليسرى تغمز غمزة حزن لا ينقضي.

بعد تلك الصفعة فقط أحست حسيبة بالبرد في قلبها، فلقد استسلمت، استسلمت لقدرها موقنة أن الرجل الذي انتظرته العمر قد ضاع، استلبته غريمتها وضرتها وحبيبتها وابنتها الوحيدة... زينب.

كان للحنان والاهتمام اللذين بذلهما فياض وإياد وأصدقاؤهما أثر كبير على حسيبة، فلقد استدعوا الأطباء والاختصاصيين والخبراء، فأعطوها أدوية ومراهم كثيرة لم تفلح إلا في جعل فياض أقرب إلى قلبها، ولكن صهراً وصديقاً، وأنيساً، وحنوناً يسند الشيخوخة، وكانت كلما جاؤوها بطبيب يفحص تلك العين المنكسرة، والخد المرتخي، والشفة المائلة تهز رأسها في استسلام، فهي تعرف أن صفعة شيخ البحرة لا شفاء منها، هي تعرفها، فلقد ذاقت حقدهم من قبل حين اختطفوا منها عمر وياسين وأحمد ومحمود ومحمد علي، أولئك القساة بلا قلوب الذين خطفوا صبيانها، أفيرحمونها ويعيدون لوجهها استواءه؟

استسلمت للأطباء والممسدين والمراهم والأدوية، ولكنها كانت تعرف ألا فائدة، فلم تستفد إلا برد قلبها وزوال تلك النار التي أرقتها منذ قررت تذوق دواء خالدية خانم، لكن المسكينة لم تستطع أن تتذوق حتى هذا الدواء المر، فاستسلمت منكمشة أمام الصفعة التي أعادتها إلى صوابها.

(13)

حين استسلمت حسيبة أمام خسارة فياض لابنتها زينب فكرت في أن لكل أمر حسناته وسيئاته، فهي قد خسرت عاشقاً حقاً، ولكن البيت كسب رجلاً، رجلاً كان في حاجة إليه منذ غياب صياح وحمدان وضياع عمر وياسين وأحمد ومحمود ومحمد علي، قالت: الحرقة التي مات منها حمدان حين لم يخلف صبياً يرث الدكان ومشيخة شباب الحارة، يجب ألا تستمر، فهاهو رجل جديد ينضم إلى بيت الجوقدار، رجل، ولا كالرجال، شباب وهيبة وعلم ومعرفة... ولكن، ... كيف سيرث بيت الجوقدار؟

كيف...؟ وأخذت تضع الخطط لجره إلى مملكتها الجوقدارية مستفيدة من دروس خالدية وحمدان، وقدرتهما على البقاء رغم كل قسوات الصحراء المحاصرة.

لكن المسلي في الأمر أن حسيبة لم تكن في حاجة إلى خطط محكمة، فلقد كان فياض قد يئس من حياته السابقة، يئس من الصحافة والسياسة، والناس الذين ضربوه، وأهانوه وأحرقوا جريدته، واتهموه بقتل صديقه ومعلمه الدكتور الشهبندر.

وقال له إياد بعد أن انقضى شهر العسل وعلق قتلة الشهبندر على المشنقة، وتكشفت براءته، وفعلوا كل ما فعلوه لشفاء حسيبة دون نتيجة كبيرة، قال: والآن ماذا ستفعل؟

ـ لا أعرف.

ـ يجب أن تعمل، فما معك من مال ليس كثيراً.

ـ صحيح، ولكن ماذا أعمل؟

ـ نبحث لك عن وظيفة.

ـ وظيفة. وبهيج الخطيب في الحكم؟

ـ سنحاول يجب أن نجد لك وظيفة.

ـ وظيفة، وفرنسة ـ اللهم وشماتة ـ ماتزال في البلد؟

ـ فماذا تريد؟

ـ لا أعرف بعد، مازال مشوشاً.

وتقدمت حسيبة، قالت: فياض. دكان الجوقدار مفتوح منذ خمسة أجيال ولم يغلق إلا منذ وفاة الشيخ حمدان.

وهز رأسه في تعاطف: صحيح.

ـ كان يتمنى كثيراً لو رزق بصبي يحمل عنه الراية، ويظل الدكان مفتوحاً.

ـ خسارة.

وصمتت قليلاً تستجمع شجاعتها: فلم لا تجرب أن تفتحه؟

ـ أنا؟

ـ نعم.

ـ ولكني لا أفهم في التجارة.

ـ تجارتنا لاتحتاج إلى شطارة كثيرة، ثم... كله دكان سمان في حارة صغيرة، فإلى أي فهم تحتاج؟

وكانت تحاول تخفيف الأمر عنه، فدكان حمدان لم يعد دكان سمان فقط منذ قررت تحويله إلى دكان للبيع بالجملة لصغار السمانين مستعينة بأكياس السكر التي خبأتها لأيام الحرب، ومخزون حمدان من الرز والسمن والزيت.

وقال فياض: متأتئاً: البيع، الشراء، التعامل مع الناس؟

ـ ستتعلمه، صدقني، ثم سأكون إلى جوارك أدعمك كلما احتجت إلى دعم.

وكانت نقطة التحول الكبيرة في حياة فياض السئم، القرفان، المشمئز، المصاب بخيبات الأمل، وحين قبل كان عليه أن يستعد لهذا التغير، ففياض الباريسي، فياض المادلين، وإيفون، وصوفي، فياض صديق المستشار، وابن روجيه وماتيلد المتبنى، فياض مفجر مصفحة السنغال لن يصلح للعمل في دكان، عرف ذلك، وأيقن أنه لابد له من تغير.

و.... اصطدمت المرأتان فقد كانت زينب تريده فياض الباريزي المحدث اللبق الأنيق يحرق قلوب نساء الحارة، أما أن يتحول إلى .....

ـ دكان الجوقدار مفتوح منذ أجيال لا يعرف أولها، ويجب أن يستمر.

ـ ولكنه ليس دكنجياً.

ـ أهناك من ولد دكنجياً، إنه يستطيع أن يتعلم المهنة يوماً بعد يوم!

ـ ولكنه ليس دكنجياً. إنه...

ـ إنه يريد ذلك.

ـ أن يتحول دكنجياً؟!

قالت زينب في حزن مشمئز لم تأبه حسيبة له، فقالت:

ـ سيعيد الهدوء إلى روح حمدان في قبره.

وأمام هذا الهدوء لروح حمدان صمتت زينب، وبدأ فياض رحلته الطويلة إلى متاهات المدن السرية، هذه المتاهات التي لن يستطيع اكتشاف خباياها أبداً، صحيح أنه سيتقن كل المظاهر الخارجية للذوبان في ذلك المحيط، ولكنه لن ينجح أبداً، صحيح أنه سيحاول مدعوماً بإصرار حسيبة واشمئزازه من العالم الآخر الذي تركه من خلفه سيحاول مدعوماً بما رأى من سقوط إياد وخليل بك وتهالك الجميع على التركة التي خلفتها فرنسا، سيحاول مدفوعاً بنوع من عناد سلبي إلى معاقبة العالم الفاسد بالابتعاد عنه وازدرائه من بعيد،

سيحاول لثماني سنوات طوال أن ينسى السنوات الثلاثين الماضية من عمره ويبدأ ولادة جديدة اختيارية في حي عتيق من مدينة عتيقة، ولكنه بعد ثماني سنوات طويلة، ثماني سنوات من خيبة وانغلاق على الذات، وإفلاس للدكان سيصطدم بالحل فجأة حين تقرر إنكلترا الرحيل عن فلسطين، ويقرر اليهود إعلان دولتهم، وتسقط الأوهام كلها فجأة، ويختفي التشوش، ويتحدد العدو، وما عليك إلا أن تحاربه، فلم يعد عدواً موزعاً في مرايا عديدة لن تستطيع تمييز الحقيقي فيها من المزيف، وأيها الحامل سلاحاً لقتلك، وأيها ليس إلا ظلاً رخيصاً لحقيقة قاتلة. اتحدت المرايا وتجسد العدو فقال فياض لزينب وهو يجمع أشياءه ويودع بارودة صياح وجناده ورمح حمدان ودرعه: سأمضي إلى فلسطين، سنطرد اليهود، ولن نترك فلسطين تضيع.

ولكنه وقبل أن يقول جملته التي ستحفظها حسيبة، وستكررها كثيراً أمام زينب وهشام فيما بعد كان قد حاول مخلصاً أن ينسى الماضي ويصبح حمدان الجوقدار جديداً.

حين مضى فياض في يومه الأول إلى الدكان أخذ يرى ما حوله بعين جديدة، فلم يستطع أن يمر بالأقواس البازلتية دون أن يراها كما فعل حين جيء به لاجئاً، تأملها بعين جديدة، فرأى الحجارة العتيقة مرصوفة فوق الجديدة وتحتها، رأى اضطراب ألوان الحجارة واختلاطها وأدرك لعبة التواصل في المدن العتيقة المبنية من بقايا المدن السابقة، وتذكر الجامع الأموي الكنيسة والمعبد الوثني، وتذكر قصر نور الدين الأبيض والمدرسة الظاهرية والعادلية والتكية السليمانية وتنهد وهو يكمل مسيرته: إيه.... حجارة يتبادلونها، تأمل حجارة الطريق المرصوفة وتساءل: أليس فيها بعض من حجارة الطريق الرومانية الشهيرة؟ ولكنه معاهداً نفسه ألا ينقل تساؤلاته إلى الآخرين، مضى مكملاً طريقه حتى الدكان، وعلى الطريق تأمل نافذة الولي ذات الشبك الحديدي المزخرف، تأمل حنفية الفيجة والإهداء المحفور فوقها وقفاً من محسن أراد للدعاء أن يلاحقه حتى بعد الموت، تأمل تناوب الظل والنور بين الأقواس والفرنكات المتعانقة والسماء المتلصصة على أرض الحارة، تأمل الغادين المبكرين إلى أعمالهم، وسمع تمتمة الدعاء، والتبريكات وطلب الرزق والأجر من الله.

فتح الدكان، وانتبه الأبو سعيد، والأبو منير، والأبو ياسين، والشيخ يوسف إلى صوت فتح الدكان فالتفتوا مندهشين، ثم صمتوا ولكن دهشتهم لم تنجل، فقد كان في فياض شيء غريب شيء لايشبه الشيخ حمدان بقامته المربوعة المليئة وقمبازه وعمامته الأغبانية وشاله الكشميري ومعطفه المحكمجي، كان يبدو شيئاً ضئيلاً بهذه البذلة الفرنجية وربطة العنق الكحلية والشعر المصقول الممشط شاليش مقلوباً إلى الوراء، مدهونا بكثير من زيت الشعر، ولحيته الحليقة، كان شيئاً مغايراً لسلفه العظيم الشيخ حمدان الجوقدار، ولكنهم مع ذلك لم يشعروه بالاستغراب، أو الدهشة، بل رحبوا به كما يرحبون بالجار القديم.

جاء أبو منير يحييه: يا صباح الخيرات والليرات.

وجاء أبو سعيد يسلم عليه: الله يحسن استفتاحتك.

وقد احتاج إلى شهر طويل يسمع فيه طلب إحسان الاستفتاحة حتى يفهم أن الاستفتاحة هي الصفقة الأولى ولو بفرنك.

وجاءه أبو ياسين فنظر إلى الدكان كلها نظرة طويلة متأملة يقيس مساحتها ويحسب ما فيها من بضائع مركومة، قال: الله يقدم لك الخير.

وجاء الشيخ يوسف، فسلم وقال ينون أواخر الكلمات: استفتاحة مباركة بالصلاة على النبي.

حفظ دعوات صباحهم كلها، وردها من ورائهم، ولكن شيئاً فيه كان يبقيه بعيداً عنهم، فهناك قرون من معاشرة وتجربة وحزن وخيبة،وأمل وانتظار تجمعهم، فكيف له أن يذيب هذه القرون كلها فجأة ويدعي أن هذا العالم عالمه؟

في اليوم الأول وبعد أن هدأت صفقات الصباح الأولى، وبعد أن عاد أرباب العائلات إلى بيوتهم يتبعهم أبناءهم وأجراء السمان واللحام والخضري والفاكهاني يحملون زاد يومهم أخذ يراقبهم في تحركاتهم، ويتأمل هذا العالم الغريب الذي دفع إليه.

وكان خرير النهر القريب يحمل إليه خدراً يصله بعالم قديم قريب إلى القلب، لم يكن نهراً حقيقياً من تلك الأنهار التي تشق طريقها في

الحقول والبراري منبتة الأعشاب، ومدللة شجر الحور والصفصاف والجوز والتوت، مخفية الضفادع والسراطين والحيات، بل كان نهراً مهذباً حسن التربية يمشي في قناة من حجر وإسمنت، قناة تعلو الشارع بأكمله منزلقة في هدوء حتى تختفي أسفل الطريق لتضيع في متاهة المدن السرية.

في اليوم الأول وبعد أن هدأت صفقات الصباح الأولى فاجأه صوت أبو ياسين يطرق دف الفرم ويصيح: نفقت وجبر الله، نفقت وجبر الله... فأدهشه الصوت المرح لا ينسجم مع اللحية والشعر الأبيضين تشعان وقاراً ونوراً والوجه الأبيض الوديع، فتطاول برأسه من خلف الجام يراقب مايجري، فرأى أبو سعيد يخرج رأسه من جام دكانه الأمامي، ورأى أبو منير يقف مسنداً ظهره المتعب تاركاً صندوق البندورة بعد أن انتقى جيده، ونظفه، وصفه على البسطة، وألقى بالمهترئة والفاسدة في صندوق آخر، أما الشيخ يوسف، فأهمل محمصة البن وصاح: طيب يا أبو ياسين يلله، اليوم فطور خاص، لدينا ضيف جديد.

ولم يفهم مايجري بالضبط فقد كانوا يتحركون بسرعة، رأى أجير أبو ياسين وقد غطى صينية وأسرع بها إلى الفرن ورأى أبو منير يغسل إبريق الشاي الكبير من الفيجة العمومية، ورأى الشيخ يوسف يحمل طاولة خشبية، فيضعها تحت شجرة الكينا، ثم رآه ينقل عدة كراسي واطئة، فيصفها من حولها، وانشغل بامرأة اشترت منه بعض السمن والجبن، ثم بطفلين حيراه بنوع القضامة والسكاكر التي يريدان حين سمع الشيخ يوسف ينادي: يلله يا أستاذ فياض، يلله. الفطور جاهز والتفت إليهم: شرف نحن بانتظارك، ولكنه تمتم محرجاً. شكراً، ولكني أفطرت.

فقام إليه أبو ياسين، أي أفطرت هذه؟ هذا أول يوم لك بالسوق، وستفطر معنا. قم. قم. وجروه، ورغم أنه قد أفطر في البيت إلا أنه اضطر أن يفطر معهم، فقد كانت الصينية المترعة بالأرغفة المخبوزة مع الكبد والكلاوي وبيض الغنم أكلة جديدة عليه.

كان استقبالاً لطيفاً أفهموه به أنه إفطار احتفالي خاص بانضمامه إلى السوق، وشعر بسعادة صغيرة، فهاهو ينضم إلى جماعة ما،

هاهو ينسلخ من وحدته القديمة، ولكنه في اليوم التالي حين رآهم من وراء جامه الكبير، فأدهشوه حين تخلوا عن وقارهم وجملهم القصيرة الحكيمة، فرأى أبو منير يتسلل بهدوء حول أبو دعاس مجذوب الحارة، ورأى أبو سعيد يشاغله بالحديث وأبو منير يلف ويدور حول أبو دعاس كمن ينتظر فرصة، وفجأة رآه يخرج مقصاً، فيقص شيئاً في ثياب أبو دعاس الذي انطلق يجري ولكن سرواله الذي قصت تكته انزلق ليكشف جسم أبو دعاس العاري، وانطلق الجميع يقهقهون، من خلف جاماتهم يقهقهون، إلى جانب محمصتهم يقهقهون، وكان المسكين يلعن ويشتم محاولاً ستر عورته وإيقاف سيل من ضحك لايتوقف. وفي اليوم التالي رأى أبو سعيد يتسلل إلى حيث أبو دعاس النائم إلى جانب النهر، فيحل له سرواله بينما يعمد الشيخ يوسف إلى سكب الماء في سرواله المحلول، ثم يبتعدان عائدين إلى دكانهما وحين ينادي الشيخ يوسف على أبو دعاس يستيقظ المسكين ليجد نفسه مبتل السروال، فيسارع إلى خلعه والنزول إلى النهر ليغتسل، فيضحك الجميع في سرور ماله حدود. وأخذ يعدُّهم، أولئك البلهاء الذين كانوا ينتظرونهم بصبر فارغ ليضحكوا منهم ويسلوا وقتهم، فهذا **تحت الدرج**، والذي لايحتاج إلا إلى من ينادي من بعيد: **تحت الدرج**، حتى يلتف قاذفاً كل من يراه بأقذع الشتائم رامياً بالحجارة لا يعبأ من تصيب حتى إذا ما أرهقه الشتم والصراخ عمد آخر إلى الالتفات جانباً والهتاف: **تحت الدرج**، لتعود موجة الشتائم واللعن والحجارة لايكف عنها حتى تصيبه نوبة الصرع، فيرتمي على الأرض ينتفض ويعض الأرض....وذاك **(كوساية)** الأمرد، و..... وكان فياض يتساءل: ما الذي يغريهم بالسخرية من هؤلاء المساكين فلا يجد جواباً إلا خواء حياتهم من كل فعل، خواء حوَّلهم إلى أطفال ذوي لحى رمادية وكروش كبيرة، وشوارب صبغتها العطوس، خواء أولئك الذين حرمتهم الإقامة في هذه الواحات المسكينة من أي فعل، خواء حوَّل قيمهم كلها إلى قيمة واحدة هي: البقاء حياً.

وكان أحياناً يتساءل: أتراهم فعلاً لا يهتمون لما يجري في العالم؟**!** تمضي تركيا، وتأتي فرنسا، تمضي فرنسا، ويأتي الإنكليز، وهم؟ مادورهم في كل هذا؟ وتجيبه حسيبة فتحدثه عن صياح واستقبالهم له: ثم انطفأ الحلم الفيصلي، وانتكس حلم الثورة، فعاد

الجميع إلى الحكمة الخالدة: أن تبقى حياً في زمن التغيرات فتلك هي الحكمة. ولكنه في ساعات هدوء السوق، وانكفاء كل على نفسه أو على جاره يلاعبه الطاولة كان يتأمل حكم حمدان المعلقة على الجدران: **هذا من فضل ربي، وإن شكرتم لأزيدنكم**، تلك الحكم التي أضاف إليها فياض حكماً كثيرة خلال الأعوام التالية، أضاف إليها كل حكم المدن العتيقة، وكل حكم أولئك الذين انتظروا القوافل قروناً ويعرفون أنها قادمة لا محالة، وما عليهم إلا انتظارها؟ ولكنه كان ينظر إلى داخله ويتساءل: أتراني سأصبح حقاً واحداً منهم؟ ثم ينظر إلى الدكان من حوله، وإلى هشام الذي أخذ يدرج في باحة بيت الجوقدار، ويقول: لا مصير آخر يا فياض، فتعلَّم سر الحياة في هذه المدينة، ولكنه حين باع الرز كله لتاجر من باب الجابية بربح ظنه خيالياً فلقد ربح في كل ليرة خمس ليرات، صرخت حسيبة مغتاظة: أهناك من يبيع مخزونه كله في صفقة واحدة؟

ـ ولكنا ربحنا في كل ليرة خمس ليرات؟

وأنَّت في ألم: أهناك من يبيع ما لديه مرة واحدة في زمن الحرب؟

ـ كانت غلطة ارتكبتها حين بعت كل ما لدي من سكر، أين السكر الآن؟ من يستطيع إيجاد كيس سكر واحد؟. إنها الحرب يا فياض، الحرب التي تصنع الأثرياء، الحرب التي يجب الإفادة منها، إخفاء كل شيء وانتظار السعر المجنون.

ـ أهناك ماهو أكثر جنوناً من ربح خمس مئة بالمئة؟

ـ نعم في الحرب. من ينتظر اللحظة المناسبة يمكنه ربح ألف بالمائة، ألفين، ثلاثة، هل سلمته البضاعة؟

ـ سيأتي غداً لاستلامها.

ـ ارجع عن الصفقة. لاتسلمها له.

ـ ولكني وعدته.

ـ دعك من كلمة وعدته، ألف قلبة ولا غلبة.

ـ لا أستطيع.

وتأوهت ثانية في غيظ: أين أنت يا حمدان، أين أنت لترى ماصار بالدكان؟

حين فتح فياض الدكان أول مرة وجدها مغلقة على مافيها من بضائع لم تمس، فقد كانت هذه إرادة حسيبة، كان السمن في ظروفه محفوظاً، والزيت في صفائحه، والرز في أكياسه، والسكاكر في قطرميزاتها، والبرغل.... صحيح أن الفساد دب في بعضها، ولكن مراهنتها كانت على أن الحرب قادمة، وفي زمن الحرب لا أحد يهتم لفساد أو سوس، المهم أن تجد ما تأكله، وكانت مراهنتها صائبة، فقد باع فياض كل ما أغلقت الدكان عليه، باعه دون عناء وبربح جيد، ولكنه حين جدَّد البضاعة وأخذ يبيع ما اشتراه اكتشف كم كان ساذجاً حين كان يثق بتاجر يأتيه متباكياً، فيشتري مالديه ليسدَّد فيما بعد، وهذه المابعد قد تأتي وقد لا تأتي، اكتشف كم كان بسيطاً زمن الحرب حين يصغي لتوسلات امرأة تجر خلفها عشرة أطفال، فيعطيها ما تريد ويسجل في الدفتر، اكتشف كم كان غريباً عن المهنة زمن الحرب حين امتلأت دفاتره بالديون لرجال فقراء لم يستطيعوا إطعام أطفالهم، ولأرامل غاب أزواجهن وتركوا أطفالاً يجب أن يأكلوا في زمن الحرب، ولتجار مخادعين كانوا يبحثون عن أمثال فياض ممن لبسوا ثياب الشيخ حمدان غلطاً، وقد آن لهم أن يعودوا إلى ثيابهم الطبيعية، وهتفت حسيبة لا تصدق: ماذا؟ أفلس الدكان؟ ولا رأسمال جارياً بين يديك.

ـ قلت لك من قبل: أنا لا أصلح لهذه المهنة.

وأراها الدفاتر، فنشجت من الغيظ: أهناك من يديِّن زمن الحرب؟

فوصف لها الأرامل والفقراء والجائعين والأيتام لا يجدون طعاماً ولكنها صرخت: ونحن المكلفون بإطعام هؤلاء جميعاً؟.

ـ سأنسحب. أخبرتك أني لا أصلح لهذه المهنة.

وهمست زينب لحسيبة فيما بعد: ألم أقل لك؟ تغيير الثياب لا يكفي. ونظرت حسيبة إلى فياض تتأمله في القمباز والمعطف المحكمجي والشال واللفة الأغبانية، وهمست: حين أنظر إليه من خلف أرى الشيخ حمدان.

وقالت زينب: ولكنك حين تنظرين إليه من قدام تستطيعين أن تكتشفي بسهولة أنه ضائع فيها.

حين فتح فياض الدكان أول مرة واستقبل تحيات ودعوات وتمنيات الاستفتاح من أبو سعيد وأبو منير وأبو ياسين والشيخ يوسف وأصدقاء الشيخ حمدان حاول أن يصبح واحداً منهم كما كان الشيخ حمدان، ولكنه نظر إلى ثيابه وثيابهم، وأحس الفارق الكبير ورغم أنهم لم يلمحوا كفاية إلا أن اللباس الإفرنجي لم يكن مرغوباً فيه بينهم، وكان من أول ما سقط من فياض القديم ربطة العنق وكأن زينب أحست أنها البداية في تحول خطير فأصرت على استعادتها ولكنه قال:

تضايقني في العمل، وأنا أحلها، وأتركها مرتخية طيلة النهار، فما الحاجة إليها إذن؟.

وبعد ربطة العنق، وكان الفصل صيفاً سقط الجاكيت وقال لزينب:

ـ أنت لا تصدقين كم الطقس حار في الدكان!

ولكن منظره يمضي إلى الدكان في قميص وبنطلون على قامته النحيلة جعله يبدو سخيفاً أمام الآخرين، فقرر القيام بالخطوة الحاسمة والضرورية، ففصل قمبازاً واشترى شالاً، وحين جربهما في البيت ضربت زينب على صدرها في حزن: أبو هشام، ماالذي تصنعه؟.

ـ أحاول استكمال شروط اللعبة.

ـ ولكنك لست منهم، أنت لم تخلق دكنجياً.

وتدخلت حسيبة: دعيه يجرب، ولربما ناسبه هذا اللباس أكثر من السابق.

وتذمرت زينب: لا. لن يناسبه.

ـ دعيه يجرب.

وأكمل تجربته، فلبس المعطف المحكمجي والعمامة الأغبانية وصار يبدو من الخارج مماثلاً لهم، ولم يتوقف عند هذا، فقد بذل جهده لينسى فياض القديم، شاركهم فطور الفول المشترك، وغمس

يديه في الطست المشترك متخلياً عن فياض القديم، صحبهم في نزهاتهم الرجالية إلى الربوة والشادروان، وأصغى إليهم يتقاسمون تكاليف النزهة. راقبهم ينغمسون في إعداد الغداء، تبريد البطيخ في النهر، تنظيف العنب، تقشير الصبار، رأى الاهتمام المنغمس في كل طقس من طقوس إعداد اللحم والمعاليق للشيِّ، رأى اهتماماتهم التي حولوها إلى محور حياة وكانوا سعداء، فتساءل: ترى ما الحياة إذن؟.

في تلك الأيام أخذت حسيبة تنقل إليه أسرار خالدية خانم، أسرار المدينة العتيقة المسكونة بالبسم الله الرحمن الرحيم، إخواننا التحتيين، حدثته عن القرينة العدوة، أختنا الكامنة، تحت الأرض، الحسودة أبداً، وعن الأضاحي الواجب تقديمها إليها، حدثته عن شيخ البحرة، والكنوز التي يحملها لمن يرضى عنه، والأذى الذي يمكنه إيقاعه بمن يزعجه، حدثته عن سكان الليل تحت الأرضيين وتنكراتهم المخيفة في القطط والكلاب والجراء السود، حدثت وحدثت، وكان يصغي مخلصاً يحاول سبر هذا العالم، تمثُّله والانغماس به، ولكنه ظل غريباً، وقال له الشيخ يوسف:

ـ صحبة النسوان منقصة للعقل، فلم لا تنضم إلينا؟.

ـ أنضم إليكم. أين؟

ـ في دروس الشيخ عبد الكريم، كان الشيخ حمدان الله يرحمه لا ينقطع عنه.

ومضى معه إلى جامع السباهية، صلى وراء الشيخ، ركع وسجد وقرأ وتلا، وانتظر الشيخ عبد الكريم الذي أنهى صلاته وصلى على النبي، ثم التفت إليهم فتربع، وأخذ يقرأ أول الورد بصوت عال يكملونه في قلوبهم حتى إذا ما أنهاه انتقل إلى ما يليه، وهم يتمتمون من ورائه، وفياض ينتظر حتى إذا ما انصرف من أراد الانصراف، وبقيت الصفوة من مريدي الشيخ أخذ يتلو عليهم درسه، وكان فياض يحاول ألا يكون مراقباً، بل متلقياً مستعداً لقبول كل ما يلقى عليه، ولكن الشيخ كان نصف أمي، يخطئ في النحو، ويخطئ في النطق، ويخطئ في الشرح معتمداً على قصص خيالية، من بقايا حكايات القرون القديمة، وكان كثيراً إذا ما ذكر كعب الأحبار قال (رضي الله عنه) بإجلال خاص، ولم... يستطع جذب فياض إلى عالمه إلا حين

انتقل إلى وصف العالم الذي يستعد للرحلة إليه، فلم يكن ذلك العالم غريباً، بل كان عالماً شخصياً، عالماً عرفه الشيخ عبد الكريم، وبناه كما يبدو بيديه قطعة فقطعة، ولبنة فلبنة، وشجرة فشجرة، وحورية فحورية، عالماً جعل فياض يتمنى لو كان موجوداً، أو لو أنه يستطيع المضي إليه في لحظته، ثم انتقل في مرة تالية إلى الحديث عن العالم السري الذي لانعرفه، عالم يسكنه أناس لا نراهم ولكنهم يروننا،عالم من ملائكة على استعداد دائم لمساعدتنا، أو لرفع التقارير عن سلوكنا، عالم من كائنات تراقب كل حركة من حركات أعضائنا، عالم من كائنات عليك أن تحييها إن دخلت مسجداً، أو مررت قرب مقبرة، عالم من كائنات تسبح بين النجوم، وتحمل أسرار الأرض إلى السماء، وأسرار السماء إلى أهل الأرض، عالم من كائنات لا تأكل ولا تشرب، بل تعبد الله وتنتظر، أخذ يورد حكايات يكملها الشيخ يوسف، يتلوها بحكايات يكملها أبو منير و.... تكامل العالم يقف فياض على بابه، عالم صنعوه من خوف وسعادة، من طمأنينة ورعب، و.... ظل فياض خارجاً رغم إدمانه الطرق على الأبواب.

سنتان انقضتا منذ أن دخل فياض حياة الدكاكين، سنتان لبس فيهما القمباز، وتعلم التربع على الكرسي المغلف بفراء الخروف، سنتان أفلح في نهايتهما بإفلاس الدكان، ومراكمة عدد من دفاتر الديون، ولكن حسيبة لم تستسلم أمام إفلاسه، قالت: سيظل دكان حمدان الجوقدار مفتوحاً.

- ولكن الدكان مفلس، لا رأس مال ولا بضاعة.

- سنعيد إليه شرفه، سنعيد إليه الحياة.

وقالت زينب وهي تبعد هشام عن ثديها في كسل:كيف؟

- سنبيع مصاغك، وسيظل دكان الشيخ حمدان مفتوحاً.

ولوت زينب برأسها غير آبهة:

- لا داعي لهذا كله.

- الدكان يجب أن يظل مفتوحاً.

ـ ولكن، لم لانساعده على إعادة افتتاح جريدته، واستعادة اسم فياض الشيزري؟.

ولكن الرفض جاء هذه المرة جاء من فياض نفسه: لا. ففياض القديم مات.

ـ الشر بعيد يا حبيبي. الشر بعيد، بل يجب، أنت لم تخلق لتكون دكنجياً.

ـ ولا للصحافة في هذا البلد.

ـ فماذا ستصنع إذن؟.

ـ لا أعرف.

وقالت حسيبة في تصميم: أنا أعرف، ستفتح دكان حمدان الجوقدار، ولن نجعل أهل السوق يشمتون باختفاء اسم الجوقدار.

وفتح الدكان من جديد، وفتحه خلو أذرع المرأتين من حليهما، ورغم محاولة حسيبة البقاء قريباً من فياض تعلمه ما يجب أن يصنع في الوقت المناسب إلا أنه أفلح في إفلاس الدكان في ستة أشهر هذه المرة فقط، ولم تستسلم حسيبة، قالت: دكان حمدان الجوقدار سيظل مفتوحاً، وراية بيت الجوقدار يجب أن تظل عالية حتى يئين الأوان.

وكانت حين تقول ذلك تنظر إلى هشام، فهذه الخيبة التي أصيبت بها في فياض قد غيَّرت كثيراً من علاقتهما، فبعد الحب الحارق الذي ألهبها يوماً حلَّ محله نوع من حنان وحسٌّ بتملك شيء جميل. صحيح لا يمكن الإفادة منه، ولكن يمكن الفرجة عليه، ولكن بعد إفلاس الدكان الأول حلَّ محل الحنان خيبة الأمل، وبعد إفلاس الدكان الثاني حلَّ محل خيبة الأمل الحزن، وبعد الإفلاس الثالث حلَّ محله الحزن، والغضب، فالنقمة، فالمرارة، فالشجار الذي أذاب الجليد الذي أحاط نفسه به منذ أن علم بأن إياد قد عاد إلى جريدة خليل بك، وأنهما يرقيان معاً معارج السياسة، ورثة جدداً مستحقين بعد رحيل فرنسا.

بعد سنتين من لبس فياض ثياب حمدان عاد للمرة الأولى إلى القراءة بعد أن تخلى عن قراءة أي شيء مطبوع عدا الحكم المعلقة

على جدران الدكان، والقرآن، ودلائل الخيرات، فقد سأل فياض الشيخ يوسف بعد أن صليا الجمعة في الجامع الأموي: ولكن لماذا يحمل الخطيب سيفاً؟.

فقال الشيخ يوسف وهو يهز وجهه الصغير المحاط بلحية كاملة البياض:

ـ ألا تعرف؟

ـ لا بالطبع، وإلا لما سألتك، أهو يهدد الفرنسيين؟

ـ لا. ولكن تلك سنة يقوم بها الخطيب في المدن التي فتحها المسلمون حرباً.

ـ ما يعني هذا؟

ـ إنه تذكير من تحدثه نفسه بالسوء بأن السيف الإسلامي على استعداد.

ـ هاه. قالها فياض ولم يشأ الدخول في نقاش عن فرنسا الأجنبية واحتلالها الوطن، ولكنه وقبل أن يصل نهاية سوق الحميدية قال: ولكني أعتقد أن دمشق قد فتحت صلحاً.

ـ لا، بل حرباً.

ولما بدا عدم الاقتناع على فياض مضى به إلى الشيخ عبد الكريم الذي أعاره كتاب فتوح الشام للواقدي قال: اقرأه وستعرف كل شيء. تردد فياض قليلاً، فلقد كان عاهد نفسه على نسيان الماضي، ولكن البسمة المطمئنة والهدوء المحيط جعلاه يضعف ويأخذ الكتاب ويبدأ رحلة الحرف الثانية، تلك الرحلة التي ظن أنه طلقها منذ لبس ثياب الشيخ حمدان، تلك الرحلة التي بدأت بتاريخ الواقدي، وانتهت بالعودة إلى القراءة باللغة الفرنسية، تلك اللغة التي لم يهتف بحرف من حروفها منذ سفر الماجور روجيه لوبلان.

حين قرأ فياض تاريخ الواقدي أحب تلك السذاجة الطيبة في الكتاب فلقد رأى أنه ليس من الضروري أن يكون ما تقرأ هو ماحصل فعلاً، بل ما نريد ونعتقد أنه حصل، كان تاريخاً كتب لنا، لما نحب أن يكون، وكما نحب أن نراه، فكل واحد من **(نحن)** قديس

طيب محروس بالملائكة، وما عليه إذا ماوقع في مأزق إلا أن يصلي، ويطلب من الله النصر لتنزل الملائكة لنصره، أما هم فكلهم أشرار قساة مجرمون كثيرو العدد، ولكن منخورو الروح، إنَّ دورهم في الحياة هو إثبات طيبة نحن واستحقاقنا النصر، وغرق في التاريخ، ذلك العلم الذي انتزعه يوماً من سعادة روجيه وماتيلد، غرق في اكتشاف الآباء والأجداد ومآسيهم وأحزانهم وأفراحهم، غرق حتى بدأ ذلك الجدار الجليدي ينمو بينه وبين أهل البيت جميعاً، فصارت رؤيتهم له على الغداء فرحة، ومداعبته لهشام بهجة، وملاطفته لزينب نصراً، أما تحيته لحسيبة فصارت حلماً، غرق في عالمه الجديد، هذا العالم الذي أنشأه تواطؤ غير معلن بينه وبين حسيبة؛ الدكان سيظل مفتوحاً، ولكن بشكل رمزي وحتى لايشمت الأصدقاء فقط! أما هو فسيقضي وقته في الفرنكة في القراءة، وفي الدكان فيما بين الزبون والزبون في مراجعة ما قرأ، واستخلاص النظريات والأفكار، وكان يمكن لهذه المرحلة أن تدوم إلى الأبد لو لم يضرب الجنرال أوليفا روجيه دمشق بالمدافع، فيذعر النساء، ويهرب الأطفال، ويبعدهم عن بيتهم فيفيق فياض من سباته الطويل ليكتشف أن حسيبة قد باعت نصف أرض كفرسوسة لتغطي خسائر الدكان وأحلام اليقظة التي عاشها.

بعد ضرب دمشق ودخول الجنرال الإنكليزي سبيرس ثانية دمشق، وقيام المظاهرات أعلن الاستقلال، هذا الاستقلال الذي كان الوحيد لم يفرح ولم يبتهج لحصوله هو فياض،فقد سأل أسئلة لم يجبه عليها إياد حين طلب منه الخروج من عزلته، ثم سأل أسئلة لم يجبه عليها خليل حين طلب إليه ترك الدكان والقمباز والعودة لاستلام جريدة الأنوار، ثم تراكمت الأسئلة حتى تحجرت دون إجابات.

ـ هل حُلَّ الجيش الذي بنته فرنسا؟

ـ لا.

ـ هل حُلَّت الشرطة التي أنشأتها فرنسا؟

ـ لا.

ـ هل حُلَّ الدرك الذي نما تحت جناح فرنسا؟

ـ لا.

ـ وبهيج بك والمديرون العامون هل لوحقوا قضائياً؟

ـ لا.

ـ فعن أي استقلال تتحدثون إذن؟.

وعاد إلى دكانه يقرأ الحكم القديمة، وينغمس في وضع النظريات الجذرية.

قبل عودة فياض الأخيرة إلى دكانه وانغماسه في قراءة الحكم القديمة ووضع النظريات النهائية كان الجنرال سبيرس الوزير المفوض لبريطانيا العظمى في سورية ولبنان قد أعلن استقلال سورية ولبنان في العام ـ 1943 ـ وذلك بعد انتصار فرنسا ديغول على فرنسا فيشي. بمعونة بريطانيا العظمى بالطبع، فـ..... انتشرت الأفراح، وعمَّت البهجات، وعرف الناس أن أيام الظلام قد مضت، ولكن فياض لم يتحرك من مجلسه وراء الجام يمسك بكتابه متربعاً على الكرسي الكبير ذي الذراعين. يقرأ منحرفاً بنصف ظهره إلى جام الدكان يستمد الضوء للقراءة، ورغم أن أبو منير رأى في اليوم الثالث لإعلان الجنرال سبيرس استقلال سورية ولبنان مناماً غريباً استيقظ على أثره يرتجف، مما جعل أم منير تستيقظ مرعوبة تبسمل،وتتعوذ طالبة من الله أن يكون ما رآه، فأجابها:

ـ رأيت أني كنت في الجامع الأموي.

ـ هه. اللهم اجعله خيراً.

ـ وبينما كنت أتجه إلى البحرة الكبيرة لأتوضأ سمعت هاتفاً يقول:

ـ أبو منير لقد جئت.

قالت زوجته في لهفة تستحثه: هه. من. من الذي قال ذلك؟.

فتابع: تلفت من حولي أبحث عن صاحب الصوت فقد كان صوتاً دافئاً حنوناً يداعب القلب، ولكني لم أر أحداً.

فقال الصوت: أبو منير أنا هنا ارفع رأسك، فرفعت رأسي، وعندئذ، عندئذ يا أم منير.

وابتلَّت عيناه من التأثر.

ـ هه. أكمل إكراماً لله.

ـ رأيته واقفاً على مئذنة العروس.

ـ من ؟.

ولم يهتم للإجابة فقد أكمل: كان النور يحيط به من كل جانب، وكانت ثيابه الخضر الجميلة تقول إنه هو، وعندئذ عرفته، وعرفت أن أيام شقاء المدينة قد انقضت، ووجدت ركبتيَّ ترتخيان وأنا أركع أمامه فرحاً مطمئناً.

ولم تستطع أم منير الصبر، فصرخت: من؟ من ؟

فهتف في غضب: ألا تعرفين؟.

وعندئذ عرفت أم منير من يعني، عرفت أنه قد رجع أخيراً،رجع كما وعد، فنقلت البشارة إلى جارتها التي نقلتها إلى زوجها الذي نقلها إلى جيرانه في السوق، واستبشرت المدينة كلها، ولم تلبث باحة الجامع الأموي أن امتلأت بالناس يسعون باحثين عن هذا القادم الذي انتظروه طويلاً.

ورغم أن طفلة في الثالثة عشرة من عمرها في حي القصاع ـ حي المسيحيين ـ هتفت في رعب فرح: لقد رأيتها. لقد رأيتها.

وسارع أبواها إليها يسألانها عمَّن رأت، فأرتهم قطرات من زيت مبارك على يديها وعلى جانب النافذة، قالت:

ـ سمعتها تقول لي: قومي يا ابنتي قومي، فلقد آن للمنتظرين أن يروني، قومي أيتها المباركة.

واستبشر الأبوان برؤية ابنتهم لتلك التي طال غيابها عن المدينة، فأعلنا الخبر مبتهجين على الجيران، وحين سمع بذلك كاهن الكنيسة المجاورة سارع للتأكد من الخبر، فزار بيت الطفلة، وتلمس الزيت بأصابعه، وشمَّه بأنفه، ثم ركع أمام الطفلة طالباً أن تباركه.

وتجمع الناس أمام البيت يبحثون عن البشارة، ويسعون وراء القديسة الصغيرة تشفيهم من أمراضهم، وتعيد إليهم أحبابهم، وتؤكد لهم أن طريق القوافل قد عاد أخيراً إلى المدينة، عادت وجاءت معها بأجناس ما سمعت بهم مدن الواحات من قبل، عادت وجاءت معها بالإنكليز والنيوزيلنديين، بالكنديين والأستراليين، بالهنود والسيخ، عادت وجاءت معها بالأموال يسفحها هؤلاء الجنود في زواياها العتمة، عادت وجاءت معها بالمؤن والبضائع الغربية يأتون بها معهم، فعرفت أزقة المدينة الخلفية الراديو والسينما والسيارات والشوربة المكثفة كقوالب الصابون. عادت فأنتشت الأكياس التي تكيَّس بها أولئك المنتظرون منذ قرون، فانقضُّوا على القوافل القادمة يبيعون، ويشترون، ويراكمون الثروات، يبيعون ويسمسرون، يبيعون ويخفون البضائع ليعيدوا بيعها بأسعار من نار، فاختفت عائلات، وظهرت عائلات، وارتفعت أسماء شيوخ حارات، ومشائخ شباب وسياسيون وحكام وأمراء، وزعماء جدد، عادت وأدرك الجميع أنهم كانوا على حق في الانتظار فهاهي القوافل التي كانوا ينتظرونها تصل، أفلم يكونوا على حق في الانتظار إذن؟.

وعلى الرغم من الجنون الذي انتشر في المدينة وعلى الرغم من البركة التي طرحتها القوافل الجديدة في المدينة، إلا أن الوحيد الذي لم يعرف بذلك كان فياض، فقد ظلَّ الدكان يخسر، وظلَّ فياض في مجلسه نصف المنحرف يقرأ التاريخ ويصنف الهوامش، ولكن الدكان ظل مفتوحاً استجابة لطلب حسيبة التي كانت تنتظر أن يكبر الابن الحقيقي لبيت الجوقدار، الابن الذي انتظروه طويلاً ليرفع راية البيت التي يجب ألا تنزل.

وفي إحدى تلك الانتظارات قالت حسيبة لزينب: هناك حقيقة ثابتة واحدة يازينب، الدم دم، والماء ماء، ولما سألتها زينب عما تعني؟ لم تجب، بل اكتفت بالنظر إلى ذلك الملتحي لحية صهباء جميلة ينزل الدرج وعلى كتفيه معطفه المحكمجي الكبير يخضخض من حوله.

(14)

تلك الصداقة الحميمة التي استطاعت يوماً أن تسرق فياض من عالمه الباريسي، من روجيه وماتيلد والأحلام التي نشرها من حوله

عن الفارس الشرقي المغامر في مدينة كانت قد فقدت الخيال بعد حرب عبثية طويلة كشفت لهم سخف كل شيء ولا جدواه.

تلك الصداقة الحميمة التي استطاع بها إياد سرقة فياض من عالم باريسي كان قد ذاق مرارة الموت سخفاً ولا معنى، فقرر نهل اللذات كيفما وصلت إليه، وكان من حسن حظ فياض أن يصلها في وقت كانوا قد كرهوا فيه كل تقدم مادي وسئموه، وصلها في وقت انطلقت فيه خيالات بريتون وتريستان ودالي من عقالها مسببة موجة من ارتعاشات الحلم بين أولئك الناس حين لمسوا بأيديهم المجردة الواقع الصخري وسيطرة العقل المجرد لنهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، لمسوا كيف يكون الواقع صخراً بلا روح، بارداً دون دم، قاسياً دون أمل.

وكان من حسن حظ فياض أن وجد نفسه في ذلك الظرف، فجرب ركوب حصان الخيال يطير به عابراً محيطات من أساطير، قافزاً فوق جبال من ألف ليلة وليلة، جاذباً حسناوات سئمن الأرقام إلى أحضانه إلى أن جاء إياد، فعاد به إلى الوطن في تلك المغامرة المحزنة التي أخذت تنمو بقوتها الذاتية ككرة الثلج حتى وصلت به إلى حسيبة وفرنكتها القريبة من السماء المسكونة بأشباح الشيخ عبد العزيز وشيخ البحرة، بحمدان وخالدية وأحزانهما، بعمر وياسين ونظرات وداعهما، بصياح الأبكم المعزول في ذلك السجن المصنوع من لبن وزريقة، وخشب غشيم اللون.

تلك الصداقة الحميمة لم تلبث أن أخذت تتآكل كقطعة ثلج تعرضت لشمس الظهيرة، ففي الوقت الذي كان فيه فياض يبحث عن ذات جديدة في ثياب الدكنجي، وفي الوقت الذي عاد فيه إلى القراءة يستكشف مقدمات الحاضر في الماضي، وفي الوقت الذي اعتزل فيه الناس مابين الفرنكة وجلسة الدكان نصف المنحرفة يراقب الزبائن ويعتصر التاريخ، كان إياد يبحث عن خلاص خاص، وفي الوقت الذي كان إياد يصر على عدم قطيعة فياض وزيارته بين الحين والآخر قائلاً: تعال إلينا فنحن بحاجة إليك، كان فياض يسأله، ولكن، من أنتم؟ أعطوني هوية لأنضم إليكم؟ وفي الوقت الذي انتقل فيه خليل بك من صاحب جريدة معارضة إلى موالية، فمعارضة، حتى تحقق حلمه فدخل الوزارة عضواً جديداً رغم احتجاج الكثيرين من

النواب والوزراء بأنه.... لايملك شهادة الكفاءة، وفي الوقت الذي كان فيه فياض يكتب الهوامش، ويستخلص العبر، ويرفض أن يشارك في غنائم مابعد الاستقلال، كان يتجلد ويتصبر ويتظاهر بالزهد الذي كان يشعه من حوله، وكان ينمي مرارة خاصة يربيها في أصيص صغير خبأه بدءاً في جيبه الداخلي ولكنه لم يلبث أن تسلل فالتصق بالجلد، ثم غافله في أحد الأيام، فاخترق اللحم وسكن وردة القلب.

تلك المرارة التي حملت معها شعار حسيبة الدائم تكرره كلما وقعت في مشكل: دعها في القلب تجرح، ولاتبدها للآخرين فتفضح، تلك المرارة أخذت تشرب من لونه الزاهي يوماً إثر يوم، تسرق من ألق العينين وطول الهدبين وسواد الشعر، وحين ظن أخيراً أنه لن يحتمل أكثر مما احتمل جاءه منصور فقال: أستاذ فياض. أنا منصور.

ـ أي منصور؟.

ـ منصور جريدتك القديمة، جريدة الصرخة أنسيتني؟.

وكانت العناقات، وكانت اللقاءات، وكانت اللهفات، وكانت يقظات جديدة للقلب انتقلت بهما من القنوات الكابي إلى مقهى النوفرة الزاهي بعيداً عن الأبو منير والأبو سعيد والشيخ يوسف.

ثم فاجأه منصور حين قال: أستاذ فياض، الأمور اختلطت هنا، لم تعد تعرف الأبيض من الأسود.

ـ فماذا ترى؟

ـ نمضي إلى فلسطين، فالإنكليز سيرحلون، واليهود سيعلنون دولتهم.

وقال فياض حالماً: فلسطين!

ـ نعم، فهناك الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وليس بينهما أمور مشتبهات. أما هنا....

ـ أما هنا فالأوراق مختلطة.

ـ دعني أفكر.

وطال التفكير، وكان كلما رأى نظرة زينب الشاردة الجديدة أحس بالإثم، فكيف يتخلى عنها الآن ويمضي؟.... ويفكر حتى يأتي منصور. هه. متى؟

ـ دعني أفكر!

ويبدأ التفكير فيرى هشام يستقبله عادياً من الإيوان ليلتصق بساقيه طالباً حمله حتى البحرة يوقفه على جدارها بينما يغيظه بحك لحيته الخشنة بوجهه.... فيحس بالإثم، فكيف يتخلى عنه الآن؟ ولمن؟ ويفكر.... حتى يأتي منصور: هه ـ إلام وصلت؟

ـ دعني أفكر.

وأخيراً لم يبق مجال لتفكير كثير حين قال منصور:

ـ الشباب سيمضون. أستأتي معنا، أم نمضي وحيدين؟.

وخاف فياض العزلة ثانية. فمضى إلى البيت، وقال كلمته التي سترددها حسيبة كثيراً، ترددها ممرورة حيناً، وساخرة أحياناً: سأمضي إلى فلسطين، سنطرد اليهود، ولن نترك فلسطين تضيع... ولكن حسيبة حين سمعتها منه لم تصدق كثيراً، فهي قد وضعته في خانة الحالمين أولئك الذين لن يصنعوا شيئاً قط، لذلك اكتفت حين سمعته بليِّ شفتها جانباً، ولم تردَّ. ولكنها في الصباح التالي، حين اكتشفت أنه ... فعلها ومضى، واكتشفت أنها خُدعت للمرة الثانية، فهاهو رجل آخر يتحداها، ويهجر البيت المريح والحياة الهادئة، ويمضي ليلحق بفلسطين منقذاً ذلك الوعد الكئيب، مخلياً البيت لحسيبة، ونسائها ثانية اكتشفت أنَّ قدرها في أن تكون الذكر والقائد لبيت من نساء، قدر لامهرب منه.

نظرت من حولها، ورأت الرعب والجمود والهدوء والسكون في عيني زينب. نظرت من حولها، ورأت زينب تراقب صامتة العينين شجرة المسك العملاقة والنارنجة ودالية العنب الحلوانية والبحرة فعرفت أنها تودع البيت كما ودعه عمر وياسين وأحمد ومحمود ومحمد علي، فصرخت من قلب مثقل بدم عتيق أسود: لا. فارتعدت زينب، ونظرت إليها ثانية متخلية عن رحلة وداعها تلك، وحين التقت العيون الأربع فرحت حسيبة، فلقد استعادت زينب بصرختها

من عالمهم الذي يشدون أبناءها إليه كلما أرادوا إيلامها، ولكنها حين استعادتها اكتشفت أنها لم تستعد زينب القديمة بل زينب أخرى، ربما كانت قرينتها، وربما كانت أختها البسم الله الرحمن الرحيم، وربما كانت أختها الأرضية، ولكنها لم تكن أبداً زينب الأولى التي ولدتها ورعتها وهدهدتها وسقتها من دمها الأبيض، وتخلَّت لها عن الرجل الوحيد الذي أنبت لها حراشف في قدميها ودموعاً في عينيها، وبياضاً في شعرها و... ارتخاء في شفتها وانكساراً في عينيها.

نظرت من حولها ورأت هشام المسكين ينظر من حوله في ذعر غير فاهم، فزينب التي إلى جانبه ليست أمه، وفياض الذي كان يعدو لأحضانه قد مضى، نظرت من حولها، واكتشفت أن البنت التي كبَّرتها وزوَّجتها وأنجبتها هشام لم تنضج قط لتصير امرأة، أختا تسند كهولتها، لم تكبر قط لتصبح الصديقة والنجية والخليلة ورفيقة العمر العجوز تتكئ عليها، وتفتح لها كهوف قلبها، وتنتظر منها ملعقة الماء المحلى بالسكر قبل أن تغمض عينيها الإغماضة الأخيرة.

حين نظرت إليها اكتشفت أنها بصرختها (لا) تلك قد استعادت قرينتها العاجزة، ولكن متى لم تكن زينب عاجزة؟ متى لم تكن اللبلابة المحتاجة أبداً إلى سنديانة تعتمد عليها؟ وبكى قلبها الداخلي حزناً، فدخلت غرفة الضيوف تتأمل بارودة مهجورة، وجناداً خجولاً، ورمحا ًعجوزاً ودرعاً ثقبتها حشرات العث الصدئة. دخلت غرفة الضيوف، واستدعت صياح تعاتبه، ولكنه أشاح بوجهه عنها وقال: حسن يا حسيبة، حسن أيتها البنت التي وهبتها العمر، ووهبتها الجبل، فتحولت إلى دكنجية، لابأس. سأمضي وتبكين، سأمضي وتعضين أصابعك، سأمضي وتأرقين الليالي، سأمضي ولكنك لن تستطيعي القول إن إنساناً استطاع أن يمنع صياح المسدي عن الانضمام إلى رفاقه حين آن الأوان، وحاولت استرضاءه لكنه مسح بكف مشققة على البارودة المهجورة، ومضى.

استدعت الشيخ عبد الحميد، فهزَّ رأسه في وقار: خرقت النواميس، وتحديت الشرائع، خرجت إلى الجبل وخالطت الذكور، شاركتهم طعامهم، وحملت سلاحهم. لذا فالذكور تحرمين، امرأة تنجب امرأة، وأنثى تلد أنثى.

هزَّت رأسها في أنين، والتفتت إلى النافذة تستدعي خالدية خانم، فقالت لها بفم أدرد وشفتين صفَّرتهما سكائر اللف: الحب كلبين علقانين ببعض...

انتفضت تلوب في خوف، أي حب؟ أي حب؟ أرادت أن تصرخ من قلب جريح ثانية: لا، ولكنها خافت أن يفهم البسم الله الرحمن الرحيم اعتراضها، فيمعنوا في الانتقام، فابتلعتها، وخرجت ثانية إلى الباحة لتراها ثانية وقد تجمد الذعر في عينيها، فتمنت لو تبكي، لو تنوح، لو أنها تلطم فتخرج مافي قلبها إلى السطح فيسكن بركان القلب، ولكنها لم تفعل، لأن كل ما صنعت منذ تقلبت في سريرها فاكتشفت برده هو أن نزلت عن السرير، فالمشرقة، فالدرج إلى أن وصلت أسفل الدرج، فجلست على الدرجة الثانية، واتكأت على الدرابزين محدقة أمامها صامتة جامدة، لا ترى، أو تسمع أو تنطق.

حين خرجت حسيبة من غرفة الضيوف بعد أن ناجت الأحباب الغائبين تحاول استمداد قوة لم تعد موجودة لديهم، تحاول الانتصار بقواهم الكامنة في تلافيف الذاكرة وخيطان عنكبوت الروح فوجئت بها لم تتحول من جلستها، فنادت هشام وطلبت منه أن يمضي إلى بيت مريم، فقد أرادت أن تفتح مع زينب حديثاً طويلاً، أن تحاول أن تدخلها مملكتها الأنثوية، أن تشاركها غابة الأحلام والذكريات وبناءات المستقبل، ولكن زينب هي من صرخت هذه المرة: لا.

صرخت زينب للمرة الأولى منذ استيقظت، فاكتشفت أن فياض قد مضى منذ تقلبت في سريرها، فاكتشفت خلوه، منذ أن فتحت عينيها في رعب، فعرفت أنه مضى كما وعد إلى فلسطين ليحررها، ولن يتركها تضيع، صرخت في حزن أخرس حسيبة، وجعلها تسمع صياح يصرخ معها:

ـ لا. لا. لن يمضي.

ـ ولكن، لماذا؟ الأفضل أن يكون عند مريم، فلدي حديث طويل معك.

ـ لا لن يفارقني بعد اليوم، أنت من جعل فياض يهرب كما هرب صياح، ولكنك لن تهربي هشام.

هذه الجملة الوعد الوعيد النبوءة ستظل النغمة الأساسية في حوارات كثيرة لن ينطق بها بين المرأتين، ولكنها ستظل التهمة التي ستحاول حسيبة الهروب منها طويلاً، وتمتمت في ضعف فقد كانت تدرك أن الأخرى ربما كانت على بعض حق: ماذا تقولين؟

ـ ماسمعت تماماً. هشام سيظل إلى جواري.

ـ ومن قال إنه سيبتعد عن جوارك. سيظل هشام إلى جوارك.كليه واشبعي منه.

ـ لن يفارقني بعد اليوم أبداً.

ـ حسن. لن يفارقك ـ ثم تابعت في انكسار ـ التصقي به.

كان واضحاً أنَّ أيَّ إمعان في الحديث لن يكون إلا فاتحة لشجار الله وحده يعلم ما نهايته.

انسحبت حسيبة، ولم تفتح قلبها لزينب، لم تحدثها عن حزنها لغياب فياض، لم تحدثها عن خيبتها بإفلاس الدكان، لم تحدثها عن حزنها على العينين الخضراوين لم تتكشفا عن رجولة، لم، لم، ولم...

انسحبت حسيبة إلى الديوان إلى جانب البحرة، فاتكأت على الوسادة، راقبت صعود زينب إلى الفرنكة تصطحب هشام، سمعت الباب يغلق من خلفهما، فذكرت جملة الشيخ عبد الرحمن: امرأة تنجب امرأة، وأنثى تلد أنثى، فأنَّت في ألم، وتسلل حزن رقيق إلى القلب فغلَّفه، يا إلهي أي قدر هذا؟ ماالذنب الذي جنيت؟ أليس من مصالحة، أليس من فداء؟ عمر وياسين أف.... وأخيراً فياض، وخافت أن تلفظ اسم هشام، فتذكرهم بهم، فيضيع كما ضاعوا، استرخت على الديوان لاتسمع خرير البحرة الذي اعتادت أن تفتن به، تقلبت على الديوان لاتشم روائح زهر الياسمين والنارنج العابقة، تقلبت وإحساس بالخيبة قديم يتفجر بهدوء متسللاً انفجارة فانفجارة، واستيقظت الأحزان القديمة كلها، وكادت تستعرضها، استيقظت وإحساس بالشفقة على النفس يتنامى حين سمعت حركة غير عادية في الفرنكة، فحاولت أن تتنصت، ولكنها لم تستطع أن تتبين إلا حركة ما تتم هناك فوق، حركة فيها نشاط وقوة لم تعتدها حسيبة من زينب، فانتصبت من رقادها تستكشف ما يجري هناك فوق.

في بضع السنوات التي انقضت منذ زواج زينب من فياض تهاوى الصنم الفياضي أمام عيني حسيبة، فلقد خذلها كما خذلها صياح حين رفض الزواج والاستقرار، ومضى إلى فلسطين، خذلها كما خذلها حمدان حين رفض التحول إلى تاجر، ولكن فياض... تكشف عن عالم رخو يختلي بالكتب أكثر مما يختلي بدكانه، ويختلي بنفسه وبتلك الأوراق الحزينة أكثر مما يختلي بامرأته، فياض هذا كان نبع خيبة لا ينضب لحسيبة، فكلما ظنت أن سقطته هذه ستكون الأخيرة، وسيتعلم في النهاية، وينهض فاجأها بمهارات عجيبة في السقوط والإفلاس، وكان تحول حبها له إلى حنان، فأسف، فحزن إلى غضب ونقمة، ثم شجار بداية سوء العلاقة مع زينب، فهذه الطفلة النحيلة الجميلة الوحيدة التي كانت محط دلال حمدان وخالدية وحسيبة ومريم، هذه الطفلة التي لم تعرف رفضاً لطلب طلبته، هذه الطفلة التي فوجئت برفض حسيبة زواجها من فياض، فلم تجد جواباً على أول رفض لطلب طلبته إلا المرض الذي ما إن قرعت بابه حتى لم تعرف طريقاً للخروج من مملكته، هذا المرض الذي ساعدته بنحولها وخوفها الدائم على فياض الذي تحول أمامها إلى حلم وسراب لايمسك فهي تراه يومياً، وعلى مائدة الطعام، ولكن غلالة الحزن التي غلفته منذ غيَّر ثيابه، وعاشر الأبو سعيد، والأبو منير، والشيخ يوسف منذ قرر دخول عالمهم، فلم يتمكن، وكان يشتهي أن يرجع إلى عالمه فلم... يتمكن. فياض هذا الذي حولته غمامة الحزن والخيبة والانكسار إلى سراب حي أمام زينب لم يلبث أن حولها إلى مريضة بالانتظار، مريضة دواؤها وهم عودته فياض القديم المحدث، البارع، الظريف، الرحالة، عازف الناي، مكتشف العالم، وهم رجوعها إلى تلك السعادة التي ما عرفتها معه إلا بضعة شهور، وفي جلسات جانب البحرة، وأحاديث رقيقة، ورحلات عبر الكلام، ولكنها ما إن طردت خارج غمامة حزن فياض حتى عاودها مرض النحول وفقد الشهية والانتظار والعصبية والشجار مع الأم.

تسلقت حسيبة الدرج منهكة مثقلة متعبة، وكانت تتمنى ألا تصعد، ولكن الأصوات غير العادية المتسربة من الفرنكة جعلت من غير الممكن ألا تستطلع ما يصنعان فوق... حين دخلت زينب الفرنكة مع هشام صدمتها فكرة أنه قد مضى، وحقق الوعد الذي عرفت ـ الآن فقط ـ منذ زمن طويل أنه لابد منجزه، فقد كانت (**تعرف**) ولو بشكل

غامض أنَّ فياض لن يستقر، فهو ليس دكنجياً، ومهنة الدكنجي لم تخلق له، كانت تراقب تحولاته في حزن، تراقب تساقط فياض الباريسي أمام فياض الدكنجي قطعة فقطعة، وكرافتة فجاكيتاً، فلحية حليقة بلحية مهملة، كانت تراقب هذا، وتعرف أنه أشبه بلعبة تنكر منه بالحقيقة وتتساءل: متى يفعلها ويعود فياض الذي حدثها إلى جانب البحرة عن مدن الأنوار المتقدة أبداً، عن مدن القطارات تمشي تحت الأرض، عن مدن الكرات المطاطية تحمل العشاق والفرح... ورغم أن تخميناتها عن عودته فياض القديم كانت صحيحة إلا أنها لم تخمن أنه سيهجرها حين يعود فياض القديم ليمضي إلى فلسطين.

جلست إلى جانب السرير، وأجلست هشام إلى جوارها، يا إلهي... إنه لا يزال هنا! همست في حرقة، فقد رأته في كتاب خطط الشام المفتوح مقلوباً على المكتب، اقتربت من المكتب، قلبت الكتاب، تشمَّمته تبحث عن ريحه، ورغم رائحة الورق والحبر القويتين، إلا أنها تقسم أنها شمَّت ريحه في الكتاب، أعادت الكتاب مفتوحاً حيث تركه، نظرت إلى الأوراق التي وضع عليها آخر ملاحظاته، واستطاعت أن تتهجى بخطه العجل: أقام الصليبيون مئة وخمسة وثمانين عاماً. ترى كم يقيم اليهود؟

وحين حاولت فهم هذه الجملة صدمت، فماذا يعني هذا؟ هل يعني أن اليهود سيبقون؟ وهل يعني أنه سيغيب حتى يطردهم؟ ولكنه.. سيعود. هي تعرف أنه سيعود. سيعود من أجلها، من أجل هشام، من أجل جلسات البحرة، من أجل الحب الذي تحمله له. سيعود. فليس من عدل في السماء أو في الأرض يسمح أن تخسر امرأة أحبت كما أحبت الهدف الوحيد والأمل الوحيد والبعل الوحيد الذي عبدت، ولكن... ماذا لو كان يجربها؟ ماذا لو كان يجرب إخلاصها. ماذا لو كان يختبر حبها له؟ آه... وتركت هشام يلاعب الكناري في قفصه، وجلست تفكر. كيف تبرهن له عن إخلاصها وحبها وتعبدها وانتظارها...؟ وفي لحظة أشرقت الفكرة، عرفت ما يجب أن تصنع. ستحفظ آثاره، ريحه، الشراشف التي نام عليها، الكتاب الذي قرأه. أصص النباتات التي أحبها، العصفور الذي دلله، الهواء الذي تنفسه، ستحفظه جميعاً كلحظة مضى، ستترك كل شيء في انتظاره حتى إذا ماعاد وسيعود، فسيجد كل شيء كلحظة تركه.

منذ تلك اللحظة التي عرفت فيها ما يجب أن تصنع، منذ تلك اللحظة التي قررت فيها كيف يكون الإخلاص تحولت الفرنكة إلى معبد، وتحولت زينب إلى سادن، تحولت الفرنكة إلى معبد لا يدخله ولا يمسه ولا يغير فيه شيئاً أحد سواه، حفظت في قلبها، في روحها، في ذاكرتها كل تفصيلة، كل ثنية في الفراش، كل ورقة نبات أحبها، كل حركة للكناري راقبها، وأغلقت الغرفة، سدَّت شقوقها بالقطن، فمنعت عنها أصوات الغريب، سدَّت منافذها بالخرق، فمنعت عنها روائح الخارج، سدَّت نوافذها ومداخلها بل وكوَّة مدخنتها حتى لا يخالط عالمه شيء آخر، حوَّلت غرفته إلى معبد وحوَّلت نفسها إلى كاهن ينتظر الرب الغائب حتى يعود.

حين وصلت حسيبة إلى الفرنكة فوجئت بزينب تدس الخرق والقطن في شقوق الفرنكة، وحين سألتها عما تفعل فوجئت بالوجه الغريب لزينب تراه للمرة الأولى: اخرجي. هذه الغرفة لن يدخلها بعد فياض مخلوق.

وخرجت حسيبة... عادت إلى متكئها على الديوان تستعرض الماضي، وتستحيي الأحزان، نظرت من حولها، بستان كفرسوسة بيع قطعة فقطعة، حصتهم من وقف الجوقدار لاتكفي لحياة كلبين، فكيف تكفي لعائلة؟ والدكان ذلك الدكان الغول الذي أكل كل شيء لايمكن أن يباع فهو نصيب هشام الذي سيبدأ به الحياة، هل تؤجره؟ وسمعت صرخة ملتاعة من مكان ما يحوم في البيت: لا. فدكان الجوقدار لن يدنسه غريب، وبدأت محنة حسيبة الثانية بزينب، زينب البنت، الضرة، البكماء، المعتزلة، ناسجة شرنقة الذكريات من خيوط الوهم، وتلفتت حسيبة من حولها، فإذا بها الوحيدة، هشام في الحارة إما مع وداد أو خليل وقد فرَّ بنفسه من الهواء الأسود المدوِّم في البيت، وزينب في جلستها على الدرجة الثانية متكئة على الدرابزين لاتأكل إلا إذا وضع الصحن والملعقة ونصف الرغيف في يدها، وحسيبة في متكئها تكر سبحة الأيام، وتعجب لفعل الزمان، ولولا بقية من حنان ورحمة للصداقة القديمة من مريم تجعلها تمر على البيت كل بضعة أيام فتنظف ـ وتحاول إعداد ما يؤكل من بقايا خزين الماضي، فلربما جاعت المرأتان والصبي الذي عرف أخيراً الخروج إلى الحارة.

بدأت محنة حسيبة الثانية حين لم يعد جسدها المتوتر يحتمل، فخرجت إلى الأسواق تبحث كما بحثت قبل سنين عن خلاص لم تنله.

خرجت فقد سئمت محاورة الجدران وملاطفة الماء المتسرب عن جوانب البحرة ورؤية الشفقة في العينين المختفيتين في شحم خدي مريم، خرجت فقد أخذ الجنون يقرع باب صندوق الصبر القديم، خرجت فذرعت سوق الحميدية وسوق الحرير والخياطين والقباقبية والصاغة، خرجت إلى الأسواق فجابت باب سريجة، وباب الجابية والسنانية، راقبت الخضريين ينزلون الخضار، يصفون البندورة، والباذنجان والكوسا والقرع، تأملت باعة رؤوس الغنم ينظفونها ثم يسلقونها بالماء والكلس ينزعون عنها الشعر والوسخ، راقبت العقادين يضربون على العقالات بمطارق من خشب، وقفت أمام الطرابيشيين يلبسون الطربوش قالباً من نحاس يكوون الطربوش من فوقه.

وأخذ التعب والملل والسأم يغزوها، وعادت نزعة التدين القديمة إليها، فزارت الأموي والشيخ محيي الدين، المولوية و السيدة زينب، السباهية، والسيدة رقية، ولكنَّ خواء هناك تحت عظام الصدر كان يقول لها: لا يمكن للرحلة أن تنتهي هكذا، لا يمكن! أنت حسيبة بنت صياح المسدي، أنت حسيبة الجبلية التي وقفت أمام الفرنساوي والمغاربة والسنغال، لا يمكن أن تستسلمي أمام قدر كهذا، يجب أن تصنعي شيئاً. وكانت تحار، فما هذا الشيء الذي تصنعه؟ هل تفتح الدكان بنفسها؟ لا سيكون هذا إهانة لبيت الجوقدار تفوق تأجير الدكان، لو أن هشام كبر، لو كان أكبر قليلاً، لو انتظر ذلك النصف امرأة، ذو العينين الخضراوين والمعطف المحكمجي المخضخض من حوله بضع سنوات، حتى يكبر هشام ثم مضى لما أسف أحد لغيابه ولكن....

ووصلت جامع النورية، حضرت الذكر، وسمعت المنشدين، ورأت الشيخ حمزة، فاهتزَّ جفنها المنكسر قالت: مولاي، القلب حزين.

قال: اكتشفي النور في قلبك.

قالت: مولاي. ظلمات الحزن لم تترك للنور مكاناً.

قال: النور الخالد في القلب لا ينقضي.

قالت: فقدتهم جميعاً، والحزن كثيف.

قال: النور من القلب ينبثق، لا من الآخرين، فابحثي عنه.

قالت وقد أحست راحة تتسلل إلى القلب كبرد البوظة يتسلل إلى المري ولاتعرف مكانه: كيف؟

قال: وهو ينظر إلى البعيد: ألم تجربي دخول الطريقة؟

قالت، ومازالت تستمتع بتلك الراحة المبردة: كيف؟

قال: تصومين سبعة أيام حتى يخمد الأرضي فيك.

فصامت، ثم جاءت إليه مرهقة منهكة لا تكاد تقدر على جر رجليها:

ـ وماذا بعد؟

ـ قال: تدخلين الخلوة تبحثين فيها عن النور الكامن في القلب.

ولم تسأل كيف، فقد سمعته من جارات وصديقات وزميلات كن يرغبن دخول الطريقة.

في يوم الجمعة الأول من رجب بدأت رحلة البحث عن النور الكامن في القلب، وحين قالت حسيبة: نعم. كانت تريد صخرة تتكئ إليها، تؤوي فيها سنينها الضائعة، ومهرباً من زينب ومعبدها الجديد المغلف بالقطن والانتظار، وملجأ من سكوتها الجارح، وجلوسها عند الدرجة الثانية تنتظر ذلك الذي مضى ليحرر فلسطين.

في يوم الجمعة الأول قبلَّت يد الشيخ حمزة وصلَّت وراءه العصر، ثم مضت مع الراغبات في الخلوة إلى غرف صغيرة لا نوافذ لها.

ـ قال: عليكن أن تذكرن اسم الله، تذكرنه من أعماق القلب حتى ترين النور ينبثق من قلوبكن.

حسيبة

دخلت الغرفة شبه المظلمة وحيدة، وذكرت اسم الله ذكرته وكررته مخلصة، ومن عمق القلب، ولكنها حين كانت تذكره كانت آسفة ترى صياح ينظر إليها من عتبة المربع الكبير ويقول في مرارة: سأمضي وتبكين، سأمضي وتعضين الأصابع، سأمضي وتأرقين الليالي. فإذا ما أغمضت العينين هاربة تبحث عن النور المنبثق من القلب رأت حمدان يقول: الحمد لله مستورة، رزقنا من الدكان ومن البستان وحصة الوقف كاف وزيادة.

فإذا ما أدارت وجهها رأت فياض يقول: سأمضي إلى فلسطين، سنحررها من اليهود، ولن نترك فلسطين تضيع.

وتدير وجهها لتسمع همهمات: الله. الله في الغرف الجانبية العتمة الصغيرة حيث اعتزلت نساء كثيرات بحثن ويبحثن وسيبحثن عن النور الكامن في القلب، وتحاول الإصغاء لتدخل في ملكوت الانسجام المريحة، ولكنها ترى زينب تقول: جعلته يهرب كما هربت صياح، ولكنك لن تهربي هشام.

تحس بالاختناق، فتهرع إلى الله تحاول الهرب من أشباحهم فما تفلح إلا في تضييق حصارهم، فتستسلم ضعيفة أمام أحزان العمر التي تتراكم متسللة، وينقضي اليوم الأول، والثاني، والثالث، والأشباح تحاصر، تطارد، وتذكر بخيبات العمر.

في اليوم الثاني سمعت باباً يفتح، وخطوات تبتعد، وعرفت أنَّ واحدة قد رأت النور ينبثق من القلب.

في نهاية اليوم الثاني سمعت بابين ينفتحان، وخطوات تبتعد، وغمرها الحزن، فهاهن يرين النور ويكتشفن السلام.

في اليوم الثالث سمعت أبواباً تفتح وخطوات تبتعد، فاختلط ذكر الله بذكر الحزن والجوع والعطش، وزينب وهشام والوقف وبستان كفر سوسة الضائع والدكان المهجور ومريم التي تخلت عن صداقة العمر ولحقت بالريح، وحين أذَّن مؤذن مغرب اليوم الثالث أدركت أنها كانت الوحيدة في الخلوة والوحدة لم تر النور، والوحيدة المطرودة من جنة الطريقة، فلملمت ملاءتها، وجمعت منديلها، وخرجت.

لم تقابل الشيخ، فقد خجلت من الاعتراف بأن سواد الخيبة والأحزان قد غطى نور القلب، لم تقابل الصديقات العارفات، فقد خافت نظرات التعاطف والرحمة في عيونهن، وعادت إلى البيت، عادت لتجد زينب في مجلسها على الدرجة الثانية تنتظر ذلك الذي تسرب ومضى، عادت لتجد هشام يأكل صحن مكدوس على جانب البحرة بأصابعه العارية فأحست أن الفقر والعوز، والحاجة والذل ستحل في بيت الجوقدار إن لم تصنع شيئاً.

غيَّرت ثيابها، غسلت وجهها، طبخت فأشبعت بطناً لم تذق طعاماً منذ أيام، اكتشفت أن زينب وهشام لم يأكلا الكثير أيضاً حين غابت. استلقت على الديوان في الباحة تراقب النجوم وتفكر، فهاهي تطرق باب بيت الجوقدار ثانية، ولكن ليس مع كتف صياح القوية تستند إليها، بل مع كتف هشام الطرية. أخذت تفكر عارفة أن ليس من أحد سواها قادر على صنع شيء لإنقاذ هذا البيت الذي ارتفع يوماً منذ عشرات السنين على يد الشيخ عبد العزيز الذي لم يخف شيخ البحرة بل قال له: السلام عليكم ليرد عليه شيخ البحرة بفم يغرغر بالماء: وعليكم السلام.

وانتفضت البحرة مزبدة فارتعدت متخيلة شيخ البحرة يتحرك فيها ذلك الذي صفعها يوماً فأعادها إلى جادة الصواب بصفعته، ولكنَّ البحرة لم تلبث أن هدأت، فعرفت أن عابثاً عبث بطالع الماء في الحارة، أرادت أن تعود إلى استلقاءتها حين ذكرت الشيخ عبد الحميد يقول: امرأة تنجب امرأة وأنثى تلد أنثى. وأرادت أن تهتف: ولكن لديَّ هشام حين انبثق النور الذي انتظرته في النورية طويلاً، فعرفت ما يجب أن تصنع، إن كان الرجال قد مضوا متخلين عن دورهم، فعليك أن تصنعي شيئاً لتمنعي الغرق عن السفينة ولتصلي بها إلى المرفأ حيث ينتظر هشام الكبر والرجولة.

(15)

كانت شهوراً طويلة التي انقضت، شهوراً أكلت فيها حسيبة وطفلاها الزبادي والمزهريات الشامية وأطقم الشراب والشاي والقهوة تلك التي أحبتها حسيبة أكثر من أي شيء آخر، أكلوا الثريات النحاسية ولولا قليل من تردد وخجل لأكلوا بارودة صياح ودرع حمدان المثقب بعث الصدأ. كانت شهوراً طويلة من التردد والبحث عن حل والجلوس الخامد قد انقضت حين طرق إياد الجوقدار الباب، نظرت إليه حسيبة فرأته المغشى بضباب وخيالات، ولم تكد تذكره فلقد حاولت نسيان كل ماضٍ حين قال لها:

ـ أم عمر، أنا إياد.

ـ إياد؟..... تفضل.

دعته إلى الدخول ليتجه مباشرة إلى الباحة، مشت وراءه، وليست تدري لماذا أحست أنه سيتجه إلى فوق، إلى الفرنكة حيث فياض

حين انحرف فجأة إلى غرفة الضيوف، فذكرت أن ذلك الزمان انقضى حين كان يصعد إلى حيث فياض، لتختبئ مع نسائها تحت الدرج وفي دهليز المطبخ.

جلس على الكنبة القديمة، وأخذ يتأمل بارودة صياح وجناده وكامته، وقالت لنفسها: كما فعل فياض أول مرة دخل البيت، تأمل الفارس المصنوع من الدامسكو والمشهر رمحه ـ قالت: لابد أنه يغص بشيء ما لا يجرؤ على نطقه.

قالت: فياض؟

فأحنى رأسه.

قالت: مات؟

فانتفض في خوف: لا.

قالت: عاد؟

تردد وتلعثم مرتبكاً.

ـ فما الحكاية.

حدثها عن أحزان، حدثها عن خيبات، عن مرارات، عن ضياع، وأطال، ولكنها رأت أن تحسم الأمر: أهو هنا، في الشام؟

ـ نعم.

ـ فلم لا يعود إلى بيته؟

ـ قال إنه خجل ولا يجرؤ على مواجهة زينب وهشام و.....أنت.

ـ أين هو؟

ـ لا أستطيع القول.

ـ ألا يمكنني زيارته؟

لا أعتقد.

ـ ألا يمكن لزينب أو هشام زيارته؟

ـ يرفض رؤية أحد.

ـ فلم عاد إذن؟

هذا السؤال الذي بدا بسيطاً ومؤلفاً من كلمات ثلاث كان جرح فياض الذي لم يشف ولن يشفى منه أبداً، هذا السؤال الذي جعل حسيبة تدرك أخيراً أنها أخطأت تماماً حين اعتمدت على الذكور ظانة أن خيراً يمكن أن ينتج عنهم، هذا السؤال حسم الأمر أخيراً وجعلها تقرر ألا تنتظر من بعد، فهي لن تنتظر صياح ولا حمدان بل ولن تنتظر هشام أيضاً، وعائلة الجوقدار؟ أنا عائلة الجوقدار، أنا من سيرفع الراية، أنا من كان الشيخ عبد العزيز ينتظر أن أحمل منه الراية.

ومنذ تلك اللحظة دخلت حسيبة عالمها الجديد، لتبدأ أسطورتها الجديدة أسطورة حسيبة خانم التي أقامت مملكة من جوارب في القنوات.

(16)

حين خرجت حسيبة إلى الأسواق تبحث عن راحة للقلب، وعزاء عن مملكة الصمت المعرِّشة في البيت رأت طنبراً يقف في التعديل، ولا يستطيع دخول الحارة، وعلى الطنبر رأت ربطات كبيرة من غزل بني وعسلي وأبيض رخو، وحين رأت الطنبر توقفت قليلاً تتفرج على الربطات تُنزل عن الطنبر وتُراكم إلى جانب الحارة،

ومن عمق الحارة رأت كتلة مستديرة تتقدم، إنها مريم، توقفت تنتظرها، فلعلها ماضية إلى السوق، حَسَنٌ. سوف تصحبها إلى السوق، وسوف تعاتبها قليلاً، فلقد قلَّت زياراتها وندرت تلك الخدمات الصغيرة التي كانت تقدمها، ولكن مريم تلكأت قليلاً، تلكأت محرجة حين رأت حسيبة تقف إلى جانب الطنبر، ثم.... حزمت أمرها، فقالت وهي تنحني فوق الربطات: صباح الخير.

وردت حسيبة تحيتها مندهشة، فماذا تفعل بهذه الربطات.؟ ولكنها حين رأتها تحمل كل اثنتين على كتف، ثم تودعها، وتعود إلى البيت همهمت لنفسها: لابأس إذن. هاقد وجدت طريقة للعيش.

أكملت جولتها تبحث عن قلب هادئ في زحمة الأسواق، ولكنَّ تراكم أعمال البيت ووساخة ثياب زينب المستندة إلى الدرابزين، وضياع هشام في الحارات، ومعرفتها بعودة فياض، ورفضه زيارة البيت وأهله، وخيباتها في اكتشاف النور في القلب أقنعتها جميعاً أنها يجب أن تصنع شيئاً، أول ما فكرت فيه مريم، حسن. إنها تعمل. ورغم غضبها منها أنها تخلت عنها حين احتاجت إليها حقاً إلا أنها كانت تدرك بنصف وعيها أنَّ من حقها أن تبحث عن خلاصها الخاص من السفينة الغارقة، فكرت بمريم وهي مستلقية على الديوان تصغي لخرير البحرة، ورأت تلك الربطات، وتساءلت ترى ما تصنع بها مريم؟ وقررت أن تمضي لزيارتها واكتشاف الأمر.

طرقت حسيبة باب مريم لتكتشف أنها لم تفعل ذلك منذ زمن طويل، بل ربما لم تكن قد طرقته أبداً، فمريم هي من اعتاد طرق باب حسيبة، والزيارات كانت بمبادرة منها دائماً، أما هذه المرة! همهمت حسيبة تسهل الأمر على نفسها.

كانت مفاجأة مريم ووداد كبيرة، ولكن الفرح والارتباك كانا أكبر، وتصرفت حسيبة بعادية، ودخلت باحة الديار لتفاجأ للمرة الأولى بذلك الهيكل القصبي من عيدان ثمانية والمشدود بصليبين مثقوبين من قصب يمر منهما وتد من حديد يخترقهما، ويدوران من حوله، وحين سألتها حسيبة عنه قالت: هذا هو الطيار، الطيار؟ همهمت لنفسها وهي تلمس تلك الشلل من الخيطان الملفوفة من حوله والتي تنسل إلى خيط ينتهي بكركر محمول على دولاب معدني صغير يدار

باليد، فتنسل شلة من الطيار إلى الكركر، راقبت حسيبة هذه العملية البسيطة، ورأت وداد تجمع مزق الخيوط فتكبكبها ثانية، وقالت لمريم: ماذا تصنعين؟

ـ أحيل ربطات الغزل كراكر من خيوط.

ـ وماذا بعد؟

ـ تأتي امرأة فتأخذها لتنسجها جوارب.

ـ كيف؟

بسؤال كيف هذا بدأت رحلة حسيبة الطويلة في عالم الجوارب، هذه الرحلة التي بدأت بطيار من قصب يدور ناقلاً الخيوط إلى الكراكر، ماراً بآلة مستديرة الفم تحمل مئات من أبر تفتح وتغلق أفواهاً لا تنتهي، منتهية بجوارب تحتاج إلى رفو وخياطة، وكي، وإلصاق علامات تجارية عليها، ثم إلى ترتيب في اثني عشريات جاهزة للبيع.

حين بدأت حسيبة رحلة الجوارب تلك، لم تكن تعرف أنها أخيراً استطاعت الإمساك بقدرها، استطاعت دون حاجة إلى رجل أن تبني مملكة، مملكة امتدت من التعديل حتى القنوات، ومن القنوات حتى باب سريجة وباب الجابية، وزقاق الحطب والشويكة وقبر عاتكة، مملكة رعاياها نساء يجلسن في بيوتهن أمام آلات يدوية لصنع الجوارب، مملكة أرضها ربطات غزل وسماؤها جوارب تحتاج إلى رفو وخياطة وكي وعلامات تجارية، مملكة بدأتها بآلة اشترتها بالمخمسة الذهبية الأخيرة في صدرها، والتي كانت تحفظها لنفقات جنازتها، وانتهت بآلات وجوارب وربطات تكومت في باحة الدار.

بدأت تلك المملكة برحلة إلى أبو سعيد القصبجي مصطحبة مريم تدلُّها عليه، وعادت بآلة لصنع الجوارب ووعد بإرسال الغزل منذ الغد، رحلة عمادها تعلم إدارة تلك الآلة وبدء دخول ذلك الصوت الذي ما إن دخل البيت حتى قرر ألا يخرج منه ثانية.. والتصق صوت الدودو ببيت الجوقدار حتى لم تعد تستطيع سماع صوت سواه.

منذ ذلك اليوم الذي دخلت فيه تلك الآلة العجيبة ذات الفم المستدير ومئات الأبر تفتح وتغلق أفواهاً لا تنتهي إلى بيت الجوقدار، عاد إلى حسيبة حماسها القديم وقدرتها على العمل والإدارة، فما إن رأت ربطات الغزل تكوَّم في باحة الدار، وأدركت أي عزم تحتاج لتحويل هذه الخيوط الرخوة إلى جوارب حتى عادت إليها صلابة حسيبة الجبلية، فاستعادت مريم ووداد إليها، ودخل بيت الجوقدار مفردات جديدة: الطيار والدولاب الذي التزمت به مريم، والماكينة التي التزمت بها حسيبة والدودو الذي التزم به البيت.حين رأت زينب هذا الانقلاب والضجيج في البيت حاولت أن تقف منه موقف اللامبالاة في البدء، حاولت الاحتفاظ بهشام إلى جانبها بعيدا عن هذا الاضطراب، ولكن صوت الدودو أخذ يجذبها يوماً إثر يوم من عالمها الصامت، ومن عالم الحوار الثابت مع ذلك الذي مضى، إلى عالم الدودو الذي يطرح دوماً أسطوانات منسوجة من غزل بني وعسلي وأسود رخو.

نظرت إلى مريم ووداد وحسيبة طويلاً، نظرت إليهن من مجلسها أسفل الدرج، ورأت انهماكهن، حديثهن السريع، انشغالهن الدائم، وأحست انجذاباً إلى هذا الضجيج، فانتظرت حتى قامت حسيبة لإعداد غداء سريع، فما عاد الوقت يسمح بإعداد تلك الوجبات الضخمة المتنوعة، وجلست زينب مكانها، نظرت مريم إليها مدهوشة وصمتت، ونظرت وداد واندهشت، ونظرت حسيبة وأمِلت، ولم تخيِّب زينب أملهن كثيراً، فمنذ اللحظة التي جلست فيها على الكرسي أمام طاولة آلة الجوارب عرفت أنها وجدت أخيراً دواء لذلك الضجيج الدائم في رأسها، ذلك الضجيج المتسائل عن أشياء كثيرة لم تكن قادرة على معرفة جوابها، فأصمتت الضجيج بالضجيج،و تحولت إلى ذراع آلية تدير ذراعاً حديدية، وترى أسطوانات من جوارب تتساقط من الآلة، وكان على مريم أن تراقبها دائماً وهي تدير الدولاب، تراقب تساقط الجوارب من الآلة حتى إذا ما وصل إلى طوله المتوقع قامت، فساعدتها على فك الجورب وتغيير وضع الإبر لتبدأ نسج المشط، فالعقب، فجورب جديد، ولكن مريم لم تنتبه إلى أن زينب لا تعرف ولا تهتم بما تفعل إلى أن رأت حسيبة ومريم تلك الأسطوانة المتدلية من الآلة، أسطوانة تصلح جورباً لجمل ـ كما علقت حسيبة ـ وليس لإنسان.

لم تخيب زينب ظنهن، فيوماً إثر يوم تشكل لديها الحسُّ بالمسافة والزمن، فصارت تعرف آلياً متى ينتهي الجورب، ومتى يجب تغيير وضع الأبر، وسعدت حسيبة لانشغال زينب فتفرغت لإعداد الطعام والإشراف على مريم ووداد وجلب الغزل وإعادته إلى أبو سعيد القصبجي جوارب، ولكنها بعد شهور من الحماس والعمل الدائب والدودو حسبت أرباحها فاكتشفت أن ما جمعت ليس كافياً وتذكرت المثل العريق ـ شغل الإيد ما يفيد ـ فقررت أن تنتقل إلى الخطوة التالية وباعت بيت خالدية خانم المهجور مغلقاً منذ وفاتها المأساوية.

كانت المرة الأولى لهشام يدخل فيها بيت خالدية خانم داسَّاً نفسه بين جدته والدلاَّل والساكن الجديد، كانت المرة الأولى يرى فيها أصص نباتات الزينة المنثورة والمكومة والمنقلبة في أركان البيت، كانت المرة الأولى يرى فيها شيئاً من أسطورة خالدية خانم التي دفنت نفسها في قبر من زهور، وكانت المرة الأولى يرى فيها كل هذه الأعداد من الأصص المتسللة على الدرج، فالمشرقة، فالممشى، كانت المرة الأولى التي يشمُّ فيها كل هذه الروائح لحيوات ميتة، وكانت المرة الأولى يرى فيها كل هذه الخيوط من العنكبوت الذي حين لم يجد مايصطاده اكتفى بورق الشجر اليابس وفي الوقت الذي كانت حسيبة خانم تجادل وتفاوض المشتري والدلال كان هشام غارقاً في تلك الدمى المهشمة لزهور كانت جميلة وفراشات عنكبوت كانت ورقاً لأحلام كانت خالدية خانم ترعاها يوماً بماء العيون، حين صمت الثلاثة أدرك هشام أن الصفقة قد تمت، وحين انسحبوا من البيت حاول أن يبقى فشيء ما كان يجذبه إلى المكان، ولكن حسيبة جذبته من ذراعه بقوة، قالت: أمك تنتظرك، وكان يعرف أن ليس من أحد ينتظره، ولكنه لحق بها، فماذا يستطيع أن يفعل أمام حسيبة خانم إلا أن يطيع؟!

حين باعت حسيبة خانم بيت خالدية خانم لم تبعه لأنها بحاجة إلى مال هذه المرة، ولكن لتشتري بثمنه آلتين جديدتين وضعت إحداهما في الإيوان لتعمل عليها حين لا تلاحقها أعمال المنزل والإدارة، وأجَّرتْ الأخرى لأم جميل ضرغام، وانتظرت شهرين كانت تراكم فيهما الأرباح الصغيرة وتبخل على الجميع بالترفيات التي لا لزوم

لها، والفواكه التي سترخص حين يمتلئ الموسم بها، وباللحم الكثير الذي يضري في القلب حدة لا لزوم لها.

وفي نهاية الشهرين جمعت هذه الأرباح واشترت بفائضها آلة أخرى، ثم أخذت هذه الآلات العجيبة بالتوالد، وأخذت تتسلل كأصص خالدية خانم فيما مضى، أخذت تتسلل حتى غطت التعديل، انتشرت حتى القنوات، فباب سريجة، فباب الجابية ليبدو كأن حلم حسيبة القديم تحقق، فهاهي تبني مملكة لبيت الجوقدار، وهاهي ترفع راية لم تُرفع من قبل، وهاهي تغزل خيوط الحلم القديم، ولكن أبو سعيد القصبحي قَصَّر عن إمدادها بالغزل، فقد صارت آلاتها أكثر من قدرة دكانه على إمدادها بالغزل، فمضت إلى أبو مصطفى النويلاتي، ومن أبو مصطفى عرفت غلطتها الكبيرة، فأبو سعيد القصبجي ليس منتجاً للغزل، بل وسيطاً بين منتجي الغزل وصانعي الجوارب، وهي وشغالاتها لم يكُنَّ إلا عاملات لديه. حين سمعت حسيبة هذا الكلام غضبت، غضبت بمرارة لأنها عرفت أنَّ زبدة عملها وعمل بناتها وشغالاتها كانت تنتهي إلى أبو سعيد، وأنها كلما حثَّت نساءها على العمل، وأرهقت نفسها وبنتها والأخريات لم تكن تفعل أكثر من مراكمة الأرباح لديه!

في تلك الليلة عاود حسيبة الأرق، الأرق القديم الذي هجرها منذ أمسكت ونساؤها بتلك الذراع الحديدية العاوية دائماً دودودو، عاودها الأرق وأخذت تفكر، فالمهمة التي تصبو إليها صعبة، ولكن لم يكن أمامها من خيار. ما رأسمال أبو سعيد الذي استغلني به خلال السنتين الفائتتين؟ وأجابت بمرارة: لا شيء، دكان صغير في الحريقة ولدي دكان أكبر في القنوات، الشغالات؟ لقد صرن كلهن شغالات لديَّ، التسويق وبيع المفرق؟ هه أمر هذا سهل.

وقررت أن تضرب ضربتها منذ الصباح، فمضت إلى الباب الشرقي، مضت إلى الغزالين، ففوجئوا بالمرأة تفاتحهم، ولكنهم حين عرفوا من حسيبة أصغوا في احترام، وحين قدَّمت حسيبة المال والكفالات ووافقوا، كان هناك ضابط منفوخ قد قام بالانقلاب العسكري الأول لتوه، ثم وما إن رأى شكله الأنيق في المرآة حتى رأى أنه بحاجة إلى مونوكل ثم إلى عصا ماريشالية، ثم إلى توقيع اتفاقية مرور النفط في صحارى مدن الواحات ليبقوا عليه العصا

والمونوكل، وحين وصلت أول حمولة من الجوارب الموسومة باسم الجوقدار إلى دكان حمدان الجوقدار وقَّع ذلك الضابط الذي حلم لفترة محاطاً بأولئك الدكاترة والمجازين الجامعيين، والراغبين بإطفاء حريق البيت بأي ثمن بإقامة مملكة من مدن الواحات الحالمة بأنهار من عسل أسود يعيد إليها النضرة التي خسرتها قروناً، هذا الضابط الذي ما إن سعد بتوقيع اتفاقية التابلاين حتى أكملها بتوقيع اتفاقية رودس مع أولئك الذين مضى فياض ليطردهم من فلسطين، ولكن حسيبة لم تهتم بكل هذا، فقد كانت مشغولة بتغيير طريق طنبر الغزل من حارتها في التعديل إلى دكان الشيخ حمدان الجوقدار حيث جمعت القطرميزات والأكياس والصفائح التي تخلى عنها فياض ليمضي إلى فلسطين، وحفظتها كلها في سقيفة الدكان، مخلية المكان لربطات الغزل البنية والكحلية والعسلية والسود، الربطات التي لا تكاد تستقر في المستودع حتى تتسلل إلى البيوت المختبئة في الحارات الصغيرة لتستقر في أحضان الصبايا اللواتي لا تراهن الشمس، تتسلل إلى أكف أولئك النسوة اللواتي يردن زيادة دخل أزواجهن وإضافة بعض اللحم إلى مطابخهن، وبعض الفواكه إلى صواني غدائهن، تتسلل على الدراجات على الأكتاف مع الصبية المرسلين من الحارات الضيقة والبيوت البعيدة والباحات الخفية، لتبدأ رحلتها عبر الطيار فالدولاب فالآلة ذات الفم الكبير، فإبر الرفو والخياطة، ولم يعد بإمكان حسيبة الجمع بين العمل والإدارة والإشراف، فأوقفت صنع الجوارب في البيت.

في اليوم الذي أوقفت حسيبة فيه صنع الجوارب في البيت، وتفرغت مع وداد لفحص الجوارب ورفو ما نُسي رفوه منها، وتفرغت مريم لكيِّ الجوارب وإلصاق العلامات التجارية عليها تسلل ضابط مخمور وعدد من الجند إلى قصر الضابط ذي عصا الماريشالية، فساقوه مع رئيس وزراءه إلى سهل قريب من المدينة الواحة حيث أطلقوا عليهما بضع رصاصات بدأت رحلة الانقلابات المخيفة التي لم تهتم حسيبة بها، فقد كان جل همها إحكام القبضة على مملكتها الصغيرة، ولكن الوحيدة التي لم ترض بالتخلي عن آلتها كانت زينب، وكان على حسيبة أن ترضخ لنزوتها، وظل صوت الدودو النغم الأعلى في البيت.

وأخذ هشام يكبر وهو يسبح بين آلات صنع الجوارب، أنهى الابتدائية وطيور الجوارب تحوم من حوله، اجتاز الامتحان وهو يصطدم بأكياس وأكياس مدعوكة تُفتح يومياً، وتفحص مرفوعة إلى الشمس لترى الخروق فيها، ثم يقذف بالمخروق منها إلى وداد ومريم اللتين سرعان ما تصلحان الخطأ بالإبرة ذات الفم يفتح ويغلق والخيط، وحين نال الشهادة الابتدائية وانتقل إلى الصف السادس كانت عيناه قد شبعتا، وكفَّاه قد سئمتا رؤية الأكياس تفرغ وتملأ، تفرغ وترتق، تملأ وترسل إلى الكَّوايات، فلاصقات العلامة التجارية، ثم تعاد مرتبة نظيفة مكوية ظاهرة العلامة التجارية، مجموعة في اثني عشريات حيث تُحمل إلى دكان الشيخ حمدان ليتم توزيعها على باعة المفرق، كان يراقب كل هذا سئماً ولولا وداد الجميلة تلاطفه ليكون رسولها إلى خليل، فيحس العالم أقل قسوة لاعتقد أنه الأسوأ حظاً في الكون.

فزينب التي تضخمت ذراعها لطول ماعانقت الذراع الحديدية لغول الدودو لم تعد تهتم كثيراً بما يحدث لهشام، وحسيبة منشغلة أبداً بمراجعة حساباتها، ومفاوضة شغالاتها، والتعامل مع باعة المفرق، منشغلة حتى عن متابعة ما يجري في المدينة خارج مملكتها الجوربية، منشغلة، فقد آمنت بأنها استغنت أخيراً عن أولئك الذكور الخرعين، منشغلة حتى لم تحس بالتغيرات التي أحس بها أبو سعيد القصبجي منذ وقت مبكر، ومنذ بدأت تجمع آلات صنع الجوارب، منشغلة حتى أنها لم تحس بسهولة الانتصار الذي حققته على أبو سعيد حين حولَّته إلى موزع لجوارب الجوقدار، منشغلة في جعل مملكتها الوحيدة على عرش الجوارب دون منازع، ولكن ذلك الذكر الخبيث الذي أقسمت على هزيمته حين عرفت أنها اشتغلت وبناتها شهوراً طويلة دون راحة لمراكمة ثروته أحسَّ بتغير الرياح، فأخذ يتشمم الرياح الجديدة، ويبحث عن حبال نجاة من سفينة كانت قد رفعت راية الغرق السوداء دون أن يشعر ركابها بذلك.

في تلك الأيام. كانت من الواضح لكل ذي عينين أن الأمور تتغير، وأن طبقات جديدة، وعائلات جديدة في مدن الواحات المزدهرة في طريقها إلى تسلم مكانها الجديد، وأن صناعات جديدة كان لابد لها أن تظهر لتلبي حاجات الصاعدين الجدد، وكان لابد

لهذه التغيرات أن تطال تلك المهنة العتيقة في مدن الواحات، صناعة الجوارب، وكان من أوائل أولئك السريعي اليقظة أبو سعيد القصبجي الذي رأى حسيبة تغزو سوقه، وتسرق عاملاته، وتنشئ لنفسها مملكة، وكان حين اكتشف هذا التسلل وذلك التصميم قد **(قطف رمانة)** وكمن ينتظر فرصة، فعمل موزعاً لجوارب الجوقدار في دكانه الذي لم يجد شغالة تطرق بابه باحثة عن غزل، أو مسلّمة بقجة جوارب مدعوكة، ولكنه في تلك الأثناء كان يبحث عن البديل، وجاء البديل آلات كهربائية غفلت عنها حسيبة المنشغلة بترتيب مملكتها ولم يغفل عنها أبو سعيد القصبجي.

كانت سنوات خمساً قد انقضت منذ أن دخل الدودو بيت حسيبة حين بدأت اثني عشريات الجوارب تتلكأ في دكان حمدان الجوقدار، ولم يكن لها عهد بذلك، ولم تهتم حسيبة لهذا في البدء، ولكن اثني عشريات إثر اثني عشريات أخذت تتراكم، وصناديق أخذت تملأ الدكان، وجاء اليوم الذي لم يطرق أبو سعيد دكانها ليحمل صناديق الجوارب إلى دكانه في الحريقة، ولم تهتم فالشارون والموزعون كثيرون، ولكنها يوماً إثر يوم أخذت تلاحظ تناقص الشارين وباعة المفرق، وكانت أشد كبرياء من أن تمضي إليهم تسائلهم عن السبب، فجوارب الجوقدار سيدة السوق، ولابد أن الأمر أزمة صغيرة، أو اختناق بسيط سوف تجتازه، ثم يتدافعون ثانية إلى بابها ولكن الاثني عشريات تتجمع والصناديق تتراكم حتى لم يعد في الدكان أو السقيفة متسع لجورب جديد.

وقال لها أبو مصطفى النويلاتي بعد أن اعتذرت عن تسديد ثمن الغزل طالبة تأجيله حتى الشهر القادم: أنا لا أفهم سبب هذا العناد.

ـ أي عناد.

ـ الكل غيروا مهنتهم، فلم لا تغيرينها؟

ـ أغيرها، هل صار الناس يمشون حفاة دون جوارب؟

ـ لا، بل غيروا آلاتهم.

ـ ولكنها صالحة فلم أغيرها؟

ـ أعني الآلات الكهربائية، آلة واحدة تعمل بدلاً من عشر شغالات.

ـ والشغالات، أستغني عنهن؟

هل كُن بناتك أو أخواتك حتى تخافي عليهن؟

ـ ولكنهن يعملن جيداً!

ـ صحيح، ولكن فكري بفارق الربح، فكري بالأجر الذي تدفعينه لهن، ولا تدفعينه للآلة.

ـ هناك عشرة طويلة بيننا، كيف أتخلى عنهن؟

ـ ولكنك لن تستطيعي المنافسة. صدقيني.

ولم تصدقه، وكيف لها أن تصدقه وهو يطلب إليها هدم سرادقات مملكتها التي انتظرتها العمر، كيف لها أن تصدقه وهو يسألها حين أعادت إلى بيت الجوقدار رايته العالية، أن تنزلها وتعود إلى التكيُّس في انتظار قافلة ربما لن تجيء؟ كيف لها أن تصدقه وتسحب اسم حسيبة خانم الجوقدار من الشويكة وقبر عاتكة والقنوات وباب الجابية؟ كيف لها أن تصدقه، وتأتي بآلات كهربائية لا تملك ثمنها وبعاملات متفرغات مدربات عليها لا تعرفهن، وبأصوات جديدة مغايرة لصوت الدودو الذي اختلط مع خرير البحرة وهديل الستاتي حتى لم تعد تتصور البيت دون هذا المزيج من الأصوات؟ ولكن كان عليها أن تصدقه أخيراً حين لم تعد صناديق اثني عشريات الجوارب ما يتراكم في الدكان فقط، بل وآلات صنع الجوارب أيضاً، فقد أخذت الشغالات يعدنها بعد أن لم يعد باستطاعتها تزويدهن بكراكر غزل جديدة، ولم يعد باستطاعتها دفع أجورهن التي صبرن عليها طويلاً مراعاة للصداقة القديمة، ولاسم بيت الجوقدار، ولكن لابد لكل صبر من نهاية، فقد طرقت أم مصطفى القصير الباب تحمل الآلة الصامتة مغلقة الفم بجورب قديم، ودخلت حسيبة وراءها حزينة منكسرة عارفة أن هذه ليست إلا البداية، وكانت تتمنى لو كانت النهاية.

وضعت الآلة في الإيوان جانباً دون أن تعاتب، أو تناقش، أو تسأل عن السبب، اكتفت بوضعها جانباً وكأنه الأمر الاعتيادي، ولكن حين طرقت أم مسعود المزاوية الباب في زيارة ظاهرها

العادية وباطنها المطالبة بأجر قديم لم يُدفع، ورأت البريق في عينيها حين رأت الآلة النائمة في الإيوان أدركت حسيبة أنها أخطأت في تركها في الإيوان، فسرعان ما تنتشر الإشاعة، وتسرع المترددات بتسليم آلاتهن، وكانت في هذا على حق، فما إن جاء المساء حتى عادت إليها ثلاث آلات لم يلبث صباح اليوم التالي أن زادهن إلى سبع.

نظرت إليهن صامتات، مائلات جانباً، فاتحات أفواههن جثثاً دون روح، قتيلات زمن بائد، ضحايا تغيرات لم يكن لهن يد فيها، وأحست بالحزن، اقتربت منهن، مسحت عليهن بكفِّها، أرادت مواساتها، شكوى الزمان إليهن، وتذكر الأيام البهيجة معهن، ولكن. أنَّتْ في ألم: من سيواسيها.....بهن؟

صوت الدودو لم ينقطع وظلت زينب وراء آلتها تنظر إلى الأمام تنسج جوارب حلم لا يريدها أحد وعلى مريم أن تنقضها كلما اكتمل واحد من جوارب الأحلام العتيقة التي لن يقدر لها أن تتحقق، ولم تجد قدماً يلبسها، فلم يعد لديهن مزيد من الغزل لتغذية غول زينب الثرثار، وكانت نساء البيت قد وعين الدرس، وحفظنه منذ اتجهت زينب إلى آلتها صباحاً، جلست على كرسيها، ونظرت إلى الكركر فإذا هو فارغ، نظرت من حولها حائرة، ولكنهن كنَّ مشغولات عنها بترتيب الاثني عشريات المعادة وكنس بقايا الخيطان المنثورة من جوارب مرفوة و...... انفجرت زينب بالصراخ، بالسباب، باللعنات: تردن إزعاجي، تردن موتي، تردن مضايقتي، تردن أن أسمع المحيطات تلطم رأسي، تردن الدوار يلفني فلا أرى فياض يعدني بالعودة يا نساء بلا رجال، يا أرامل قتلن أزواجهن، يا حريماً هرَّبتن رجالكن يا..... واحمرت عيناها، وامتلأ بالزبد فمها، تلوَّت قليلاً، ثم لم تلبث أن سقطت إلى الأرض تنتفض، وتحاول حفر بلاطات الرخام الأبيض بأظافرها وعضَّ جدار البحرة بأسنانها، وأسرعت النساء إليها، ففككن أزرار صدرها لتتكشف تلك التينتان المسكينتان، رششن الماء على وجهها، وجاءت مريم مسرعة تحمل مقصاً وضعته تحت رأسها تمنع به شيخ البحرة وشيخ الليل، وكل البسم الله الرحمن الرحيم من أذاها.

حين هدأت انتفاضاتها قليلاً حملنها إلى الديوان مرعوبات مذعورات مرتجفات لا يعرفن عاقبة هذه المحنة التي لم تمر ولم يمررن بها من قبل، وجاءت النساء بماء الكولونيا، بمزق البصل، بماء البحرة يسكبنه عليها حتى أفاقت، وحين أفاقت نظرت إليهن بعيون لا تقرأ، وببؤبؤين أزرقين لا يريان، ثم وكمسافر يعود من رحيل طويل أخذ التعرف يقترب من البؤبؤين، وأخذت النساء في التشكل في ذاكرتها،وما إن ضاق البؤبؤان وصرخت النساء من الفرحة: الحمد لله على سلامتك، رجعت بالسلامة، الحمد لله يا ربي، حتى قامت من مرقدها، نظرت إلى الديار، إلى البحرة، إلى شجرة المسك، إلى النارنجة، وخافت حسيبة، فلم تنظر هذه النظرات؟ هذه النظرات المخيفة تذكرها، تذكرها جيداً، ولكن زينب اتجهت ثانية إلى مجلسها القديم وراء آلة صنع الجوارب، وأمسكت بالذراع الحديدية وأخذت تديرها، وسارعت مريم باستحضار كركر قديم ثبتته على الآلة، ثم مررت خيوطه بين أفواه وألسن الأبر، وعاد صوت الدودو يصدح في الديار ثانية.

منذ ذلك اليوم عرفت النساء جميعاً ما يجب أن يصنعن لزينب، وكان عليهن أن يهيئن لها كركراً جاهزاً، وصار على مريم أن تنقض ما تنسج زينب ليكون الكركر جاهزاً أبداً، فليس من المعقول أن تدور ذراع الآلة دون أن يكون هنالك كركر يزودها بالخيوط ويملأ فراغات إبرها التي تفتح وتغلق أفواهاً لا تنتهي.

لم تصدق حسيبة نذير أبو مصطفى النويلاتي، وأصرت بعناد الجبلية القديم، بعناد منتزع من رغبة صياح القديمة في تغيير قدر الواحة المستقرة، أصرت على الاستمرار في رفع راية بيت الجوقدار، أصرت على علامة الجوقدار التجارية وعلى نشر جواربها في الأسواق، ولكن سنة مضت لم تبع فيها إلا عُشر مخزونها لتسدد به بعض الديون الوقحة تاركة الخجولة منها حتى يفرجها الله، ولما انقضى العام ولم يفرجها، ولم تُسدد الديون ولم يبق مكان في الإيوان والباحة والأركان لآلة جديدة كان عليها أن تفكر في حل، وكان أن تقدم أبو سعيد القصبجي نفسه بالحل، وقال: أشتري منك كل هذه الآلات ولكن بربع الثمن.

ـ وماذا ستفعل بها؟

ـ سأحولها إلى آلات تعمل بالكهرباء.

ولم تفكر طويلاً، فالحل المطروح مهين، إن معناه تصفية المملكة ومحو آثارها حتى لايستطاع معرفة إن وجدت هذه المملكة يوماً أم لا. لم تفكر طويلاً، فأن تسلم بهزيمتها أمام الرجل الذي حولته يوماً إلى صانع لديها كان إهانة كبيرة، فقالت: لا.

وحين قالت: لا، كانت تعرف أنه العودة إلى التكيُّس الجوقداري القديم، ستحتفظ بالآلات كما احتفظت بأكياس السكر يوماً، وما يدريك، فلعل حرباً قادمة، أو تغيراً في العالم يتم، ويجري الجميع باحثين عن آلاتها، وعندئذ ستستعيد مملكتها ثانية، وحين قالت: لا، كان عليها أن تبيع مخزونها من الجوارب بسعر أرخص من السوق لتفي الديون التي تراكمت وتراكمت حتى أغرقت البيت بضباب أزرق متسلل شفاف حزين، ولكن تلك المملكة التي انتصبت لتمتد من التعديل حتى القنوات والشويكة وقبر عاتكة خمس سنوات لم تُصَفَّ بهذه السهولة، فقد كان لحسيبة من الذكاء العملي ما جعلها تستعيد بستان كفرسوسة والأفاعي الذهبية الملتوية حول الرسغين قبل أن تعلن عن إنزال راية بيت الجوقدار مؤقتاً، وحتى يكبر الوارث المستحق الذي ينتظره الأجداد الغافون تحت البلاط الرخامي الأبيض الذين حدثتها عنهم خالدية يوماً، بذلك الحزن الباكي الموشح بألوان قوس قزح الشيخوخة المتسلخة في المنديل الأبيض.

حين قالت حسيبة: لا، وعرفت أن المملكة إلى زوال، وقررت الاحتفاظ بتلك الآلات الجثث، وحارت في البدء أين تحفظها، ولما لم يكن هناك من مكان آمن لحفظ مثل هذه الكائنات الثرثارة إلا السقيفة، فقد صعدت إلى السقيفة، ورغم تقدمها في السن، ورغم آلام المفاصل المبكرة،وضغط شحم الخاصرتين والردفين عليها إلا أنها صعدت، ورأت أكوام الحطب، فقررت إزالتها لتكويمها في المطبخ، فليس في السقيفة متسع لحطب وآلات صامتة كانت يوماً تملأ الشام بثرثرتها الدودية، أضاءت حسيبة المصباح الكهربائي الكليل، نادت مريم، ولكن مريم لم تسمعها، نادت وداد ولكن لم تكن قريبة، ولم تناد زينب، فزينب كانت دائماً بعيدة، بعيدة مع ذلك الدودو الأبدي، رمت بكتلة حطب ثانية وفجأة رأتها، ولم تصدق عينيها حين رأتها فهي واثقة أنها أنزلتها وعلقتها على الجدار منذ سنوات وسنوات، هي

واثقة من أنها ضمتها إلى رمح حمدان العجوز ودرعه التي ثقبها عث الصدأ ولكنها هنا. كيف؟

تقدمت منها، لمستها، حركتها، ولكنها ليست وحيدة كبندقية صياح. لا. كانت معها أخرى وأخرى وطبنجات ومسدسات، وصناديق ذخيرة. يا إلهي! جلست على الحطب القاسي الخشن ولم تحس بوخزه، فقد كان الألم الذي أوجعها أكبر بكثير، كان ألم اكتشاف أن الطفل الصغير الراكض حتى الساقين يعانقهما، الطالب حناناً لم يحصل عليه وصداقة لم ينلها قد اهتدى أخيراً إلى الصديق القديم المختلس الذي اختلس يوماً صياح وفياض منها مرة، وإلى الأبد.

(17)

حين أطلق زيدان نيران بندقيته في ذلك العصر الفاتر من أواخر أيلول، لم يكن يعتقد أبداً أنه سيضطر إلى هذا، فقد كانت السمعة التي نشرها من حوله، والتحدي الذي كان يواجه به الجميع قد سيَّجه بوشاح من الخوف جعل الدرك والضابطة الجمركية، بل والمختار نفسه يتغاضون ويغمضون العيون، فما لهم ولهذا الأحمق الذي ما إن تخاطبه ببضع كلمات حتى يكون مسدسه قد انطلق، أو خنجره قد مزق كتفاً، أو دلق أمعاء؟ هذا الرعب الذي نشره من حوله مستفيداً من قوة عائلته وكثرة عددها المنتشرة مابين التل، ومعربا، وجبعدين، والممتدة حتى دير العصافير هذا الرعب حماه طويلاً، فأبعد عنه أذى الدرك والأرمن والشركس والجمارك، وحين وصل إلى الثلاثين من عمره كان قد شكل ثروة لا بأس بها، وحين وصل إلى الأربعين كان قد حوَّل التبغ المهرب إلى كرم في الناحية الشرقية من القرية، والبنادق إلى بستان للمشمش جنوبي البيدر، وصناديق المسدسات والذخيرة إلى ذلك البيت الجميل الذي توسط القرية.

وكان يمكن له أن يستمر في بناء تاريخه الخاص بهدوء مستفيداً من عدم رغبة الإنكليز في تهييج المواطنين زمن الحرب، ومن عدم قدرة الحكومة على اتخاذ القرارات السريعة مع وجود المفوضين السامين الإنكليزي والفرنسي لولا أن قدم المنطقة الأجوتان محمود ذلك الذي لو نظرت إليه عن بعد لخلته شقيقاً لزيدان، كانا توأمين لم يجمعهما بطن أم، وأخوين لم ينشآ في بيت واحد، كانا متشابهين في أنهما لم يكونا يحبان القتل ليس لعفة فيهما، ولكن لحس عملي بأن ما يمكن حله دون أن تثار هامات الليل وأرواح الانتقام ومسلسلات الثأر، فلا يجب أن تبذر فيه طاقتك بقتل مجاني. كانت متشابهين بنشر السمعة السوداء والصيت المر، و البطش المتحدي كما كانا يتشابهان في الطول والشاربين الفحميين والعينين السوداوين الصغيرتين، وفي تلك البشرة الزيتونية التي لفحتها الشمس حتى حولتها إلى لون خليط من سمرة صفراء وزيتون محتقن بالزيت قبل اعتصاره.

حين وفد الأجوتان محمود إلى المنطقة لم يقدم كأي مساعد درك عادي، بل قدم موفداً سمعته بالبطش وسرعة استخدام السلاح لتكون في استقباله، ولكن تلك الرسولة لم تمض وحيدة، بل اصطحبت معها أيضاً سمعته في سعة الجيب العجيبة التي وهبها له الله والخياط.

وكان الكثيرون يتساءلون إن كان لجيبه قاع أصلاً لكثرة ما نزل فيها ثم اختفى.

حين وفد الأجوتان محمود إلى المنطقة سارع كبار العائلة إلى زيدان يحذرونه. عليه أن يقطف رمانة. عليه أن يكمن حتى يرى الآخر ويثمنه، عليه أن يهدأ حتى يسبر غور الآخر، فلا حاجة للاصطدام في هذا الحين، ولكن زيدان لسبب خفي لم يستطع أن يحدسه حتى بعد سنين وسنين من الهجرة وترك التاريخ والتخلي عن بناء العمر، والمضي للاختفاء في القنوات محتمياً بمن كان يتمنى ألا يحتمي به، رفض أن يكمن فقد أحسَّ في قدوم هذا الرجل تحدياً ما كان له أن يفعله، أدرك أنه إن كمن فسيكون هذا الكمون الحركة التراجعية الأولى أمام هجمة الأجوتان محمود، أدرك أنه إن غير برنامج عمله ليلة واحدة فسيعتبرها الآخر نصراً، وسيحاول أن يتقاضى ثمن هذا النصر، وعليه أن يدفع أتاوة، فمن يتقاضى

الأتاوات لا يدفعها، و بعد تفكير طويل صامت قرر.... ألا يغير شيئاً في برنامج عمله.

ـ حسن. فاصحب معك بعضاً من أبناء عمك أو إخوتك. ودمدم في تنمر: لماذا، ليحموني؟

تراجع الآخرون: لا ... ولكن.. الكثرة تغلب الشجاعة، ففحَّ من خلال أسنانه:

ـ ليس كثرتهم، ولا شجاعة زيدان.

وحين أذن العصر كان زيدان يخرج من القرية جهاراً يجر بغليه من وراءه، وماكان يحتاج إلى هذا التحدي عادة إذ لم يكن بحاجة إلى كل هذه التظاهرات، فقد كان يتسلل مع الغروب، ويعود مع البغلين قبيل الفجر، ولم يكن يعترضه أحد، ولماذا يعترضون وهم يعرفون حماقته ويسلمون بجنونه؟ وحين انحرف زيدان ببغليه عن الطريق العام موغلاً في ثنايا الجبل التي ماكان يعرفها إلا القليلون كانت عينان صقريتان سوداوان تراقبانه من خلف منظار عسكري، وحين اختفى في ثنايا الجبل دعا الأجوتان محمود بسفرة المازة وزجاجات العرق، فقد كانت تلك الليلة ليلته التي سيحطم فيها سمعة زيدان إذ نصب له كميناً متقدماً في شقوق الجبل التي سيمر بها، وجعل في الكمين الرقيب سليم والجندي حمد أما أخوه العريف سلمان فقد أبقاه معه، ولم يكن يحب جمعهما في مهمة واحدة، فليس من المستحسن جمع أخوين في مهمة لايكون فيها على رأسها، دعا بسفرة المازة وزجاجات العرق، وجلس مع العريف سلمان والجندي عبد البديع ينتظرون إشارة من الكمين، طلقة، علامة تشير إلى عودة زيدان من سفرته المباركة، تلك العودة التي لن تكون سعيدة لزيدان ضمن فكي الكماشة هذه. كان الأجوتان محمود سعيداً، فقد كانت تلك الليلة ليلته التي سينتهي فيها زيدان، وسيكسب سمعة جديدة تزيد من إيراداته التي انتظر طويلاً حتى ينالها حين ينقل إلى هذا القطاع الدسم، والذي ماحرم من سبقوه من دسمه إلا هذا الأحمق المدعو زيدان.

انتصف الليل، وصار من الواضح أن زيدان في طريقه للعودة الآن، أرسل الجندي عبد البديع يكمن في طريق عودة زيدان، ويشير إليهم ببطاريته ليعرفوا أنه قد قدم. وكان حظ رجل البطارية كبيراً في

إرساله إلى ذلك الكمين الذي أنجاه من كل ذلك الاضطراب الذي سيغرق فيه الأجوتان محمود والعريف سلمان، لأنهما ماإن رأيا البطارية تشير لهما بقدوم زيدان وبغليه حتى انطلق العريف سلمان مشرعاً بندقيته ليكمن عند فتحة الجبل حيث سيخرج زيدان مع البغلين فيقبضون عليه، ويرسلونه مع البغلين إلى الشام ليقضي بضع السنوات القادمة، هذه السنوات التي سيقوم فيها الأجوتان محمود بترتيب مملكته الخاصة فيها.

برز زيدان والبغلان من الشق، وخرج إليه الأجوتان محمود مطمئناً إلى العريف سلمان الكامن يحميه وإلى الرقيب سليم والجندي حمد اللذين لابد وأنهما يحاصرانه من الخلف الآن، خرج يتبختر مدلياً مسدسه من خاصرته، صرخ فيه ليتوقف، ولكن زيدان لم يستجب والبغلان لم يتوقفا، صرخ يأمره بالوقوف، ولكن زيدان والبغلين استمرا بالتقدم حتى لكأن المتحدث ليس الأجوتان محمود ولا رئيس فصيل الدرك، ولا المسؤول عن الأمن الملعون في كل هذه المنطقة.

رفع الأجوتان محمود مسدسه يهدد زيدان ليتوقف، ولكن الآخر لم يعبأ به، كان تقدمه شيئاً خارجاً عن المنطق، تحركاً حلمياً، شبحياً، متحدياً، وللمرة الأولى في حياة الأجوتان محمود يشعر بالخوف، أو بشيء شبيه بالخوف، فما معنى هذا، ولماذا؟ وكيف يتقدم هذا الزول المغطى بالليل والسواد والتحدي، صرخ فيه: قف. وكان يتمنى أن يكون للآخر بعض العقل، فيتوقف، فهو ليس بحاجة للقتل، وهو لا يريده في هذا المنطقة الملعونة المملوءة بحلقة الثأر النارية، هذه الحلقة التي إن اضطر إلى دخولها فلن يتوقف إلا قاتلاً أو مقتولاً، وسيحرم من كل خيرات هذه المنطقة الدسمة، صرخ: قف، وتمنى للحظة لو أنه لم يخرج للكمون لهذا الأحمق، فلم يكن يقدر أن تبلغ حماقته هذا الحد الذي لم يترك مجالاً لمساومة أو مناقشة، أو خذ وأعط. صرخ: قف، والبغلان يقتربان، والزول يتقدم متحدياً صارماً عملاقاً قاسياً منذراً بتحطيم سمعته الماضية ومستقبله الدسم كله.صرخ: قف، وسمع تكتكة من الوراء، فأدرك أن رجاله لن يستطيعوا مزيداً من الصبر رفع مسدسه، رفعه في حركة بدت له خيالية البطء، مستسلمة ضعيفة مترددة متمنية ألا تفعل، ولكنه رفعه

وأطلق وانطلقت بنادق، وأزت رصاصات، وسقط البغلان، وسقط الرجل الشبح الأسود المهدد العملاق.

تقدم الأجوتان محمود والعريف سليمان الكامن عند الشق، تقدما حذرين ليكتشفا أن الشبح لم يكن زيدان، والبغلان لايحملان السلاح المهرب، بل.... يحملان الرقيب سليم والجندي حمد المربوطين مكممين إلى ظهر البغلين البريئين من كل تهريب، أما الشبح فلم يكن إلا فزاعة حملت على البغل الأول، وصرخ العريف سلمان تلك الصرخة المرعبة والتي سيذكرها الأجوتان محمود حتى يحاول إيقاف صداها عن التردد في حملته العنيفة فيما بعد، صرخ العريف سلمان: قتلناك بأيدينا يا خيي.

في الصباح وحين قدَّم الأجوتان محمود تقريره إلى قيادة المنطقة كان يرى تلك النظرة المخيفة في عيني العريف سلمان، فيرعشه الذعر إذ أنهم لم يستطيعوا إثبات أية جريمة ضد زيدان، فلقد قضى الأمسية كلها يحتفل بعرس أحد أبناء أخيه أمام عشرات الشهود، كان المساعد محمود يرى النظرة في عيني سلمان فيفهمها جيداً، فلقد كان يعرف أنها في انتظاره منذ زمن طويل، وكان يهرب منها بالبعد عن القتل والدخول في هذه الحلقة اللعينة، ولكن لم يكن هنالك أي خيار هذه المرة، فسلمان لن يترك دم أخيه يضيع هدراً، وأدرك الأجوتان محمود أنه إن لم يقتل زيدان، فسيكون هو الضحية لحلقة الثأر اللعينة، ولكن من جانبها الأسوأ، أدرك أنه لابد أن يفعل شيئاً حتى لايقتل مجاناً، فخلع ثوبه العسكري ومضى إلى زيدان لتكون مسألة الثأر واضحة في ذهنه وذهن العريف سلمان على الأقل، وبطريقة ما عرف زيدان بأمر قدوم الأجوتان محمود في ثوبه المدني ومعه العريف سلمان، وأدرك أن الأمر لم يعد يحتمل ألعاب دهاء، بل هو الموت لواحد من وجهي المرآة، وحينما وصل إلى هذا القرار نظر بمرارة إلى شجرة التوت الكبيرة في باحة الدار، نظر إلى الدالية المحمومة فوق البيت، نظر إلى بركة البئر والسطل الجلدي المتكئ عليها، نظر إلى صناديق أعشاش الحمام المعلقة إلى الجدار الغربي، ولو كانت حسيبة موجودة حين كانت نظراته تلك تنزلق متلمسة مواقع للوداع لعرفت أنه سينضم إلى عمر، وياسين، وأحمد،

ومحمود، و محمد علي، فهذه هي النظرات نفسها، هي تعرفها، وقد شهدتها، ورأتها، وتخيلتها مئات المرات.

ولكن حدس حسيبة لن يكون صادقاً تماماً هذه المرة، فمن مات لم يكن زيدان بل كان الأجوتان محمود والعريف سلمان، وكانت نظرة وداع زيدان صادقة، فهو لم يكن يودع الحياة، بل كان يودع التراث الذي صنعه في ثلاثين السنة الماضية، كان يودع كل ذلك الجمال الذي أحبه، واطمأن إليه، كان يودع السمعة التي بناها، والخوف الذي نشره، والزعامة السرية التي حملها خلال هذه السنوات.

وحين ترك القرية، وهرب إلى المدينة الواحة لم يكن يهرب إلى الأمام فقط، بل إلى صديق قديم عرفه وخدمه وأحبه، وكان يتمنى أن يرد له خدمات سابقة، هذا الصديق كان خليل بك صديق فياض الشيزري وإياد الجوقدار، والذي استطاع البرهنة على أن زيدان كان يدافع عن نفسه ضد هجمة الأجوتان محمود والعريف سلمان على بيته، فاستطاع محاموه تخفيض الحكم على زيدان من الإعدام إلى ثلاث سنوات سجن خرج بعدها مدركاً أنه لن يستطيع العودة إلى القرية مجدداً، فالله وحده يعلم متى يأتي ذلك الشبح المقنع بالرعب والرغبة الخفية للقتل، وسقي الدم بالدم، فاختار دمشق يعيش فيها، وحين اختار دمشق، واشترى له خليل بك دكان أبو ياسين اللحام، اعتقد أنه ارتاح أخيراً من مطاردة الهامات وأرواح الليل المنتقمة، ولما كان لابد له من مهنة يعمل بها في هذا الدكان، فقد اختار العمل فوالاً وحمصانياً وهي آخر مهنة يمكن له أن يعمل فيها، ولكنه اختارها، وقبع في دكان أبو ياسين يسلق الفول ويتحسر، ويدق الحمص ويأسف.

حين افتتح زيدان الدكان أقام فيه جداراً من خشب فصل الدكان إلى قسمين، ولم يكن قد قرر العودة بعد إلى مهنته القديمة في تهريب السلاح بل كان يريد مكاناً يخلو فيه لنفسه بين الحين والآخر، ولكن العادة ما لبثت أن غلبت، فقد كان بحاجة إلى سلاح يجعل ليله أقل اضطراباً، ورعبه أقل امتلاكاً، فاتصل بزملائه القدامى، ولم يطل الأمر قبل أن يتحول الدكان الداخلي إلى دكان سري لبيع السلاح، ويتحول زيدان إلى واحد، بل ربما الواحد من قبضايات خليل بك وإياد في القنوات، ولكن أياً من إياد أو زيدان أو خليل ما كان يتخيل

أبداً هشام الصغير، هشام المعزول في مملكة من نساء وجوارب سيتعرف على زيدان، وسيكون هذا التعرف بداية تفجير حياة زيدان الجديدة الهادئة.

ذلك الفتى الذي ماعرفناه إلا راكضاً حتى ساقي فياض يحتضنهما ويطلب حمله حتى جدار البحرة ليحك خداً طرية بخد خشنتها لحية لم تحلق لأيام، ذلك الفتى الذي حرم الساقين يحتضنهما، ثم الأظافر الصغيرة لأم تداعب شعر الرأس وهي تغني: **حوّل يا غنام حوّل، بات الليلة هين** ذلك الولد الذي حاول أن يجد لنفسه مكاناً في تلك المملكة الغزلية من ألوان كابية، فساعد حيناً في لملمة منثور الخيطان، وساعد حيناً في رصف الاثني عشريات، بل وساعد في إدارة تلك الذراع الحديدية لذلك الغول الدودودوي، ذلك الولد أخذ يجد نفسه مطروداً بهدوء يوماً إثر يوم إلى خارج المملكة ليبدأ البحث عن صداقات وعلاقات تربطه بالعالم، لكنه حين خرج إلى الحارة باحثاً عن صداقة افتقدها في البيت لم يلق الحارة نفسها التي لقيها قبل أكثر من عشرين سنة صياح المسدي حين لجأ إليها هارباً من الوحدة والخيبة والمرارة في الحلق، ولم يلق الحارة التي دخلها فياض يوماً كارهاً باريس والصحافة والماضي وإياد باحثاً عن دور جديد واسم جديد، وثوب جديد ليجده في الدكنجي وفي معطف حمدان المحكمجي.

حين خرج هشام إلى الحارة اكتشف أن أبو سعيد الذي لم يعرفه أصلاً قد توفي ليحل محله ابنه الكبير أبو خليل، ولتبدأ صداقة جميلة بين خليل الشاب المراهق صاحب الموتوسيكل المقرقع في الحارة طولاً وعرضاً كل يوم، وبين هشام الذي ورث عن أبيه الصمت، وعن أمه الانكسار والدهشة أمام العالم، حين خرج هشام إلى الحارة وجد أن دكان عبد الله القديم قد تغير وهو لا يعرف أصلاً أنه تغير، ولكن إصرار أهل الحارة على تسمية الدكان بدكان عبد الله رغم مقتل عبد الله، ورغم تغير مهنة صاحبها الجديد الذي حولها إلى دكان حدادة خفيفة، فهو مصلح عجلات الحارة، وهو ممدد أنابيب مياه الفيجة التي بدأت تتسلل إلى البيوت بعد أن كانت تكتفي بالوصول إلى فتحة الحارة، وانتظار القادمين إليها بسطولهم وحقاقهم، وهو من يصلح كل عطب في الدرابزين، أو الصقالات الحديدية في الحارة،

ومع أن الكل كانوا في حاجة إليه فقد كان الوحيد المتقن لهذه المهنة في الحارة، فقد ظل الدكان دكان عبد الله الفوال، ثم ثبت هذا الاسم وترسخ بعد أن تزوج من وداد بنت مريم، تلك الزيجة التي لم ترض عنها حسيبة ولا زينب، بل وحتى مريم لو خيِّرت وكان لها الخيار، فلربما ما اختارت مثل هذه القطعة من الجبل الجهم، ولكنه.... النصيب كما علقت مريم.

حين خرج هشام إلى الحارة يتفرج على دكاكينها، ويسمع الرحمات من أصحابه على جديه العظيمين... وبعد غمغمة قصيرة على أبيه الذي مضى إلى فلسطين ثم لم يعد. اكتشف أن دكان أبو ياسين اللحام قد تحول إلى دكان فوال. وأن أبو ياسين قد تحول إلى زيدان لأن ياسين لم يرض بإعادة فتح الدكان وترك مهنة المعلم في مدرسة القنوات الابتدائية، فظل الدكان مغلقاً إلى أن جاء الغزلاني، واحتل الدكان، هذا الحلول في دكان أبو ياسين لم يمرَّ دون لغط في الحارة التي اعتادت نقل راية دكاكينها من الأب إلى الابن محافظة على نوع من تضامن سري لا ترضى فيه لغريب بدخولها، ولكنهم فوجئوا بهذا الرجل النحيل الأسمر ذي الوجه المسنون، والشاربين الأسودين والبدوي العينين والسلوك، فاستقصوا الأمر مستغربين بيع الدكان لغريب لم يقدم أوراق اعتماده جيرة، أو قرابة، أو صداقة أو معرفة أو... يا إلهي! كيف يحق له أن يقتحم الحارة بهذا الشكل؟ فوجئ الأبو منير والأبو خليل والشيخ يوسف حين ألحوا في طلب المعرفة باصطدامهم بإياد الجوقدار نائبهم في المجلس ورجل خليل بك، ثم تفجرت المفاجآت حين أمعنوا في تحرياتهم لتتسلل إليهم أسطورة زيدان المخيفة في قتله الأجوتان محمود وفصيلة كاملة من الدرك دون أن تطاله يد القانون، وكان العريف سلمان قد تضاعف ليصبح فصيلة كاملة من الدرك، هذه الأسطورة التي استعاذ بالله منها الأبو منير، والأبو خليل والشيخ يوسف، كانت بهار أحاديث هشام وخليل ووداد، هشام ورفاق مدرسته حين كان هشام ينظر عبر الشارع متظاهراً بالشرب من الفيجة يراقب الشاربين الفحميين والبشرة الزيتونية، والعينين الضيقتين ويتساءل: أتراه يشبه صياح؟ ولم يكن يملك إلا صورة ضبابية عن صياح كانت حسيبة خانم ماتزال تغذيها حتى ضاع الرجل، وصار خيالاً أكثر منه رجلاً عادياً يمكن أن تلقاه في الطريق وأنت تمضي لشراء كيلو بندورة.

حسيبة

كانت المرة الأولى يلتقي فيها هشام وزيدان مصادفة، بل ربما لم تكن مصادفة إذ كان هشام عائداً من باب الجابية صباح الجمعة يحمل طست الفول والحمص المعتاد حين نظر إلى دكان زيدان فلم يكن الزبائن لديه كثيرين. التقت العيون، ورأى هشام في عيني زيدان عتاباً: أليس عيباً أن تترك الحارة لتشتري الفول من باب الجابية؟ وأدار هشام وجهه بسرعة خجلاً؛ أليس عيباً أن يترك دكان الحارة، ويمضي ليشتري من خارج الحارة؟ ولكن....إنه ليس من أهل الحارة، حسن فهو يسكن في الحارة و....، يبدو أن هشام لم يكن في حاجة إلى جدل كبير ليقتنع بأنه يجب أن يشتري فول وحمص إفطار الجمعة من فول الحارة، فمضى إليه صباح الجمعة التالي، ورغم أن زيدان لم يوله نظرة خاصة إلا أن هشام كان يتأمل الدكان بإصرار، يتأمل الجدار الخشبي ويحاول تخيل ما يخفي، وأحس دقات سرية في قلبه تدعوه للتسلل واكتشاف مايخفي خلف هذا الجدار، ومايدريك فلعل قتيلاً أو قتلى كامنون هناك، صحيح. ما يدريك؟! بعد يومين وكان هشام عائداً من المدرسة ماراً في القنوات رأى زيدان أمام دكانه يجلس على الكرسي الكبير مقتعداً إحدى ساقيه محتبياً الأخرى يدخن نارجيلته، وينظر إلى البعيد، اتجه هشام إلى الفيجة يتظاهر بالشرب ومايشرب، بل يراقب هذا المتأمل فحمي الشاربين، بدوي العينين، الناظر إلى البعيد، وتساءل هشام ثانية: أكان صياح المسدي يجلس كهذه الجلسة متأملاً الماضي، متخيلاً المستقبل كما حدثته جدته؟ أكان يشبه هذا الرجل الفحل، الضخم، الباث رجولة وقوة وأبوة من حوله، أم تراه فياض من يشبهه بحزنه الدائم وتأسيه على ما أضاع من عمره؟ في تلك اللحظة كان هشام منحنياً على الحنفية يشرب، ولا يشرب قدم أحد الأولاد ويبدو أنه انتظر طويلاً ليشرب، فلما ضاق ذرعاً بهشام المنحني دون أن ينهي شربه دفعه، ولما لم يكن هشام منتبهاً تماماً لما يجري، فقد سقط في الحفرة المليئة بالماء، سقط بيديه وذراعيه، وحين حاول القيام استمرأ الآخر المنظر، وكان هشام مثقلاً بالحقيبة المعلقة إلى ظهره، فدفعه ثانية، وسقط ثانية، وازداد ابتلالاً، وتكاثر الولد، فصار اثنين ثم ثلاثة، وتكاثر البلل ولم يستطع هشام القيام، وأراد أن يبكي فقد كان الإذلال كبيراً، وخاصة أمام عيني ذلك الرجل الذي اختزل فيه صياح وفياض، وكل الآباء الفحول الأقوياء الضائعين، استطاع أخيراً القيام من الحفرة ونزع

حقيبته ليهاجمهم حين رآه يتقدم، وتمنى لو لم يره يتقدم، ولكن الآخر طرد الصبيان، أبعدهم، وشتمهم، أخذه من يده إلى الدكان وامتلأ هشام شعوراً غامضاً خليطاً من الاطمئنان لحماية... الغائب، ومن الشعور بالإذلال إذ لم يكن على قدر كاف من الرجولة حين تعرف على زيدان.

فيما بعد وكان هشام يجلس على الكرسي القشي الصغير إلى جانب زيدان وكان نوع من صداقة قد تشكل فيما بينهما خلال الأسابيع الماضية، وكان هشام يسأله عن مغامراته في الجبل وكيف كان يتنقل وحيداً مع بغلين محملين بالبنادق وصناديق الذخيرة؟ التفت زيدان إلى هشام وقال: كانت مفاجأة كبيرة لي أن أعرف أنك أنت هشام ابن فياض الشيزري الذي ترك جرحاً لا يندمل في قلب خليل بك وإياد الجوقدار، ليس ابن فياض الشيزري فقط، بل وحفيد صياح المسدي!

- ولم كانت المفاجأة؟ وصمت زيدان متشاغلاً بمص مبسم نارجيلته ولم يكرر هشام السؤال، وفهم أن المفاجأة كان في أن ابن هذين الرجلين لم يكن **(قد الحمل)**، منذ ذلك اليوم الذي صحب فيه زيدان هشام إلى الدكان يجفف وجهه، ويستعيد تماسكه بدأت صداقة جديدة تتشكل بين زيدان والصبي المتحسس أبواب الرجولة، صداقة فرضها خلو البيت من الصديق والأب والأخ والمحاور واضطرار هشام إلى الخروج إلى الحارة يبحث عن الجذع والذراع والصوت في الأب المفقود، ولكن جرح تغلب الأولاد عليه في ذلك اليوم الذي تعرف فيه على زيدان ظل ينزف، وكان لابد من فعل شيء لاستعادة الكرامة ولأم الجرح، كان زيدان يقول له: الرجولة لا أن تضرب، بل أن تنشر الخوف من حولك بحيث لا تضطر إلى الضرب، وحاول هشام، ولكن بشرته شديدة البياض وحجمه الموروث من زينب الضئيل لم يمكنه من ذلك، قال له زيدان: إن لم تملك الذراع القوية، فاملك مايجعلها قوية، وفهم هشام أنه يعني السلاح، ولم يكن احتفاظ زيدان بالسلاح والاتجار به سراً لهشام، فلقد تسلل إلى الدكان الداخلي مرة، وكان زيدان قد مضى إلى الجامع مرة ليقضي حاجة، فتركه في الدكان يرعاه. تسلل إلى الدكان الخلفي السري الصغير وهناك رآها، كل ما كان يحلم به من بنادق، ومسدسات، وقوالب لملء

الرصاص، والطلقات، وشحنها بالبارود، رأى مخارز، ورأى سنداناً، ورأى مطارق خشبية، وحديدية صغيرة وكبيرة، وأحس رعشة خوف وإجلال أمام هذا المعبد الرجلي الخاص، المعبد الذي صلى فيه صياح يوماً، فاجتذبه إلى رحابه حتى مضى به إلى فلسطين، والذي داعبه فياض دون أن يحسب حساباً لمداعبة مثل هذه المعابد، فما زال رجع صدى هذه المداعبة يعمل في نفسه حتى جذبه إلى فلسطين.

مدَّ كفاً مرتعشة قليلاً، فلمس بندقية كانت ماتزال مبتلة بالزيت، تلمس سبطانتها، زنادها، جهاز ارتدادها، تلمسها كلها كعاشق صغير يتعرف إلى جسد محبوبته للمرة الأولى.

لم يجرؤ على إشعال النور، فاكتفى بمراقبة انعكاس نور الشارع على تلك الأجساد اللامعة السود، اكتفى بتحسس أعضائها المتوهجة بنور الرعب والخوف و.... الرجولة.

كان هشام يراقب خوف أهل الحارة من زيدان رغم أنه لم يتشاجر يوماً مع واحد منهم، ولكن تلك الهالة التي حدثها عنه زيدان كانت كافية دوماً لجعل الآخرين يتراجعون عن الاصطدام في الوقت المناسب، فمن يقتل مساعداً في الدرك وفصيلة جند، ثم لا يحكم إلا بسجن ثلاث سنوات، رجل كهذا من الأفضل ألا تحتك به، ليس هذا فحسب بل وأن تقدم له التحية كلما مررت به خاصة وأنت ترى مساعد المخفر وشرطة المخفر لا ينقطعون عن زيارته وشرب الشاي لديه وصواني التسقية والفول تحمل من دكانه إلى المخفر، ودون إرادة حقيقية وجد هشام نفسه ينجذب إلى ذلك العالم السحري نسجوا سداه من خوف وإعجاب، ولحمته من رعب ودهشة.

ويوماً إثر يوم أخذ هشام ينسلخ عن بيت النساء والدودو وخيطان الغزل المنثورة في الباحة، وتلك الشقراء النحيلة خامدة العينين الملتصقة إلى الآلة تديرها، وتثرثر معها دودودو، يوماً إثر يوم أخذ هشام يدخل مملكة رجولة زيدان يتحسس بنادقه، يتلمس طبنجاته، ويداعب مسدساته حتى جاء اليوم الذي برهن فيه هشام على جدواه ونفعه. قال له زيدان وكان مهموماً يدخن في عصبية، وقد ألحَّ هشام في معرفة سبب عصبيته: امض إلى البيت. جدتك في حاجة إليك.

ـ من قال هذا؟ كنت لديها لتوي.

ونظر زيدان إليه طويلاً كأنما يسبر أغواره، ثم تمتم متراجعاً.

ـ اسمع. امض الآن. لدي ما يشغلني.

ـ ولكن ما يشغلك؟ ألسنا صديقين؟ ألم تقل إنك سعدت بصداقة ابن لصياح وفياض؟

وتراجع زيدان قليلاً: صحيح أنا قلت هذا، ولكني الآن متضايق. ألا ترى؟

ـ ولكن ماالذي يضايقك؟

نظر زيدان من حوله متوجساً، متوتراً كأنما يخاف رقيباً، ثم دخل الدكان، لحق به هشام: اسمع، أتريد صداقتي حقاً؟

وبلهفة أجاب هشام: طبعاً.

ـ هل أنت قد المهمة؟.

ـ طبعاً.

اسمع. هناك صديق ينتظرني الآن في مقهى الزرابلية وهو في حاجة إلى هدية مني، ولا أستطيع خذلانه.

وهز هشام رأسه في فهم، وتابع زيدان: وأنا.... أحس اليوم أني مراقب.

ونظر إلى عيني هشام غير المصدقتين: أيخاف زيدان المراقبة؟

وأجاب زيدان على سؤال هشام غير المنطوق: طبعاً، وعلى العاقل ألا يعرض نفسه للضياع مجاناً.

أحنى هشام رأسه أمام حكمة السنين، ولكن زيدان كرر: هل أنت قد المهمة؟

وتمتم هشام وقد عرف المطلوب تقريباً: وما المهمة؟

ـ كيس صغير تخفيه تحت صدريتك، تركب الترين وتحمله إلى مقهى الزرابلية.

ـ وكيف أعرف صاحب الكيس؟

ـ تمضي إلى خادم المقهى، وتقول له زيدان يسلم عليك، وهو يفهم كل شيء.

حين هزَّ هشام رأسه في إيجاب، وأخذ الكيس الورقي فأخفاه تحت صدريته السوداء لم يكن يدري أنه بهذه الحركة قد دخل عالماً جديداً ما كان لبيت الجوقدار أن يدخلوه، لم يكن يدرك أن صفحة جديدة في حياته توشك أن تبدأ، ولكن حسيبة بعد سنتين من هذه المغامرة حين أخذت تستذكر الماضي، فتذكر أنَّ هشام لم يطلب منها نقوداً للمصروف خلال هذه الشهور الطويلة كلها، وأنَّ إقامته في البيت قد ندرت، وندرت حتى لم تعد تراه إلا حين يلقي بحقيبة المدرسة في البيت، ثم ينطلق عائداً إلى الحارة، وكانت تظن أن لعب الصبيان هو ما كان يجذبه حتى كشفت عروق الحطب، ورأت تلك الثعابين الفولاذية مستلقية هناك كامنة، لتدرك مستسلمة أنَّ عدوها القديم الذي سرق منها يوماً صياح وفياض في طريقه إلى اختلاس الذكر الأخير والوحيد، صحيح أنه ليس بعظمة صياح وحمدان وفياض، ولكنه على أية حال هو من تبقى لها، وهذا الذي تبقى لها والذي اطمأنت إلى صغره وهدوئه، وتهذيبه، واستعداده لحمل الراية.

هاهي تكتشف أنه قد سرَّب إلى بيتها، بيتها هي، وسقيفتها هي، تلك الكائنات اللماعة الفولاذية الزيتية شديدة الإغراء.

أعادت عروق الحطب حيث كانت، غطَّت تلك البنادق المخيفة، تراجعت بمؤخرتها الكبيرة قليلاً، ثم أقفلت باب السقيفة، وحين أقفلته تذكرت أنَّ هشام يحمل مفتاحاً للقفل، فنزلت إلى غرفة المؤونة فانتزعت قفلها، وعادت إلى السقيفة، وأقفلتها ثانية بالقفل الجديد وجلست تفكر.

منذ ذلك اليوم الذي زار إياد فيه حسيبة خانم ليخبرها أنَّ فياض عاد ولم يعد، فهو لا يرغب بزيارة البيت، أو رؤية أحد من سكانه، فظنت أولاً أنَّ رغبته تلك نزوة ألم أو خجل أو انكسار، فما يلبث أن يطويه الزمان، ويشده الحنين، ويعود ليرى زوجته وابنه وبيته والدكان الذي عاش فيه السنوات، انتظرت تلك العودة وهي تدير الطيار، وانتظرت تلك العودة وهي تدير الآلة الحديدية، وانتظرت

تلك العودة وهي ترى هشام يكبر، وينال الابتدائية، ثم انتظرت تلك العودة وهو ينتقل إلى المرحلة الإعدادية، ثم انتظرت تلك العودة وهي ترى مملكتها تذوي ووحيدتها التي أنذرها بها الشيخ عبد الحميد تذوي وتذوي معلقة إلى تلك الآلة الثرثارة، لا تشبع من حواراتها ولا تنتهي من العراك معها، وحين قررت حسيبة الاستسلام فوجئت بهذا العدو الخفي من خارج الحارة يتسلل إلى بيتها ليسرق هشام وأخذت تفكر حزينة كيف تفعل؟ لو رجل، لو رجل في البيت يضبط الولد، ويطرد العدو، ويعيد الانضباط إلى هذا البيت، هي أدارت مملكة، واستعادت حدوداً ضاعت ولكنَّ الرجل، الرجل لا غنى عنه في بيت كهذا البيت، وبهدوء تذكرت أبو سعيد القصبجي وتلميحاته الأخيرة، ترى ما كان يعني بها حين قال: إن لم تريدي بيع آلاتك بالثمن الذي عرضت، فلدي الحل الآخر، نصبح شركاء... أهلاً.

وحين نظرت إلى عينيه الماكرتين اكتفى بالنظر إلى داخل البيت حيث كانت تلك الموشحة بالبياض المربوطة إلى الآلة تدير ذراعاً لا يتوقف عن الدودو، وتساءلت في سرها: ماذا؟ أتراه يعني الأمر؟ أتراه يعنيه حقاً؟ وأخذت تسترجع تصرفاته، أفعاله، همساته: الرجل ماكر، ماكر حقاً وخبيث، ولكن إن صار صهراً وشريكاً، فسيتحول مكره والخبث لصالح بيت الجوقدار. ولكن كيف، كيف؟

كانت حسيبة تعتقد في جزء غامض من قلبها أنَّ مرض زينب لم ينشأ إلا عن فقد الرجل، حسن. فلنزوجها ثانية، ومن يدري. ورغم الدودو الذي لايتوقف، فقد اتكأت على الديوان تفكر: الولد سيضيع إن لم يكن قد ضاع بالفعل، يجب بذل جهد كبير لاستعادته، وزينب الأرملة لزوج حي لم يره أحد من أهل الحارة منذ مضيّه إلى فلسطين تحتاج إلى زوج، فلم لانجرب أبو سعيد؟ وفياض؟ فياض، لقد حاولت مع إياد عبثاً أن يمكنها من رؤيته ولو من بعيد، ولكنه رفض وأصر على الرفض ولم يلمح ولو إلماحاً خفياً إلى مكان وجوده، حسن فما الفائدة منه إذن؟ لم لا تطلق زينب منه وقد انقضى على غيابه ست سنوات.

ست سنوات؟ وأخذت تفكر، ورغم أنها كانت قد شغلت نفسها حتى الذهول في بناء مملكة الدودو إلا أنها كانت تسمع عرضاً عن الانقلاب إثر الانقلاب، كانت تسمع وتأبى السماع، فمالها ولهذا

الهراء عن الضابط الذي قام بانقلاب، وحلَّ الأحزاب، وفرض حركة التحرير على البلد؟! كانت تسمع عن الاعتقالات والغارات الليلية لاعتقال المشتبه بهم، وعن، وعن، ولكن مالها ولهذا كله؟ ثم.... رأت الثعابين الفولاذية الممددة في السقيفة فأدركت أنَّ لها في هذا كله، لها الكثير، لها السجن والخراب وضياع حامل راية الجوقدار الأخيرة، وهزَّها الرعب. لابد من صنع شيء، لابد من صنع شيء لإنقاذ الولد.

مضت إلى وداد فسألتها إن كانت تعرف لهشام علاقة ما بزيدان الفوال، ترددت قليلاً قبل أن تجيب بالإيجاب، همهمت حسيبة لنفسها: إذن فقد كان حدسها مصيباً، التفتت إلى مريم ورجتها أن تدعو زيدان الفوال لزيارتها، فسألتها مريم في دهشة: زيدان الفوال؟.

ولم تجب حسيبة، بل واجهتها بنظرات مجهدة فقط، سألت مريم:

ـ ولكن لماذا؟

ـ ستعرفين حين يأتي، أسرعي من شان الله.

دهشت مريم وهي تسمعها تقول بهذه الحرقة من شان الله، وذكرت رجاء محترقاً سابقاً رجته خالدية وكان بدء مأساتها، وذكرت أنها لم تستطع رفضاً سابقاً، ولم تستطعه هذه المرة.

أسرعت تخبُّ في الحارة، فالتعديل، فالقنوات لتدعو زيدان الفوال لزيارة حسيبة خانم الجوقدار ملكة مملكة الجوارب وابنة صياح المسدي وجدة هشام الشيزري.

حين وقفت مريم أمام دكان زيدان الفوال دهش هشام، فما لمريم عادة بهذا، سألها مرتبكاً عما تريد، حملقت فيه مندهشة وهو يقف في الدكان كأنه يعمل فيه أجيراً، أو مساعداً، أو....... مالا يليق بحفيد بيت الجوقدار.

قالت وهي تكزُّ على أسنانها: أين زيدان؟

وأشار إلى الداخل دون أن يجيب.

ـ ادعه.....

ـ ولكن. ماذا تريدين منه؟

ـ ادعه!

وخرج زيدان مستجيباً لصوتها الملح ليفاجأ هشام وزيدان معاً بأن حسيبة خانم تريد لقاءه. أنا؟ نعم أنت. أنت زيدان الغزلاني أليس كذلك؟

ـ صحيح، ولكن ماذا يمكن أن تريد مني؟

ـ لا أعرف.

وكاد يعتذر، ثم تذكر أنها أم عمر. حسيبة خانم، فابتلع رفضه ومضى من ورائها يتبعهما هشام.

مشى الثلاثة يخترقون القنوات إلى التعديل، كان هشام يُعْمِلُ مخه بسرعة، فما الذي تريده جدته من زيدان؟ ما الذي تريده؟ أتراها سمعت عن جلساتهما معاً، فهي تريد أن تمنعه من مصاحبته، كان بإمكانها لو أرادت أن تطلب إليه ذلك في البيت، ولكن ماذا؟ وفجأة اصفَرَّ، وتوقف في مكانه، أتراها عرفت بأمر السلاح المخبوء في السقيفة؟ وسأسأ بشفته العليا رافضاً، فكيف لها أن تعرف ذلك، كيف لتلك العجوز ذات المؤخرة الكبيرة أن تصعد إلى السقيفة، وترفع الحطب لتكشف وجود البنادق هناك؟

كانت مرحلة طويلة تلك التي انقضت بين حمل هشام ذلك المسدس المخبوء في كيس ورقي إلى مقهى الزرابلية، وبين اكتشاف حسيبة السلاح المخبوء في السقيفة، مرحلة استعاد فيها هشام شيئاً من الإحساس بالجدوى والفعالية، واستفاد فيها زيدان من فتى معروف مأمون ذكي يحمل له الأمانات كلما احتاج إلى من يوصلها إلى الميدان راكباً الترين، وإلى الصالحية راكباً الباص، وإلى دوما وكفرسوسة و..... و....وكان زيدان يعطيه بضع ليرات بين الحين والآخر فيتيه الولد زهواً أمام رفاق مدرسته، شاعراً أنه قد اجتازهم، واختصر طفولتهم منذ أمد طويل، وكان يمكن للعبة أن تستمر طويلاً لولا أن ذلك الضابط في الحكم أحس بضغط الحركة الشعبية من حوله، أحس بتحرك الأحزاب التقليدية منها والتقدمية، وخاف أن يستطيعوا صنع شيء، فقرر ضربهم في معاقلهم وابتدأ باعتقال رجال الأحزاب ومشائخ الحارات من أنصارهم وأزلامهم، ومهيجي المظاهرات، وكاتبي المنشورات، والهاتفين في كل حين بإسقاط

الدكتاتورية و..... استدعى إياد الجوقدار زيدان الغزلاني إلى بيته ليستقبله في الغرفة نفسها التي استقبل فيها فياض الشيزري ماتيلد قبل بضع عشرة سنة حيث بكت تلك المرأة النحيلة السمراء الرقيقة، بكت حتى سال كحلها الجميل، فتلطخت تلك الملامح الحنونة التي طالما اطمأن، والتصق بها فياض في سنوات سبقت ذلك اللقاء، ولكن أياً من الرجلين لم يذكر تلك الحادثة، ولم يسمع تلك الآهات، ولم تلذعه تلك الدمعات الساكنة تنثال دون صوت أو نشيج.

جلس إياد على كنبته الكبيرة ملتحفاً عباءته المقصبة، مبدياً جانباً من جلابيته الحريرية المنزلية، وكان جسمه قد امتلأ، وشارباه قد غلظا، وسكنت العفرتة القديمة في عينيه بينما جلس زيدان على الديوان المقابل، وقال إياد: يجب أن تقطف رمانة لبعض الوقت يا زيدان.

ـ خيراً، لماذا؟

ـ الحية حين تتوجع تعض بطنها.

وتوجس زيدان خوفاً من هذه المقدمة، فقال: المعنى؟

ـ إنه يقشُّ الآن كل من يشك فيه.

ـ ولكني كامن منذ زمن، لم أعد أنظم مظاهرة، ولا أقود هتافين.

ـ صحيح، ولكن رائحة دكانك الداخلي قد فاحت في الحارة.

وأغمض زيدان عينيه دون أن يغمضهما، إذ ظل ينظر إلى إياد دون أن يراه، ولكن مخه كان يعمل بسرعة، فما معنى هذا؟ هل يريد التخلي عنه؟ أهذه هي المرة الأولى التي يعرف فيها عن إتجاره بالسلاح؟ أهناك آخرون يريدون الحلول محله؟ أهناك. أهناك؟ وانتبه إلى صوت إياد يتسلل ثانية عبر العينين المفتوحتين لا تسمعان.

ـ أنا نفسي في وضع صعب، وأخاف ألا أستطيع حمايتك.

ـ المعنى؟

ـ تخلص من الدكان الداخلي.

ـ ولكن.....

ـ اقطف رمانة حتى ينجلي الأمر مع هذا الانقلاب.

ـ ولكن كيف؟

وتسللت الصور بسرعة إلى ذهنه. إذن فلهذا وافق أبو فوزي على بيعه تلك البنادق بذلك السعر المخفَّض، وإذن فلهذا وصلت المسدسات بتلك السرعة؟ السفينة تغرق، وعلى الجميع القفز منها قبل أن تغرقهم معها، ونظر إلى إياد يدخن نارجيلته في راحة، وسمعه يكمل: إنه يهدد بالإعدام كل من يجد لديه قطعة سلاح، فتصرف.

قام زيدان، فأكمل إياد في رخاوة: ابق لتشرب القهوة.

ـ لا. شكرا.

أكمل مسيرة خروجه من بيت إياد وهو يتحرق، كيف يفعل؟ كيف يفعل؟! بالأمس حين عرف بنقل رئيس مخفر القنوات لم ينزعج كثيراً، فسيصادق رئيس المخفر الجديد بطريقته الخاصة، إن هما إلا يومان وتنتقل صواني التسقية والحمص والفول والتحيات وجلسات النارجيلة، ولن يتغير في الأمر شيء، ولكن إن وصل الأمر إلى إياد يتخلى عنه، وخليل بك؟ آه لاشك أن إياد لم يجرؤ على الحديث في هذا الأمر دون مشورة خليل بك، والعمل؟ ورأى هشام يجلس أمام الدكان يحاول الانتفاخ واضعاً ساقاً على ساق، فتجاوزه إلى الدكان دون أن يسلم، وأحسَّ هشام بارتباك زيدان، فلم يصبر عن سؤاله، ولكن زيدان غمغم، وجمجم، ولم يصرح، وألحَّ هشام، ولكن زيدان لم يستطع قول شيء، وأخيراً ترك الدكان طالباً ًمن هشام الإشراف عليه، ومضى، مضى يضرب في الحارات باحثاً عن حل، مخبأ، ملجأ، مكان يخفي فيه هذه الثروة المشنقة، ولكن الله لم يفتح عليه بحل، فرجع إلى الدكان ناسياً أنه طلب من هشام البقاء فيه، رجع يتوقعه مغلقاً دون قفل، أو متروكاً دون إغلاق و.... المهم أنه كان قد نسي كل شيء عن هشام، وما إن اقترب من الدكان حتى فوجئ به وقد استند بظهره إلى الجدار جالساً على الكرسي يحدق إلى الخارج في ترقب، وسأله زيدان: ولكن ماذا تفعل هنا؟ تجاوز الوقت العشاء.

ـ أنتظرك.

ـ وأهلك؟

ـ دعهم ينتظرون.

ـ لا. لا يجوز.

ودهمته رقة غير معتادة، فسأله: لم لا تحب المضي إلى البيت؟

ـ ولم أمضي؟ الكل مشغول عني، لكلٍ همه، ولكلٍ حزنه، والبيت كبير، كبير لا أعرف كيف استطاعوا العيش ببيت بهذه السعة.

وتمتم زيدان: البيت كبير، والكل مشغول. وتجلت الفكرة تتسرب ملمحاً، فملمحاً، فسأل، وأنت تنام معهم أم في غرفة خاصة؟ هتف هشام محتجاً: غرفة خاصة، وهل في البيت خصوصية لأحد؟

ـ همم.

وصمت زيدان يفكر، ولكن هشام لم يترك له وقتاً طويلاً للتفكير إذ ألحَّ عليه يريد معرفة حزنه وصمته، وأخيراً... مكرهاً.. أفشى له زيدان بالسر، وأنهم سيعدمونه لو وجدوا هذا السلاح لديه، وأن رئيس المخفر الجديد يراقبه، وأنه لا يجد وسيلة لإخراج هذا السلاح من الحارة، و.... أنت تعرف.

ودقَّ هشام على صدره: فماذا تقول فيمن يريحك من هذه المشكلة؟

ـ كيف؟

ـ أخفيها عندي.

ـ لديك أنت؟

ـ عندنا في البيت!

ـ وأمك، وجدتك؟

ـ لا عليك، سأتدبر الأمر.

وتدبر الأمر، وانتقلت ترسانة زيدان إلى سقيفة حمدان التي شهدت بندقية أخرى، وأكياساً أخرى فيما مضى.

حين وصل الموكب إلى الحارة، وتقدموا باتجاه بيت حسيبة أخذ القلق يتسرب إلى زيدان، فماذا تريد هذه المرأة المتكبرة التي تخترق

القنوات مصحوبة دائماً بعدد من النساء الراغبات في آلة يستأجرنها، أو باعة المفرق المنتظرين أمام دكانها الكبير ليأخذوا حصتهم من الاثني عشريات، فتحس لمشيتها الوئيدة الواثقة جلالاً وهيبة يعطيان طعماً خاصاً لأولاد الأكابر، وهزَّ رأسه في عنف: فماذا يمكن أن تطلب منه؟ وتقلبت الإجابات في ذهنه، فتوقع كل شيء إلا أن يفاجأ بالخص العلوي يفتح، والبنادق والمسدسات وصناديق الذخيرة تنهال عليه ـ خذ. خذ سلاحك. خذ فسادك، وارحل عنا، ليس لدينا إلا هذا الصبي، وتريد إفساده، سرقته، توريطه في جرائمك.

كانت موسيقى عجيبة واضطراباً مخيفاً وضجيجاً لم يعتده هشام أو زيدان، ولا حتى مريم، ضجيجاً جعل أهل الحارة يتطاولون من نوافذهم، وأخصاصهم، وأبوابهم المواربة، ضجيجاً اختلط فيه صوت الحديد المصطفق بالأرض بصرخات حسيبة خانم الغاضبة، بعويل مريم، بلهاث زيدان، بجمود هشام الموتي.

في هذه المرة أصيب زيدان بالخوف، بالخوف الحقيقي، فلقد وقع أخيراً في الكمين الذي لايستطيع فيه دفاعاً عن نفسه، وقع في الكمين الذي طالما هرب منه كل السنوات الفائتة، نظر من حوله مرعوباً يحاول التماسك يبحث في الأبواب المواربة والأخصاص الغامضة والنوافذ المغطاة بالستائر المطرزة عن الشرطة المختفين، والتحريين المنتظرين، والدرك الموتورين، نظر إلى الأسلحة المكومة على الأرض، وعرف ألا أحد يستطيع إنقاذه الآن، ولربما لو لم يحذره إياد، ويتهرب منه خليل بك في الأسابيع الفائتة لغامر وصنع شيئاً ولكن.... على العاقل أن يعرف موقعه الحقيقي في الوقت المناسب.

ودون أن ينتبه إليه أحد، أو يمسك به، أو يفعل شيئاً لإيقافه كان زيدان يبتعد من الحارة، يولي، ثم يختفي هارباً، فلا يسمع له خبر من بعد، وبسرعة وصل الخبر إلى الشرطة، ففوجئوا... فوجئوا تماماً بكل هذه الترسانة، حملوها ومضوا بها إلى المخفر، وعند كتابة المحضر تدخل إياد الجوقدار، فلم يقبض على هشام، ولم يرسل إلى سجن الأحداث، ولكن كان عليه أن يواجه حسيبة خانم وحيداً هذه المرة.

وجاء الليل، الليل الوحدة، الليل الخوف، الليل الذكريات، وتقلبت حسيبة في فراشها، تقلبت تبحث عن نوم نجمي لا يوصل إليه، تقلبت تفكر فيما مضى، وتستعرض تلك الأيام التي عاشتها منذ طرقت مع صياح باب حمدان الجوقدار، واعتصرها الحزن، فها هي ثمرة كل هذا العمر والعناء والإصرار على إبقاء راية العائلة مرفوعة تكاد تضيع، يا إلهي! لو لم أتدخل في اللحظة المناسبة أما كان من الممكن أن يتحول مهرباً أو قاتلاً، أو... تدعوه تلك الثعابين الفولاذية فيلحق بفياض وصياح. العمل. والعمل؟

وسمعت أفلح من قال لا إله إلا الله ومازالت تتقلب، وسمعت الصلاة خير من النوم ومازالت تتقلب، وأذن الفجر ومازالت تتقلب، سمعت أولى حركات الجيران الماضين إلى صلاة الفجر ومازالت تتقلب،   وأخيراً لم تستطع الإصرار، فهاهي ليلة بيضاء أخرى تنتصر عليها، قامت إلى المطبخ، صنعت فنجاني قهوة، حملتهما إلى جانب البحرة وفي تلك اللحظة اشتهت، من قرارة قلبها اشتهت لو أن خالدية خانم حية لفتحت لها مصاريع القلب السرية، وبكت، تمنت لو أنَّ حمدان حي لحدثته عن الأحزان، عن الخيبات والانكسارات وبكت، تمنت لو أنَّ صياح حي لنامت على صدره واستغفرته وبكت، تمنت لو أنَّ فياض، آه فياض الكلب، أما كان يجدر به أن يكون موجوداً يقف إلى جوار ابنه في هذه الأزمة؟!

رشفت الرشفة الأولى وتأملت الدالية المصفرة، رشفت الرشفة الثانية وتأملت شجرة المسك العملاقة، رشفت الرشفة الثالثة وتأملت النارنجة ولكنها ماكادت تفعل ذلك حتى انتفضت مرعوبة. ماذا؟ أهي تودع البيت كما ودعه عمر وياسين وأحمد ومحمود ومحمد علي وحمدان و... انتفضت فأوقعت صحن الفنجان على الأرض فانكسر، وعندئذ استبشرت، فها الشر ينكسر، ولكن ما العمل؟ ما زال السؤال دون جواب!

لفَّت ملاءتها من حولها فتحت الباب وخرجت، ولكنها هذه المرة لم تجرؤ على الخروج إلى القنوات، فخرجت إلى باب السريجة ومنه إلى باب الجابية، فالسوق الطويل، لم تعد ساقاها قويتين، ولم تعد تحسن ذلك المشي الطويل الذي كان يعيد إليها هدوءها، ويفجر

الأفكار الجديدة في رأسها، ووجدت ساقيها المتعبتين تقودانها إلى جامع النورية.

كان الوقت ضحى، ولم يكن في المسجد كثيرون، توضأت، فغسلت عن ذراعيها ووجهها عرقاً وتعباً وأرقاً وإنهاكاً، صلَّت تحية المسجد ثم صلَّت الضحى، ثم صلَّت ما لاتعرف له أسماً، ولكنهاصلَّت وصلَّت تبحث عن إجابة، عن راحة، وعن هدوء لم تحصل عليه.

خرجت إلى الباحة، استندت إلى العمود البارد، مدَّت ساقيها تريحهما، وماكادت تفعل حتى سمعت نحنحة فالتفتت لترى الشيخ حمزة، ويشهق القلب. أما يزال هنا؟ أما يزال حياً؟ واستيقظت ذكريات، وتمطّت أحزان وخيبات ولكنها في قرارة القلب أدركت أنها ما جاءت إلا للقائه، استجمعت قواها، فقامت إليه، قبلت يده، وبكت: ـ مولاي.

ـ أم عمر؟

ـ نعم يا سيدي، أم عمر.

ـ ألا تذكريننا إلا والحزن معرش في سمائك. ماالأمر؟

ـ الولد، التراث، الذكريات، الراية الموشكة أن تضيع.

ـ تعالي معي إلى فوق، تعالي، وهناك نتحدث.

مضت وراءه إلى درج جانبي يقود إلى غرفة علوية، وحين مضت إلى ذلك الدرج لم يلفت الباب المغلق المصفح بالتوتياء انتباهها، ذلك الباب الذي سيراقبه هشام مسحوراً بعد بضعة أشهر حين يرى الشيخ أبو طوق يخرج منه حاملاً تلك الحية الزيتونية الزلقة، بل أكملت مسيرتها وراءه حتى غرفته العلوية، فتح الباب ودخل، دعاها إلى الدخول، وأشار إلى كرسي كبير من خشب الحور مغطى بفروة خروف عتيقة: تفضلي.

جلست. نظر إلى فوق بعينيه الغائمتين ينتظر، فتحدثت، حدثته عن الآمال الضائعة في الخليفة الجديد، عن المصير الذي صار إليه،

عن إنقاذه في اللحظات الأخيرة، تحدثت، وتحدثت وهو يهز رأسه في فهم.

ـ مولاي، أخبرني. قل شيئاً، ماذا أصنع؟

ـ الأمر خطير. ولد دون أب، ونساء لا يستطعن شكمه، لم لا ترسلينه إلى المدرسة الشرعية؟

ـ المدرسة الشرعية، وماذا يصنع فيها؟

ـ يدرس، ويتعلم الشرع الشريف، ويعبد الله، ويقيم في المدرسة لا يرى رفاق السوء، ولا يرى أحداً إلا مرة كل أسبوع، وتعاد تربيته حتى ينسى الماضي كله.

ـ ويرجع الابن الحقيقي لبيت الجوقدار؟

ـ إن شاء الله.

ـ ويقبلون به؟

ـ سأكلمهم في ذلك.

وخلال أيام انتقل هشام من مدرسته الحكومية إلى المدرسة الشرعية ليبدأ تجربته الجديدة في إعادة تأهيله ليصبح الابن الحقيقي لبيت الجوقدار. شهور خمسة كانت قد انقضت حين سمعت حسيبة طرقاً متردداً على الباب، وكان يمكن لها ألا تسمعه لو أن زينب كانت خلف طاولتها الدودوية، ولكنها كانت قد قامت لبعض شأنها، فسمعت حسيبة الطرق.

(18)

شهور خمسة كانت قد ودعت فيها هشام حين صحبته إلى تلك المدرسة المسورة بجدران حجرية عالية، شهور خمسة اصطدمت فيها مع زينب وتشاجرتا حتى انفصل العالمان، وصار لكلٍ فلكٌ يسبح فيه لاترى الأخرى ولا تريدها، شهور خمسة استرجعت فيها حسيبة ليالي الأرق تلك التي عضت فيها جوانب البحرة الرخامية لتسكت فيها خوار الثيران ومواء القطط وروائح الزعفران تملأ رأسها، شهور خمسة ندمت فيها، وبكت الأيام الماضية التي أوصلتها إلى هذا البيت الكبير الخالي تضطرب فيه الريح، فتثير زوابع من ورق المسك وورق الدوالي الأصفر القاسي والمطقطق لدى كل حركة قدم، شهور خمسة طويلة رأت فيها الأسماك تخرج من بلاليع البحرة وتعبث في جوانب الباحة لا ترهبها أصوات الدودودو ولا خطوات حسيبة الضعيفة، شهور خمسة اسودَّت فيها جوانب البحرة من أشنات لم تنظَّف، وحشائش رماها النهر وزنخ لم تحكه مقشات مريم أو وداد، ولا ذراعا حسيبة الضعيفتان، شهور خمسة تجرأت فيها الستاتي حتى صارت تخطف خيوط الجوارب المنثورة لتبني منها أعشاشاً، لم تعد تخاف هشام وسطواته على أعشاشها، ولا مريم ومقشتها الطويلة، ولا وداد وقبقابها الطيار يلاحقها في مرابضها، شهور خمسة استنسرت فيها العصافير حتى صارت لا تخاف أن تخطف الكسرة من أصابع زينب الذاهلات، شهور خمسة تجرأت

فيها بذور الشاب الظريف، فتسللت إلى الشقوق الترابية بين البلاطات والجدار، والبلاطات والبحرة، والبلاطات وأحواض الزريعة، فأنتشت وريقات خضراً زمردية مالبثت أن انشقت عن زهرات نارية الحمرة وعذرية البياض، شهور خمسة تجرأ فيها العنكبوت فنسج شباكاً امتدت من سقف الإيوان حتى الجدران، فالديوان محاولاً جعل مملكته مستقلة عن كل الممالك، شهور خمسة حاولت فيها حسيبة للمرة الأخيرة أن تنقذ ما يمكن إنقاذه من هذه المملكة المنهارة، فجمعت مريم ووداد ليساعداها في الضغط على زينب لطلب الطلاق من فياض الغائب والزواج بأبو سعيد القصبجي، فالبيت بحاجة إلى رجل، والمملكة بحاجة إلى منقذ، ولكن انفجار زينب المتوقع فاق كل توقع، فقد تخلت عن آخر جدار حذر أو تعقل، نتفت شعرها، ضربت رأسها بالجدار، هجمت على أمها فألقتها أرضاً محاولة خنقها وهي تصرخ، وتعول، وتولول: أتريدين موته، أتريدين موته؟ كنت أعرف أنك تغارين مني، تحسدينني عليه، على شبابه، على جماله، على علمه العريض الواسع، فسعيت حتى حولته إلى دكنجي، دكنجي أيتها المرأة المتخلفة الحاسدة الـ..... الغيور الـ..... وكان واضحاً أنها تبحث عن كلمة قالتها أخيراً: الدكنجية.

وحين قالتها ظهر الانتصار على وجهها، فاستدارت مبتعدة عنهن عائدة إلى آلتها وهي تتمتم: الدكنجية، الدكنجية، الدكنجية، وحتى حين صمتت كانت الآلة الثرثارة قد حفظت كلمة زينب، فظلت ترددها من بعدها: الدكنجية، الدكنجية، الدكنجية.

شهور خمسة أخفقت فيها حسيبة في رأب أي صدع في جسور علاقتها مع زينب، شهور خمسة هاجمتها فيها الشيخوخة المبكرة فابيضَّ ماتبقى من شعرها الفاحم، وتغضَّن ما هجرته اللقوة من وجهها، وثقلت تلك الخطوات النزقة التي طالما تغنى بها حمدان وخالدية.

شهور خمسة أخفقت فيها حسيبة في استعادة راية مملكتها الجوربية ولو بعاهل جديد حين كادت زينب تقتلها رافضة فكرة الزواج من آخر بعد فياض، شهور خمسة حاولت فيها استعادة الجسور القديمة مع السماء، فصارت تكثر من الصلاة وزيارة

الجوامع والشيخات، ولكن ساقيها لم تعودا قادرتين على مساعدتها كالماضي، فصارت تستريح كل بضع خطوات مستندة إلى هذا الجدار، وذاك الطالع.

شهور خمسة كانت حسيبة تنتظر فيها شيئاً، ولكن ما كانت تنتظره لم يكن أبداً ما لقيته حين فتحت الباب لترى رجلاً عجوزاً بلحية صغيرة بيضاء، وعمامة صغيرة بيضاء، سألها: بيت حمدان الجوقدار؟

نظرت إليه طويلاً: أهناك من لايزال يعرف باسم الشيخ حمدان الجوقدار، وأشارت برأسها أن نعم.

قال: ابنكم هشام الشيزري؟

وللمرة الأولى منذ شهور تنشدُّ الأعصاب الهلامية المسترخية المستسلمة لهديل الستاتي وقفزات الأسماك من جوانب البحرة، والتماعات خيوط العنكبوت المنتشرة في الإيوان، فقالت بصعوبة تحاول دفع الريق إلى فمها: نعم.

قال: غاب عن المدرسة منذ الأمس، فهل تعرفون عنه شيئاً؟

وصرخت: غاب؟ غاب؟ مامعنى هذا؟ هل تعني أنه هرب؟

- ربما ولكنا لم نسمع عنه خبراً منذ صباح الأمس، فرأينا إخباركم.

- إخبارنا؟ إخباري. وماذا نفعل؟

- تبحثون عنه لدى أقاربكم، معارفكم، معارفه، هه السلام عليكم.

راقبته يمضي دون أن تصرخ، دون أن تستدعيه، دون أن تحاول مزيداً من الاستعلام، الاستفهام، الاستخبار، فقد شعرت في قرارة قلبها أنها كانت تعرف أنه سيفعلها، كانت تعرف أن يوماً سيأتي يتسلل فيه، من البيت مع الفجر كما تسلل صياح وفياض، ولتتحقق نبوءة الشيخ عبد الحميد امرأة تنجب امرأة، وأنثى تلد أنثى.

جرَّت خطواتها عائدة إلى الباحة، جرَّت خطواتها تبحث عن متكأ تستند إليه حتى تهضم الفكرة، جرَّت خطواتها باحثة عمن تنقل إليه ذلك الخبر المخيف، ثم ذكرت ألا أحد في البيت إلا تلك العقوبة

الأزلية التي عاقبها بها جماعة البسم الله الرحمن الرحيم حين كسرت القيود وخرجت مع الرجال إلى الجبل تحمل الجنادات، وتشحن البواريد، وتوزع الماء على عطاش رجال الجبل.

نظرت إلى وجهها الشائخ قبل الأوان، قبل الأوان بكثير. يا إلهي! أهذا وجه امرأة في التاسعة والعشرين؟! هذا الوجه الناشف كتينة برية نضجت ولم تَحْلُ، وجفّت ولم تَحْلُ، ورمتها الريح إلى الأرض جافة تقرقع على الأرض لم يقربها طير ولم يشتهها نمل، فقد جفت ولم تحل. نظرت إليها ثانية وشهقت في أعماقها: يا إلهي! أهذه هي زينب الشقراء الرقيقة شفافة البشرة الوديعة واسعة العينين المدهوشتين تريدان التهام العالم معرفة؟!

نظرت إليها، وأرادت أن تنبش خفايا القلب، أن تحدثها عن الأحزان الجديدة، الهزائم الجديدة، المرارات الجديدة، وأي يوم جديد لا يجلب لها مرارة جديدة، ولكنها اكتشفت أن كل الحبال مقطوعة، فقد التصقت بالآلة وتحولت معها إلى قطعة واحدة تهتف في صوت حالم خالد حتى لتتساءل حسيبة أحياناً إن مرّ يوم على هذا البيت لم يعرف هذه الآلة الثرثارة ودودوها الدائم، نظرت إليها وامتلأ الحلق كلاماً، نظرت إليها واختنقت العيون دموعاً، ثم اكتشفت .... ألا فائدة: زينب، زينب، ولكن أحداً لم يجب، والتفاتة لم تُفد سماعاً، ثم شكَّت إن كانت أصلاً قد نطقت؛ زينب، دارت في الباحة، نظرت إلى الأشجار العجائز، البحرة الخضراء الداكنة لتكاثف الأشنات عليها، الإيوان الأغبر، الباحة المنسوجة من ورق يابس، وأحست اختناقاً بسيطاً، فحاولت رفع ذراعيها قليلاً تحاول تنفساً عميقاً، ولكن ذراعيها لم تكملا الطريق، اتجهت إلى البحرة تغسل وجهها، وتستعيد بعض النشاط، فرأت البحرة تفور بالماء فجأة، تفور وتفور، حتى يرتفع الماء في النافورة، ليصبح كتلة غليظة بيضاء متسخة قليلاً، اتجهت إلى البحرة مسحورة لتسمع منها صوتاً يغرغر بالماء: حسيبة، حسيبة، وعرفت أنه شيخ البحرة، عرفت أنه جاء ليستمتع بانتصاره، فصرخت ولم يَعُد لديها ما تخاف عليه:

ـ عليك اللعنة يا شيخ البحرة، تظن نفسك انتصرت، عليك اللعنة.

ومرقت ذكرى سريعة لخالدية تقول: إنهم ربما لم يكونوا موجودين، وربما ليسوا إلا أرواح الأجداد الحاقدين، فقالت: عليكم اللعنة، أيها الأجداد المحبطون، عليكم اللعنة أيها الغيورون الحاقدون، سرقتم رجالي واحداً واحداً، ولكنكم لن تهزموني، فهشام ـ لهثت قليلاً مترددة حتى لا تذكرهم به، ثم رأت ألا مجال للتردد بعد الآن فقالت: باقٍ، باقٍ وسيرفع الراية.

ارتفعت الذراع المائية، ارتفعت حتى ارتعدت حسيبة لمرآها، فقررت فجأة ألا تستسلم وانطلقت تهاجمها ولكن ضعفاً في الكاحلين، ورخاوة في الساقين، تخاذلاً في القلب، هي لاتعرف ما الذي جرى بالضبط؟ ولكنها انحنت فجأة تعانق جدار البحرة الرخامي، وحين عانقته امتد خيط أحمر خفيف تسلل بين الأشنات، ولكن دفقة ماء جديدة مالبثت أن جذبته معها إلى البالوعة العميقة حيث كانت تخاف من شيخ البحرة أن ينتظر.

لم تسمع زينب لعنة واحدة من لعنات أمها لأنها ظلت تثرثر مع الآلة المخيفة ثرثرتها الطويلة التي لم تنقطع دودودودو

1986/9/29

خيري الذهبي

رواية حسيبة لخيري الذهبي حدث متميز في الرواية العربية ، رواية متميزة لتجنبها الكثير من مآزق الرواية العربية ، وبسبب اقتحامها لميادين جديدة في التجربة الروائية

الناقد والروائي غالب هلسا - مجلة العربي

جماليات المكان في رواية حسيبة بمعناه الفني لا بمعناها الجغرافي الجماليات التي تصنع من المكان بطلاً من أبطال العمل الروائي ، أو البعد الذي يمتص أبطال الرواية ويتدخل في صنع مصائرهم
إنه المكان الذي نتغير خلال عبورنا فيه ، المكان الذي نغدو فيه غير ما كنا عليه قبل دخولنا فيه وهذا ما حدث لأبطال رواية حسيبة

شوقي بغدادي - مجلة عمان

رواية حسيبة تفرض نفسها على القارئ متيحة له إمكانية أو عدم إمكانية فهمها على حقيقتها وهذا هو شأن الروايات العظيمة.

د. قاسم مقداد - صحيفة الأسبوع الأدبي

خيري الذهبي ليس روائياً فحسب ، إنه روائي بالدرجة الأولى ، ولكنه أيضاً مفكر يمتلك رؤيا حقيقية تقرأ التاريخ والمستقبل . ونستطيع أن نقرأ هذا كله في روايته التحولات

القدس العربي - لندن

قال بلزاك إن كلمة واحدة تقيم فرنسا وتقعدها ، ونحن نقول بعد أن قرأنا ثلاثية خيري الذهبي التحولات ، إن رواية واحدة قد تقيم سوريا وتقعدها ، وهذا ما حدث مع الرواية الأولى حسيبة والثانية فياض . فلقد بدأ الجدل يدور حولها فهاهم يكيلون لها المديح ويشرحونها ويجرحونها مدفوعين بعواطفهم بحبهم أو بحسدهم.

د. عبد الرزاق عيد - مجلة إلى الأمام

التحولات (١)

حسيبة

(الطبعة الرابعة)

خيري الذهبي